

الولاء للشبي



محمود
السعدني

الجزء الثاني

من البيت

تقدم

الولد الشيقي

الجزء الثاني

محمود السعدني



مقدمة

في هذا الكتاب ستقرأ أسماء وهمية وأحداثاً وقعت بالفعل . وهي أحداث لم يكن لي أي فضل في تأليفها ، ولكنني ذكرتها كما حدثت وصورتها كما وقعت بلا رتوش . وهذا الكتاب ليس قصة الصحافة ، ولكنه قصة اشتغالي بالصحافة ! وإذا كنت قد خضت خلال رحلتي في الصحافة ، خرائب ومتاهات وصناديق قمامة ، فالذنب ليس ذنب الصحافة ، ولكنها الظروف والمرحلة التاريخية التي عاصرتها ثم حظى التعيس عني النهاية .

وللأنصاف والتاريخ أقول أنه رغم اللوحة المظلمة التي رسمتها في هذا الكتاب فقد كانت هناك نقط بيضاء ومضيئة وباهرة . إلى جانب الأخ علوي السمين كخنزير بري ، الغبي كفحل

جاموس منوفى ، كان صحفيون بالئات يدخلون
السجون دفاعا عن رأى والتزاما بمبدأ • والى
جانب مجلة السحاب الرخيصة ، كانت صحف
بالعشرات تغلق وتصادر ، وكتاب يطاردهم
البوليس كما يطارد السبع الجائع غزالا شاردا فى
غابة • ورغم كل شىء فقد كان جيش الأمة المسلح
بأقلام وأوراق هو الذى ثار ضد النظام الملكى
قبل أن يتحرك جيش الأمة المسلح بمدافع وبنادق
ليهدم النظام من أساسه ويخلع الملك من فوق
عرشه •

ورغم كل شىء ستظل الصحافة المصرية تفخر
بعشرات من نجومها اللامعين ، هؤلاء الذين تحولت
الأقلام فى أيديهم الى مدافع ، وتحولت الجرائد على
أيديهم الى ساحات قتال • من عبد الله النديم الى

مصطفى كامل الى الشيخ على المؤيد الى لطفى السيد
الى طه حسين وعباس العقاد الى الدكتور محمد
منصور الى كوكبة الصحفيين الشبان الذين يمثلون
مكان الصدارة في صحافة جيلنا الحاضر .

وعلى أية حال . فهذا الكتاب ليس تأريخا
وليس تسجيلا ، ولكنه مجرد خواطر وانطباعات
وذكريات حزينة ومريرة عن فترة من أعنف فترات
مصر وأكثرها قلقا واضطرابا وازدهارا وطموحا
ورغبة في تجميل الحياة .

واذا كانت سطور الكتاب مريرة ، فلأنها
الحقيقة ، وليس أوجع من الحقيقة ، وليس أشد
ايلاما منها على النفس !

محمود السقحي



وهكذا أصبحت صحفيا . . فذات صباح مبكر من عام ١٩٤٦ خرجت من الجيزة أسعى وراء طوغان الذي كان قد سبقني وجرب حظه في صحف ومجلات كثيرة أغلقت كلها أبوابها ! خرجت أسعى خلفه بينطلون مجفف أخفت الجاكته عورته وجاكته كاروهات كانت في الاصل بطانية . . وكل عدتي قلم حبر رخيص وكشكول فيه بعض الازجال . وأول هذه الازجال كان عن عسكري الداورية . هذا البعيع أبو شنبات الذي هو مفروض ان يكون حارسا على الطريق فاذا به قاطعه !! ومنذ اللحظة التي بدأت أتحرك فيها قاصدا عالم الصحافة كانت في ذهني فكرة لم تستطع التجارب والايام أن تمحوها من ذهني فكرة استقرت في عقلي بفضل مقالات التابعي والصاوي وفرج جبران !

فكرة ان الصحافة صاحبة جلالة وان لها بلاط . وانها حفلات ورحلات ونجم صحفى مشهور يكتب وهو جالس على كرسى فى مقهى انيق فى الشانزلزيه ، ونسوان كما القشطة الصابحة تعاكسه وتباكسه وتجري وراءه . . وزعماء يستيقظون فى الليل على هدير صوته ، ووزارات تسقط تحت هول كلماته ، وعدل يقوم وظلم يندك بفضل توجيهاته وتعليماته ، وغضبة عنترية قد تؤدى بالاستاذ الى السجن . . ثم يخرج بعد أربعة أيام ليحكى للناس قصة كفاحه العظيم داخل الزنازين الباردة . ولكن منظر الصحف التى طرقنا أبوابها لم يكن يطابق صورة الحلم الذى فى أذهاننا ! مجلات فى العتبة وشارع محمد على وفى

عابدين اسمها الحميس والكوكب والشهاب المضيء . ولقد كنت أتخيل أن وراء الجدران يعيش العشرات من رهبان الفكر وحملة الاقلام وأصحاب القضية .. ولكن من النظرة الاولى على من كانوا داخل هذه الجدران شعرت بمدى بؤس هؤلاء الناس وفقرهم .. ولكن نظرتى الاولى اليهم لم تكن كافية لأن أتخلى عن فكرتى القديمة عنهم كرهبان رأى وأصحاب قضية !

ولقد دخت وراء طوغان دوخة الارملة الوحداية . واستطاع هو أن يشق طريقه بسرعة لأنه كان يحمل بضاعة تختلف .. فبينما كان هو يبرز لهم رسوما .. وهى عملية لا يستطيع كل انسان أن يصنع مثلها كنت أحمل أنا بضاعة معشوشة .. لأنها هكذا هى مهنة الكتابة .. فكل انسان يستطيع أن يكتب ، وكل كتابة هى مثل الاخرى ، لولا بعض الفروق . ولكى نكتشف الفرق فلا بد من ميزان كميزان الذهب هو الذى يحدد أى الكتابات أنفع وأبقى ! ..

ولكنى فى النهاية ورغم ذلك وصلت ! فرحلة طولها ألف ميل تبدأ بخطوة واحدة .. ورحلتى لم تكن ألف ميل ولكنها كانت سبعة أميال فقط ، من بيتنا الى شارع الخليج المصرى ، وفى دكان فى بيت كان يوما ما أسطبلا لحمير أحد المماليك البحرية ، ومن هذا الاسطبل بدأنا أول عمل صحفى . كانت المجلة اسمها السحاب ، وكان صاحبها كامل بريقع يرجمه الله عامل طباعة استطاع فى أيام سطوة البوليس السياسى استئجار رخصة صحفية باسمه ، ولم يكن للصحيفة موعد محدد للصدور ، وكانت معروضة دائما للايجار كأنها شقة مفروشة . وكان يتصيد زوار مصر من البلاد العربية لينشر لهم صوراً على طول الصفحة ، و « نبذة » عن تاريخ بلادهم وفصولاً عن كفاحهم .. وكان يسترزق من هذا العمل بما يكفيه . وكان هؤلاء الضيوف من التفاهة وقلة القيمة لدرجة أنهم كانوا يشعرون حقاً بالسعادة لأن صحف مصر قد التفتت اليهم .. واستأجرنا مجلة السحاب من كامل بريقع ، وأصدرنا منها عدة اعداد رافعين عليها شعار : « مجلة الشباب والطلبة والجيل الجديد » وأخذنا كارنيهات من المجلة بتوقيع كامل بريقع . كارنيهات تقول ان العبد لله محرر (كذا) فى الجريدة ، وقد وقع كامل بريقع باسمه تحت عنوان كبير « المدير العام » !!

ولقد كان كامل بريقع نموذجاً لمئات والوف من الناس كان يزخر بهم العصر . كان شديد الجهل شديد الذكاء .. وكان كثير

المشاكل يسكن مع عائلته الكبيرة فى بيت حكر بالقلعة ! . .
ورغم انه كان يكسب كل يوم خمسة جنيهات الا انه كان
ينفق كل يوم أربعة جنيهات على المزاج . فقد كان مدمن
حشيش ، وكان يدخن باستمرار ويستحلب الأفيون كل لحظة
ويحتسى فناجيل القهوة بلا حساب وكان يبدو وكأنه يرغب فى
أن يغيب عن الوعي الى ما شاء الله . . وكان فهمه
السياسى ينحصر فى الخلاف بين على ماهر والسراى
. . وفى التعديل الوزارى القادم . . وكان هو دائما
مستعدا لكل تعديل وزارى ، لا يسير فى ركابه كما تظن !!
ولكن لسبب تافه للغاية . . فقد كان كامل بريقع يحصل على
اعلانات حكومية للصحيفة بخمسين جنيها كل شهر . وكان هذا
المبلغ هو مورده الثابت . ولذلك كان دائما شديد الحرص عند
كل تعديل وزارى على أن يعرف من هو مدير المطبوعات الجديد .
فاذا كان رجلا سبق له التعامل معه ، بدا شديد السعادة
والرضا . واذا كان شخصا لا يعرفه ، عاش فى هم شديد وقلق
بالغ ، حتى يقرر الرجل استمرار صرف مقطوعيته من الاعلانات
الحكومية ، وعندئذ يعود سيرته الاولى ، الى دكان الصحافة يلف
سجاير الحشيش ويستحلب قطع الأفيون ويحتسى فناجيل
القهوة بلا حساب ! وعرفت عم كامل عن كذب . وكان اذا التقى
بضيوف فى المجلة بدا أمامهم كأنه احد صناع السياسة المصرية
فى تلك الفترة من الزمان . فاذا خلا لنفسه بدا على حقيقته .
مجرد بائس . . شديد القلق شديد الفلاس دائم البحث عن مورد
جديد لاكل العيش ، ولقد أدت به هذه الرغبة المجنونة الى
ارتياح الطريق الصعب . فسرعان ما اكتشفت ان صحيفة عم
كامل هى مأوى لعشرات من النصابين والمحتالين . . ولكنهم
والحق أقول أبرع من عرفت من هذا النوع من الناس . وانهم
جميعا أصحاب مواهب وذوى ارادة ، ولو أحسن تربية هؤلاء
الناس وتوجيههم لكان لبعضهم شأن عظيم . ولقد التقيت فى
هذه الصحيفة بالرجل الذى باع الترام . ونصاب آخر خفيف
الدم شديد الذكاء اسمه كساب !! وهو فنان نصب ، لانه
يحبس وهو ينصب بنفس النشوة التى كان يشعر بها تشيكوف
أثناء كتابة قصة ، وبنفس السعادة التى كان يشعر بها رمسكى
كورساكوف وهو يؤلف شهر زاد . والحق انه كان يعزف وهو
ينصب . ولم تكن هذه الفئة كلها تتجه فى نصبها على الفلاحين

أو الفقراء ولكنها كانت تنصب على فئة الخوارج والحكام وأصحاب النفوذ . وكانت الفكرة بسيطة . تذاكر مذهبة لحفلة خيرية تحت الرعاية السامية الملكية ونصاب عامل يستعينون به ، أى أنه نصاب ليس له حصة فى عملية النصب ولكن له أجر يومى يتقاضاه سواء نجحت العملية أم فشلت . وكان هذا النصاب العامل يرتدى زيا خاصا كسعاة البنوك . وكان يعتنى بمظهره وهندامه عناية كبرى لأنها كل رأس ماله فى الحياة . وكان يستعمل موتوسيكل فى مشاويره . وكان دور كامل يريقع فى العملية هو طبع التذاكر فاذا انطبعت تولى احدهم الاتصال بأصحاب الشركات فى التليفون « آلو . . محلات عمر أفندى ، انا على ماهر باشا ، صباح الخير ياخواجا ، فيه حفلة فى الاوبرج تحت الرعاية الملكية ، أيوه هانبعث لك عشر تذاكر ، التذكرة بعشرة جنية ، شكرا » .

وكانت هذه العمليات تجرى فى حجرة خشبية ليس بها سوى مكتب وتليفون . وكثيرا ما كان النصاب الاجير يقع فى يد البوليس ، ولكن النصابين الكبار كانوا دائما فى أمان . وحتى اذا سقطوا فى يد العدالة بشهادة النصاب الغلبان كانوا سرعان ما يطلق سراحهم لعدم توافر الادلة !!

وأغرب شئ أن هؤلاء الناس كانوا مطاردين من البوليس الجنائى وكانوا فى الوقت نفسه على صلات طيبة بالبوليس السياسى . فهم يتحركون فى قطاع عريض من الحياة . ولهم صلات وطيدة بالمطابع وهى صلات تجعلهم يتعرفون على طابعى المنشورات السرية من الطلبة والعمال . ومعلوماتهم فى هذا المجال ذات فائدة عظيمة !

وذات مساء قدر لى ان أهجر صحيفة السحاب الى غير عودة . لقد ألقوا القبض على كامل نفسه فى عملية نصب من هذا النوع . وجاءت زوجته تصرخ عند الدكان وتلطم . ولكن أخبار كامل لم تنقطع أبدا عنى .

وفى أعوام الثورة الجزائرية الاولى عشر على شخص هارب من ليبيا . وكأنما عشر على كنز لايفنى . واستطاع كامل ومعه الليبى الهارب أن يسببا متاعب لا حد لها للثورة الجزائرية .

فقد ادعى الليبى الهارب واسمه مسعود أنه جزائرى محكوم عليه بالاعدام . واصدر كتابا عن كفاحه وجهاده فى الثورة . واستطاعوا ان يبيعوا من هذا الكتاب عشرة آلاف نسخة كل نسخة بخمسة جنيهات .

وسافر مسعود بكتابه الى الكويت والاردن والسعودية . وفي
النهاية مات مسعود وحيدا في مستشفى القصر العيني !
والتفت بكامل بريقه بعد ذلك ولآخر مرة منذ عشرة أعوام
عندما جاءني يطلب مني ان ابحث له عن عمل في دار صحفية
كبيرة . ولم يحضر بعد ذلك ، ولم ابحث له أنا عن عمل . ثم
عرفت بعد ذلك انه مات .. يرحمه الله !

ولم يبق من هذه الصحبة الا عم كساب . ولا يزال على قيد
الحياة . وهو رجل قادر على ان يصبح أى شئ في أى لحظة .
فهو تاجر وأحيانا طبيب ، وأحيانا صاحب شركة .
و ذات مرة أصدر صحيفة اسبوعية كبرى اشتغل فيها عدد
من الصحفيين اللامعين اليوم . ولقد رأيت ذات مرة في حفل
دعت اليه هيئة التحرير في بداية تكوينها . وكان يرتدى زيا
باكستانيا باعتباره من كبار المسلمين في دكا وقد جاء ليهنئ
بنفسه !!

وقصص ومغامرات كساب تصلح افلاما ولا افلام جيمس
بوند . فقد افتتح عيادة في إحدى قرى الريف واجرى عمليات
لعشرات انتهت كلها بالوفاة . وأخذ أجر العملية وأخذ رشوة
من أهل الميت نظير أن يمنحهم الجثة لدفنها بدون تشريح !
ولقد خرجت من تجربتي الاولى في الصحافة بحسرة . وفقدت
تلك الصورة الزاهية الالوان عن صاحبة الجلالة وبلاطها .
وأدركت ان البلاط هو الواجهة . ولكن في القفا بدرونات
ومزابل ومطابخ ذات رائحة عبقة ..

ولم يمر وقت طويل حتى صدرت صحيفة نداء الوطن .
اصدرها ناظر مدرستي القديمة، مدرسة المعهد العلمي الثانوية .
وكان قد أصبح نائبا على مبادئ الهيئة السعدية . وكان رئيس
التحرير يدعى مختار .. وكان شديد المهابة شديد
الاحترام .. اهم ما يميزه خمسة أقلام حبر انيقة يضعها في
جيوب جاكته بشكل بارز .

ولقد رأى مختار اننى صغير السن الى درجة اننى لا أصلح
للكتابه . وعندما اصطدمت به فصلنى صاحب الجريدة . وبعد
أعوام قليلة من هذا الحادث . عرض رئيس تحرير مجلة
مسامرات الجيب بعض مقالات مختار على العبد لله لأبدى الراى
النهائى فيها !



وخرجت من نداء الوطن وعدت اسرح خلف طوغان من جديد .
 وكان المشوار هذه المرة الى مجلة الكشكول . وفي هذه المجلة
 التقيت برجل من طراز عظيم ، ولقد احترمتـه في أول لقاء
 ولازلت احترمه . كان اسمه محمد حمدي . وكان سميـنا وطيبا
 وفي رأسه أحلام كثيرة . وكان دائم الحديث عن مشروعات
 ضخمة ودور صحف تقام ، ومرتبـات بمئات الجنيهات ، ونسخ
 بالملايين وبالبلايين ، وكان ساحر الحديث يستطيع أن يقنع
 حتى الصخور وحتى الحمير ! ولكن عند التجربة ، كان حمدي
 يرحمه الله يسقط دائما . ولذلك اكتفى خلال رحلة حياته
 بإصدار الأعداد الأولى من الصحف الجديدة ، ثم الاستقالة
 لإصدار مشاريع جديدة !

ورغم استقالة محمد حمدي فقد بقيت انا في الكشكول .
 فقد كان على رأس الجريدة رجل طيب يدعى أمين اسماعيل ،
 وكان أمين على علاقة بالآخوان المسلمين ، ولكنه كان صاحب
 مزاج ! ولقد أرادوه درويشا من دراويش الآخوان فأصبح
 درويشا من دراويش الحياة . . . ولقد بقيت في الكشكول ثلاثة
 شهور نشرت فيها أزجالا ومقالات ثم أغلقت أبوابها . وشعرت
 بالحزن الرهيب فقد كان وقتا قصيرا كالحلم . . . ولكن فقدت
 فيه أعظم منبر وقفت عليه تلك الأيام !

وعدت من جديد اسعى وراء طوغان ، وفي هذه المرة كان
 السعى الى مجلة السوداى . وكان زكريا الحجاوى صديقنا القديم
 قد سبقنا الى مجلة السوداى . وفي اللحظة التي وقع فيها
 بصرى على زكريا في المجلة ، أدركت وانا شديد الحسرة أن
 زكريا الحجاوى لا يصلح لهذه المهنة ، ولا يصلح لمنصب المدير !!
 فلقد تخلى زكريا الحجاوى عن رداء الفنان الذي يصلح له ودخل

فى ثوب المدير • وراح يتكلم بحساب ويومىء بحساب ، ويكبس الطربوش بعناية وهو داخل الى مكتب رئيس التحرير !
وفى السوادى الثقيت بكثيرين • خليل الرحيمى ، وأحمد عباس صالح ، وعمر رشدى ، وعبد الفتاح غبن ، وآخرين ، وكانت الكتابة هى العملة السهلة فى مجلة السوادى ، ولكن الاجر كان أصعب من الاسترلينى والدولار !

ولم البث أن أصابنى يأس قاتل • هذه هى الصحافة ، وذلك هو بلاط صاحبة الجلالة !!! • خير منه الاسفلت والرصيف • وتركت كل شىء فجأة وعدت من جديد الى حوارى الجيزة وشوارعها ، الى قهوة مرعى أحيانا وقهوة أمين أحيانا : وهأنذا أقف وحدى الآن فى الحياة وكل شىء يمضى من حولى • فلا تلميذ أنا أصبحت ، ولا موظف أنا اكون ، ولا صحفيا أنا استطعت • ولا رغبة عندى فى التلمذة ولا رغبة فى الوظيفة ولا مشاريع جديدة فى بلاط صاحبة الجلالة!

وأصدقاء الطفولة الذين كنت قد تركتهم خلفى فى الجيزة تبددوا جميعا وراح كل منهم بأسلوبه يصارع الحياة ، بعضهم استطاع ان يتلاءم مع ظروفه ، وبعضهم استطاع ان يتلاءم عليها! ولكن أنا وحدى الذى لم استطع ان اتلاءم معها ولم استطع أن أتلاءم عليها • فوقفت وحيدا كما خيال ماآته مرشوق فى بطن الارض وسط حقل من الضياع والفشل والهوان ! • •

واعترتنى تلك الايام لحظات يأس عنيفة ، وفكرت أحيانا فى الانتحار ، وشرعت ذات مرة فى تنفيذ ما عزمته عليه • وذهبت الى شاطئ النهر ووقفت اتفرج على التيار • كنت أحمل فى يدى كراسة قديمة جلدتها صفراء وبالحبر الشينى كتبت على الجلدة « مسافر بلاوداع • مجموعة قصص مصرىة تأليف الكاتب المشهور محمود السعدنى • حقوق الطبع محفوظة للمؤلف » • وكنت قد كتبت خلال بداية فترة الصياغة مجموعة من القصص القصيرة وكانت أول قصة فيها قصة جندى سافر الى الحرب ولم يعد • وجنت أمه ووقفت تنتظر عودته كل مساء ، ولكن القطار كان دائما يدخل المحطة فى المساء دون ابنها ، ومع ذلك ظلت تذهب الى المحطة وتنتظر • وذات مساء حضر القطار وفيه ابنها ، ولكنها تعثرت وسقطت تحت عجلات القطار فى نفس اللحظة التى كان الابن الغائب يقفز من القطار الى رصيف المحطة • وماتت الام دون ان يراها ودون أن تراه •

قصة كنت معجبا بها غاية الاعجاب ، لان اصدقائي كانوا يستمعون اليها باعجاب وحماس ، ولعل السر في ذلك هي انها كانت على طريقة « يوسف وهبه ! » في تأليف الروايات .. وفكرت في أن أخلع ملابسي واتركها عند الشاطيء ليعرف الناس ان شخصا ما قد غرق في هذا المكان . وفكرت أيضا في ان اضع الكراسية فوق الملابس لكي يعثروا عليها فتشرها الجرائد والمجلات . واذا كنت انا المؤلف لم أستطع الحياة ، فلا أقل من أن توهب الحياة لهذه القصص التي هي من صميم الحياة !! أو هكذا كنت اعتقد تلك الايام !

واذكر اننى بكيت وانا واقف عند الشاطيء اتأمل الامواج والتيار . وقلت في نفسي وأنا انظر الى الحياة تموج من حولي ، يا للعار ، هذه المدينة المترفة الجبارة التي يبعثر اهلها الوف الجنيات كل ليلة على موائد القمار لاتستطيع ان توفر لي عشرة جنيات كل شهر هي كل ما كنت اتمناه بمن الحياة ؟! ولكن في اللحظة الاخيرة خانتني شجاعتي ، وكان الظلام قد حل على الكون ، وأصبح الشاطيء أكثر وحشة وأكثر كآبة !! فاطبقت بشدة على الكراسية وعدت من جديد الى قهوة السروجي لألعب الكومى كما اعتدت كل مساء ..





وكانت قهوة السروجي في مواجهة بيت طوغان ، وكانت شيئاً فريداً بين مقاهي ذلك الزمان . كانت كل الكراسي من الخشب الزان والقش المجدول بعناية ، وفي الجوانب تتناثر بعض الدكك ولكنها دكك تصلح للمتاحف ودور الآثار . دكك من العهد المملوكي بالخشب الاويما وبالصدف والعاج . وعلى حوافيها آيات قرآنية وبعض الحكم والامثال وكان عم السروجي نفسه رجلاً مهاباً محترماً قليل الكلام . طالت ايامه فأصبح فوق السبعين ولكن احداً لم يره أبداً بعيداً عن مكانه خلف الكيس والشيشة في يده والحوائم تلمع بين اصابعه وهو جالس كعمدة من عمد الريف في جلباب كشمير وحذاء برقبة وصديري بلدي والشيشة دائماً في فمه وجمرات النار تتقد على دخانها العجمي بلا انقطاع . وكانت النصبية على يمينه ليتمكن من مراقبة الطلبات ، وخلف النصبية حوض ماء تصب فيه حنفيتان ، واحدة للماء الساخن والاخرى للماء البارد المثلج ، وكان أغلب المارين في شارع عبد المنعم يقتحمون القهوة بلاأحم ولا دستور ليشرّبوا الماء المثلج وكأنها سبيل أم عباس . . .

وكان المعلم السروجي يتصرف مع هؤلاء الناس بطريقة واحدة لا تتغير اذا كان المتطفل رجلاً نظر اليه نظرة جهنمية وقال لامؤاخدة . . الحنفية عطلانة . واذا هجم على الحنفية قذفه بالماشية التي يصلح بها النار في وجهه أو في رأسه فيترك الولد المضروب الكوز ويجري خارجاً يصرخ ويترنح وكأنه كلب مسعور أصابته طبلقة في المليان .

وعلى مقهى السروجي تعرفت بعشرات من النماذج البشرية ليس لها مثيل في الكون . عم سيد خليفة الذي كان يسرح في حوارى الجيزة بقفص فراخ ليس فيه فراخ ولا كتاكيت ولكن

بظروف مقفولة يبيعها للتلاميذ وللفلاحين القادمين من الارياف وما فى داخل الظروف حق صاحب البخت والنصيب ، رغم أن الظروف كلها كانت فارغة ولا تحتوى على شىء . ولكنه بعملية نصب فيها شىء من المهارة وشىء من غفلة الزبون كان يغرى الناس بالاقبال على الشراء !

وكان عم سيد فى نظر البعض محتالا ولكنه فى نظر نفسه كان تاجرا وصاحب مهنة تعتمد على المجهود الذهنى والبدنى . وكان شديد الايمان بأنه لا يزال فى بداية الطريق الذى سلكه عمر أفندى وأنه لن يلبث أن يكون مثله عما قريب . .

وكان سيد يكسب كثيرا ، ولكن ارباحه كلها تذهب اول الليل الى خمارة جرانت حيث كان يشرب السبرتو بشراهة ، فاذا تبقى معه شىء من النقود جاء ليقامر بها مع رواد قهوة السروجى فى آخر الليل ! وكان غريمه دائما رجلا اعرج يشبه كثيرا الشخصيات التى تزخر بها قصص جوركى . كان اسمه محمود وجاء الجيزة من حيث لا يدري احد . . وجاءها متسولا ثم استوطن بها والتحق بخدمة اسرة كانت تحتكر عربات الكارو ولم يلبث ان اصبح عم محمود معروفا فى الحى وفى الجيزة كلها وذاع صيته لانه كان يقرأ الفنجان ويفتح الكوتشينة . ولم يمض وقت طويل حتى اشترى عم محمود قطعة أرض واصبح من الملاك ومن الزبائن المحترفين فى قهوة السروجى . وكان النصر دائما فى معارك الكوتشينة لعم محمود الهادى والفشل دائما لغريمه المتهيج المخمور . ولذلك كان الصباح دائما يتصاعد فى الشارع آخر الليل ، وكان الصباح من الحدة ومن الشدة بحيث يجذب عسكري الداورية واحيانا كان ينتهى الحال بهما فى مركز البوليس . وعندما مات عم سيد ذات مساء قتيلا ومخمورا على الرصيف ، انقطع عم محمود من لعب الكومى ، واكتفى بالجلوس بعيدا واسداء النصيح الى المقامرين ! وذات مساء هبط على قهوة السروجى رجل له كنبوش وبدلة متجلدة وحذاء فى لون الطين ، وكنت قد عرفت الرجل فى مناسبات اخرى كثيرة سابقة . ولكن وصوله الى قهوة السروجى ، كان كملاك الرب هبط على العبد لله من السماء .

جاء الرجل أبو كنبوش الى مقهى السروجى ذات مساء وكانت الليلة ممطرة وموحلة وبردها قارس ، وكان المعلم السروجى يجلس فى مكانه المعتاد والشيشة فى فمه يتطلع

الى الزبائن فى سكون كأنه اله يرعى عبيده الطيبين ، وعندما وقع بصره على الرجل أبو كنبوش انتفض واقفا وصافحه بحرارة ، وتخلي عن مكانه القديم وجلس معه وطلب واحد شاي مميزة مخصوص للبيه . . . وكان انتقال المعلم السروجي من مكانه والجلوس مع زبون على مقعد قش عادى حادث غير عادى فى مقهى السروجي .

وسرعان ما تهامس الزبائن الموجودون تلك الساعة عن يكون الزبون المحترم الذى شرف المقهى فى هذه الساعة المتأخرة من الليل : وقال أحدهم وهو رجل طويل متين البنيان اسمه عم زكى ، وكان تاجر خضار يسرح بعربة يد فى شارع عبد المنعم ، وكان أجش الصوت كثير العراك شديد البأس اذا خاض معركة فى الشارع فتك بكل من يقف فى وجهه . . . وكان عم زكى يؤكد أن سبب قوته الحارقة هو شغفه الشديد باللبن الزبادى . . . وكان يقسم بأغلظ الايمان أن جده مات بعد حياة طويلة امتدت الى مائة وعشرين عاما ، وأنه تزوج من بنت عذراء وأنجب منها ولدا قبل موته بعام واحد ، وكان هذا الولد الاخير هو والد عم زكى . . . وكان عم زكى رغم بأسه وقوته المفرطة يخاف على نحو خاص من عساكر البوليس . . . وكان يحترم أى رجل له علاقة بالحكومة . . . ورغم أنه كان بخيلا بشكل ملحوظ الا أنه كان ينفق أموالا طائلة لكى يتعرف على مخبر عين حديثا فى المركز ، أو لكى يسهر ليلة واحدة مع الصول الذى يياشر مهمة الضابط النوبتشي . . . لذلك همس عم زكى فى أنحاء المقهى ، فعادر المقهى أكثر من زبون ، كان بعضهم يحمل مخدرات معه ، والبعض الآخر كان لا يحرز أى شىء مخالف للقانون . . . ولكنهم آثروا الانسحاب حتى لا يعرضوا أنفسهم لأى خطر متوقع . . . غير أن الرجل أبو كنبوش لم يكن ضابط مباحب ولم يكن له علاقة بمركز البوليس . . . فقد أشار المعلم السروجي نحوى ، وهو يتبادل الحديث مع الضيف . . . ثم دعانى للجلوس معهما . . .

وعندما قدمه الى . . . اكتشفت أن اسمه على وأن البيه صحفى كبير كما أكد المعلم السروجي ، وأضاف أن البيه يريد أن يقرأ شيئا من انتاجى تمهيدا لتعيينى فى منصب

كبير في المؤسسة التي يملكها .. وعندما أبرزت من جيوبى أوراقا بها أزجال .. وقصص ، ومقالات ، اختار البية عدة أوراق وراح ينظر في سطورها بعدم اهتمام ، ثم هز رأسه في النهاية وقال عفارم عليك .. دى مقالة جامدة قوى !! وقال المعلم السروجى فى اهتمام بالغ ، صحيح ؟! واستبدت بى الدهشة لان الشئ الذى قرأه البية المهم لم يكن مقالا ولكنه كان قصة قصيرة من صميم الحياة ! ومع ذلك لم أتوقف عند هذه الملاحظة طويلا ، وظللت أكتب مقالات وقصصا وأعرضها على البية وأنتظر صدور المجلة الجديدة . وكم كانت فرحتى شديدة عندما اكتشفت أن البية هو نفسه الذى يسكن فى بيت طوغان وفى الدور الارضى وفى شقة منزوية ومظلمة وأنه يقيم حفلات ساهرة فى شقته يحضرها خميس بائع الكازوزة المشاغب !! ويحضرها أيضا بعض الشخصيات المريبة فى الجزيرة .. ولقد رأيت البية فى مرات كثيرة سابقة وعندما سألت عم خميس أكد لى أن البية صحافى كبير وأنه مدير عام مجلة الساعة « الصاعقة » وأنه غنى ينفق عن سعة وأنه صاحب نفوذ فى الحكومة بدليل أن عددا من ضباط البوليس يترددون على شقته !! وعبثا حاولت أن أعرف اسم البية كاملا ولكن الجميع كانوا يعرفون أن اسمه على ولا أحد يعرف اسمه الكامل .. وأن كل المعلومات التى لدى معارفه قد استقوها من على نفسه ، وأن أحدا منهم لم يزره فى مكتبه ، كما أن أحدا منهم لم يره مشغولا بعمله فى يوم من الأيام !!

وذات صباح شفيت من داء الانتظار ، فقد اقتحم البوليس شقة على واقتادوه معهم الى القسم بعد أن زفوه فى الشوارع وضربوه على قفاه ، وتركوا الاولاد يلطخون ملابسه بالطين ويرجمونه بالحجارة .. ولقد ضبطوا فى منزل على مسروقات لاحد لها ، وتبين أنه نصاب عريق وأن له سجلا حافلا من السوابق ، وأنه كان ينتحل صفة محرر بمجلة الصاعقة التى كانت ذائعة الصيت تلك الايام .. ولقد كان خميس المشاغب هو أكثر الناس شماعة فى على ، رغم أنه كان صديقه الوفى ! ولم أفهم سر شماعة خميس الا بعد ذلك بأسابيع ، فقد علمت أن النصاب على كان يخفى عند خميس كميات ضخمة

من المسروقات ، وأن خميس قد استولى عليها بعد القبض على الصحفي الكبير على !! واكتشفت عندئذ السر الذي جعل البيه يخلط بين القصة والمقالة ، فقد كان الاستاذ أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ولكنه كان يتمتع بذكاء خارق وصاحب حيلة واسعة ودهاء شديد . ولقد أصابني الملل بعد ذلك من طول ما جلست على مقهى السروجي وقررت أن أقوم بأي عمل يبعدني عن جو المقهى الكئيب . . . وكانت جمعية الاخوان المسلمين في الجيزة تقيم ليالي سياسية في مقرها القريب من المقهى . . . وقررت أن أنضم الى الجماعة ، فأنا خطيب أجيد مهنة الزعيق والصراخ بالالفاظ ذات الرنين ، وأنا أيضا يكمن في أعماقي مسجّد وسميع أحب تلاوة القرآن . . . وخطفت رجلي ومعى طوغان الى المقر وحررنا استمارتين للعضوية ولكن سببا هاما وقف عائقا أمام انضمامنا للجمعية ، هو أن مسئول الفرع طلب خمسة قروش من كل فرد منا كاشتراك شهري ، ولما لم يكن معنا صنف العملة بالمرة فقد اعتذرنا وانصرفنا !! والى غير رجعة !

وهكذا عدت من جديد الى مقهى السروجي . . . ولكن الوقت لم يطل بي هذه المرة ، فسرعان ما انتقلت الى مجلة جديدة عندما قرأت أول أعدادها لم استطع ان اذوق طعم النوم ليلة بأكملها . كانت المجلة اسمها « كلمة ونص » وكانت ضاحكة وساخرة وجذابة . . . وكان مأمون الشناوى وصلاح عبد الجيد هما رئيسا التحرير ، ولا تحمل المجلة توقيع أحد غيرهما في الداخل وقررت الذهاب الى دار المجلة فأنا أكتب شيئا قريبا من هذا الكلام المنشور بها . . . وفعلنا طرقت باب « كلمة ونص » ذات ظهر أحمر شديد الحرارة لافح القيظ ، وكان العرق يتصبب من جبينى وشعرى الناعم قد تحول الى كتلة من الطين بفضل العرق والتراب . . . وكانت جيوبى محشوة بأوراق تافهة وليس معى صنف العملة . وكان كل أملى أن يسمح لى بالجلوس فى دار المجلة حتى العصر كي أتمكن من العودة الى الجيزة فى التراويح ، لافنى سأعود على القدمين !! واستقبلنى مأمون الشناوى بعدم مبالاة وبدون ترحيب . . . وقال على الفور وبدون مقدمات وكأنه قد شبع وارتوى من هذا الصنف من الناشئين المترددين على دور الصحف والمجلات . . . عاوز تكتب ؟ ولما أجبت بالإيجاب تساءل فى تهكم . . .

وبتعرف تكتب ؟ ولما أجبته بنعم ، أشدّر على مكتب امامه وقال
اقعد كده وريني ٠٠ ورغم ارتباكى الشديد وخوفى من الفشل
فى أول امتحان حقيقى أواجهه ٠٠ فقد كتبت عدة أوراق
بسرعة ٠٠ وعندما ألقى عليها نظرة قال وهو يتفحصنى ٠٠٠
انت اسمك ايه ؟ وهتفت على الفور : محمود السعدنى ، فسألنى
وهو يشعل لنفسه سيجارة ٠٠ السعدنى والا السعدانى ؟ قلت
السعدنى ، قال آه ، انت عارف السعدان يعنى ايه ؟ ولما
أجبته بالنفى ، قال السعدان يعنى قرد ٠٠ والسعدانى
يعنى القرداتى ها ها ها !! وهممت بالجبرى من أمام مأمون
الشناوى ، وفكرت أيضا فى أن ألعن جدوده وانصرف ،
ولكنى لم أستطع التصرف ، وظللت واقفا كتمثال لا أتكلم ولا
أتحرك حتى هتف مأمون الشناوى : طيب ابقى قوت علينا
تانى ! ولم افهم هل هو جاد فى أن أفوت عليه تانى ، أم
انه مجرد كلام حتى أمضى من أمامه ؟! وعندما صدر العدد
الثانى من « كلمة ونص » وجدت كل حرف كتبه منشورا
بالمجلة وكاد قلبى يتوقف من شدة الفرحة ٠٠ ورحت أقرأ
ما كتبت أكثر من مرة ٠٠ وانطلقت بأقصى سرعة مستعملا
جميع وسائل النقل المعروفة وقتئذ ، فتشعبت على سلم
الترماى ، وفى الاوتوبيس ، وفى المرحلة الاخيرة من الرحلة
قفزت على عربة كارو ولم أتركها الا أمام باب المجلة !! ٠٠٠
ولشدة حزنى اكتشفت أن يوم الصدور هو يوم العطلة ،
فعدت أدراجى الى مقهى السروجى ، واعتكفت وحيدا فى ركن
بعيد أعيد قراءة مقالاتى القصيرة وأنا أشعر بلذة ليس لها
مثيل ٠٠ وشعرت تلك اللحظة ، أن الكلمات المطبوعة لها
طعم خاص يختلف عن غيرها من الكلمات ٠٠ وأن الطباعة هى
أخطر ما اخترع الانسان ٠٠ وان هذه المجلة الصغيرة التى
تنام بين يدي ٠٠ هى أول الطريق الى عالم المجد والشهرة
والأحلام !

وفى اليوم التالى كنت أقف أمام مأمون الشناوى يتفحصنى
بعينين نصف نائمة نصف مفتوحة ، وكان مأمون يرتدى
قميصا من الحرير اليابانى وأمامه على المكتب عدة أوراق وعلبة
سجاير فاخرة ، ومنديل من نفس قمىش القميص ٠٠ وقال
وهو يضحك ، هو انت السعداوى ؟ وقلت كأننى تلمينخايب

فى مدرسة صارمة التقاليد : لا . أنا السعدنى . وقال مأمون ولا يهملك !! كله عند العرب صابون . . أقعد . . وقعدت أمامه وقال أكتب لنا شوية براويز . . ورحت على الفور أكتب كأننى ماكينة ضغط مأمون على زرها لتدور : وكنت هذه المرة أكثر شجاعة وأكثر اطمئنانا . . وعندما انتهيت من كتابة الاوراق أصبحت محررا بالمجلة وبمرتب شهرى ستة جنيهات كل شهر ، فهكذا قال مأمون الشناوى وهو يشير نحو حجرة جانبية ستصير هى حجرتى لعدة شهور قادمة هى كل عمر المجلة . . كانت الحجرة واسعة ونظيفة وبها مكاتب أنيقة ، ولم يكن هناك مكتب مخصص لأحد بذاته ، ولكنها كانت مشاعا لمن يجلس . . والتقيت فى هذه الحجرة بزميلين ربطتنى بهما صداقة طويلة . . أحدهما هو على الدالى فنان فلاح من قرى المنصورة . . طرد من وظيفته وجاء الى القاهرة يرتدى بالطو أصفر وبر جمل كان يبدو داخله كأنه مدرس الزامى فى إحدى مدارس الريف . . وكان على قنانا على دراية واسعة بمشاكل الريف ، وأحوال الفلاحين . . وكان قبل حضوره الى القاهرة موظفا فى قسم البلهارسيا ومهمته الاشراف على تطهير مجارى المياه فى الريف . . ولكنه هرب ذات صباح من الوظيفة ومن المنصورة وحضر الى القاهرة

ليحترف الصحافة . وكان الآخر هو يوسف فكرى وقد حضر من السويس الى القاهرة . . ليعمل سكرتيرا للتحريير . . وكان طويلا ونحيفا وطيبا وكنوبيا ، ولكن أكاذيبه كلها كانت بيضاء . . وفى نفس الحجرة كان يجلس رسام كاريكاتيرى اسمه مجدى كان شهيرا ولامعا تلك الايام . . وكان يعمل فى مجلة روز اليوسف قبل ظهور عبد السميع !! ورغم أنه كان يحترف الفن ألا أنه لم يكن يؤمن بالفن كوظيفة لها غاية فى الحياة . . وكان الفن فى رأيه مجرد أكل عيش أو وسيلة لزيادة الدخل ، لذلك كان يقف مع قضية ما ويقف ضدها ،

وكان يرسم كلما واثته فرصة للرسم ، ويتقاضى أى مبلغ يعرض عليه ، ويدور طول النهار يلف على دور الصحف يرسم لها ويقبض منها . . وكان يبدو كتاجر خردوات متجول عديم الأنفعال بارد الأعصاب الى درجة تغيظ وقد نصحتنى فى أول لقاء بأن أبحث لنفسى عن مهنة فى الحكومة لأضمن

لنفسى موردا ثابتا .. وكان يكرر هذه النصيحة كلما حدثت مشاكل بسبب الفلوس فى المجلة .. فقد أشتغلت خمسة شهور كاملة ولم أتناقص عنها الا ستة جنيهات فقط ! ولقد قدر لهذه المجموعة أن تلتقى أكثر من مرة فى عمل واحد بعد ذلك ، غير أن مجدى الرسام لم يلبث أن هجر الصحافة واختفى بعد ذلك بسنوات وقنع بعمله الحكومى بمصلحة المساحة !

ولقد كانت تجربة .. « كلمة ونص » رغم قصر المدة كفيلا بأن تمنحنى الثقة وتدفعنى الى التمسك أكثر بهذه المهنة التى أحبها .. كما كانت فرصة لاتعرف على أصدقاء جدد ، وكان مأمون الشناوى هو أهمهم وأكثرهم تأثيرا فى نفسى . وفى بيت مأمون الشناوى تعرفت على كثيرين من نجوم المجتمع ، وعندما رأيت أحمد بدرخان أول مرة فى بيت مأمون كدت أرقص من شدة الفرح ، فقد كانت المرة الأولى التى أرى فيها رجلا من رجال السينما يعينى رأسى ! وكان بدرخان بسيطا وأنيقا وطيبا الى درجة حبيبتنى فيه .. وكان يحلم بأفلام كبرى ملونة تفرض نفسها على العالم ، ولكنه عندما ناقش موضوع الفيلم الذى يكتب مأمون أغانيه ، تأكدت أنه لن يستطيع تحقيق أحلامه فقد كانت الفكرة ساذجة الى حد بعيد ! وعشت أياما طويلة تعصرنى البطالة ويرهقنى الانتظار .. وكان مأمون الشناوى هو قارب النجاة الوحيد الذى أعلق به للوصول مرة أخرى الى الصحافة .. ولكن مأمون نفسه كان يعانى هو الآخر من البطالة ومن الفلس .. ورغم ذلك كان كريما الى حد السفه ، مضيفا ولا الامين ابن الرشيد متلافا لا وزن عنده لما سوف يحدث غدا .. وشعرت أننى أثقلت على مأمون الشناوى فانسحبت فى هدوء الى الجيزة ولكن هذه المرة الى كازينو شهريار .. وكان

المكان هادئا وأنيقا وعلى النيل ومقصد العشاق والمشاهير من رجال الصحافة والادب ، والناشئين والمدعين وانصاف الادباء وانصاف الفنانين . ولم يكن لهؤلاء الانصاف حديث الا ما أصاب الحياة الفنية من قحط ، وما حظ على دنيا الادب من بلاء وكل فنان مشهور فى عرفهم هو لدول استطاع الوصول بأساليب رخيصة ، وكل اديب معروف هو نذل وخائن للوطن ! وكان هؤلاء الفاشلون يعيشون داخل انفسهم ولديهم قدرة هائلة على احترام ذواتهم رغم الفشل .. ولعل هذه هى ميزتهم

الوحيدة ، وهى التى حفظتهم كل هذه السنين وشجعتهم على البقاء على هامش الحياة الفنية طامعين يوما فى الدخول فيها ، رغم ان كل الابواب كانت موصدة ، وكل المسالك مسدودة . . . بسبب ضعف مواهبهم الفنية وضحالة ثقافتهم وقلة خبرتهم بالحياة وبالناس ، ولقد اصابنى النعر منهم عندما عرفتى بهم أول مرة . . وأبديت نحوهم احتراما شديدا ، كانوا يدفعون دائما ثمن المشروبات التى نطلبها ، وكانوا أيضا يرتدون أفخر الثياب فقد كانوا موظفين فى دواوين الحكومة ولهم رواتب ثابتة . . ولكن هيافتهم كانت واضحة الى درجة اننى اكتشفتها بعد فترة . . وعندئذ رحت أمزح معهم فى البداية ، ثم رحت اسخر منهم . . ولم يجدوا ما يعيروننى به الا اننى عاطل ، ولقد حز هذا الوصف كثيرا فى نفسى ، ولكنى لم أكف أبدا عن السخرية بهم والتشنيع عليهم . . وان كان وصفهم لى بالصايغ قد دفعنى الى الا لتحاق بوظيفة حكومية . . وهكذا وجدت نفسى ذات صباح موظفا حكوميا فى عمل موسمى بمصلحة المساحة . . وكان هذا اول وآخر عمل رسمى أقوم به فى حياتى . . وكان العمل هو حصر المساحات المنزرعة فى مصر كلها وتحديداتها حسب نوع المحصول . . وكان المكتب الذى يضمنا عبارة عن حوش كبير تتناثر فيه المكاتب المكسورة المجروحة والقذرة . . وفى الوسط يقوم مكتب واحد كبير كانه منصة قضاء ، وهنا يجلس رئيس القلم وهو رجل عجوز شديد الاهتمام بشأربه الكثر الذى يجعله اشبه بممثل كومبارس فى مسرحية هزلية . . وكان الى جوارى موظف قديم يرتدى بنطلون شورت ليس من باب الرياضة ولكن لعدم توفر القماش . . وكان اسمه جرجس أفندى وكان شديد النفاق للبيه المدير ، مع ان المدير كان فى الدرجة السابعة ، وكانت ميزته الوحيدة انه يدخن السجاير من علبة ، بينما الموظفون جميعا يدخنون السجاير الفرط . . ولما كنت أنا أصغر الموظفين سنا واكثرهم عدم مبالاة ! فقد اشعنت فى المكان جوا مرحا . . وكان جرجس أفندى هو هدفى فى البداية ، ثم امتد نشاطى فشمل الجميع حتى رئيس القلم على أفندى . . وبعد ثلاثة شهور كاملة فصلت من الوظيفة ! والتهمة اننى أحلت المكان الى سيرك . . وكانت التهمة حق ، فمن ذا الذى يوجد فى مكان يحوى كل هذه النمساذج من الحيوانات ولا يتحول الى مهرج يتشقلب على ظهره ويمشى على السلك !

ولقد أبدت شلة الادباء الفاشلين شماته لا حد لها بسبب
فصلى .. فهاهو الولد الصايح عاد صايحا كما كان ولا فائدة
ترجى من حياته .. فلاهو تقع فى الصحافة ولا فليح فى الوظيفة
وأبدوا نحوى اشمئزا وتنفورا .. وكلما دخلت الكازينو
اشاحوا بوجوههم عنى ، فاذا حاولت الاقتراب منهم ابتعدوا
وانتقلوا الى ركن آخر .. وذات مغربية دخلت الكازينو منتفشا
كديك رومى وجلست على مقربة منهم وشفقت بشدة للجرسون
وطلبت فنجان قهوة سكر زيادة ولم اكن احب شرب القهوة ولم
اكن اطبق طعمها .. ولكنى تعمدت ان اطلبها لانها كانت اخص
مشروب فى الكازينو .. ولم يكن معى سوى نص فرنك فضه
جديد وكنت احتفظ به فى جيب بنطلونى .. ورحت ارتشف
القهوة على مهل وانا اتطلع اليهم فى كبرياء .. وعندما دخل احد
اصدقائى الشبان وصافحنى قلت له فى هدوء مسموع ، ابقى
كلمنى بكرة عشان تشتغل معانا فى المجلة الجديدة . ولم يكن هناك
مجلة جديدة ولا اشغال جديدة .. ولكن الهدف كان ان اغيظ
الشلة الفاشلة وان يشعروا بالحسرة لاننى حصلت على عمل فى
مجلة بينماهم يتطلعون الى العمل فى الصحافة دون جدوى ،
وعندما جاء وقت الحساب سقط قلبى فى حداثى ، فقد رحى
ابحث عن النص فرنك دون جدوى .. سقط من ثقب فى جيب
البنطلون .. ورحى ابحت فى الارض بعصبية شديدة لفتت
انظار الشلة نحوى فارتفعت ضحكاتهم تجلجل فى انحاء
الكازينو . وانهالت تعليقاتهم الساخرة منى .. ولكن الجرسون
الطيب الشهم حسين انحنى على الارض والتقط حفنة رمل وكأنه
التقط النص فرنك ثم حيانى فى ادب ومضى من امامى كأن الحساب
خالص ! تمثيلية قصيرة قام بها الجرسون لينقذنى من المحنة التى
وقعت فيها ولازلت احمل لهذا الجرسون الطيب وداعميا ومنزلة
خاصة فى نفسى .. وهو الان تاجر ناجح ومدير اربعة محلات
كبرى فى حى الدقى .. ولكنى وبرغم مهارة الجرسون وطيبته
المتناهية . وبرغم جو الحريف البارد فقد أحسست بالعرق يتصبب
من جسمى كله ، وشعرت بان الارض تدور بى واننى على وشك
السقوط مغمى على .. ومشيت كالسكران وغادرت الكازينو
الى غير رجعة ..

ياله من احساس رهيب على النفس عندما يصطدم الفاشل
بفشله .. هأنذا مجرد ولد صايح فعلا ، فلا شغلة ولا مشغلة

ووقتى كله ابدده فى ان اغيظ شلة كل افرادها اكثر فشلا منى
وهأنذا بعد سنوات من الكفاح المرهق الطويل لم أحقق شيئا
ولم اصل الى اى شى بعد وهتف هاتف فى نفسى .. الى أين ؟
نعم الى أين . الى أين ؟ سؤال راح يلح على نفسى وأنا أجر
خطواتى على الطريق المظلم الطويل المحاذى للنيل فى تلك الليلة
من ليالى الخريف الباردة . وبدا السؤال وقتئذ بلا اجابة ، كما
بدا الطريق أمام عينى بلا نهاية ، صحيح الى أين ؟ أنا نفسى
لم أكن أعرف ، ولم يكن هناك أحد يستطيع أن يجيب على سؤالى ،
وارتميت على دكة من الرخام على شاطئ النيل ، وانخرطت فى
بكاء عنيف هزنى هذا ..



ياله من احساس رهيب عندما يصبح الانسان الفرد وحيدا
فى مدينة كالقاهرة .. مزدحمة وكبيرة ! وفى ليالى الشتاء
المظلمة الكثيية كنت اضطر الى الخروج من مقهى قاصدا مقهى
آخر ، فاذا أغلقت المقاهى كلها كنت أقطع شوارع الجيزة بحثا
عن مكان أحتوى فيه من البرد الشديد دون جدوى . فاذا طلع
الصباح أسرع الى منزلنا لالتهم افطارا خفيفا وانام قليلا قبل
أن يعود أبى من الخارج ، لاستأنف الصياغة من جديد حتى
يطلع نهار آخر . حتى المقاهى أغلقت أبوابها فى وجهى لان
المشاريب أصبحت بالامر وحتى شلة زكريا الحجاوى هجرتها
هى الاخرى لخلاف بينى وبين واحد جديد اسمه سعد .. أصبح
زكريا الحجاوى على أنه أعظم من أنجبت مصر من الادباء وان
انتاج الحكيم والعقاد وطه حسين لابد سيتوارى يوما ما خزيا
أمام انتاج العبقري سعد .. هذا اذا قدر لانتاج العبقري ان
يظهر يوما ..

وكان زكريا الحجاوى يصدر مجلة اسمها الميزان ، وقد
نشر لسعد بحثا هاما فى أول أعدادها .. بينما رفض أن
ينشر لنا حرفا فيها .. وعندما ناقشنا زكريا فى هذا الامر
قال فى حماس غريب « سعد ده هو الاديب العربى الوحيد
الى هيعرف يرد على لينين » وكانت هذه أول مرة أسمع
فيها اسم لينين . ولكنى عند قراءة البحث تبينت مدى فساد
عقل سعد هذا ، ومدى فساد رأى زكريا !

ولما كان سعد ابن أسرة ثرية فى الريف ، وميسور الحال
وينفق عن سعة ، ولما كان زكريا يعتمد فى تدخين السجائر على
سعد هذا فقد انضم الى سعد ضدى وطرمنى بغير رحمة من
الشلة . وأثرت هذه الحادثة على نفسى تأثيرا كبيرا .. ففسد

وعطوفا ومدرسا مثاليا ، فقد أعطاني مفاتيح كثيرة للمعرفة
كان زكريا الجاوي هو أهم انسان في حياتي . . وكان حنونا
وكان له الفضل في أنني تعرفت على أعلام الفكر والفن
والموسيقى : الجبرتي ويعقوب صنوع ورومسي كورساكوف
وابن خلدون والامام الشافعي . . ولقد استفدت كثيرا خلال
الفترة التي عرفت فيها رغم أنه كان لا يقدم لنا أكثر من
أسماء هؤلاء الاعلام . . أما المعلومات فكان علينا أن نبحث
عنها بعيدا عن زكريا لأن زكريا نفسه لم يكن من هواة
القراءة . . ولم يكن لديه كتب ! ولذلك كان زكريا سلاحا
ذا حدين ، فلکم استفاد هؤلاء الذين التقطوا الحيط من زكريا
ثم تابعوه هم أنفسهم بعد ذلك ولكم ضاع هؤلاء الذين اكتفوا

بسماع زكريا واطمأنوا الى ان هذا الكلام هو نهاية المطاف
وغاية الثقافة ، فلقد كان زكريا يذكر أمام تلاميذه أسماء
كثيرة غريبة وكان ينسب الى هؤلاء الاعلام أفعالا لم يرتكبوها
ويذكر على سنتهم كلمات لم يتفوهوا بها قط . . وكان واسع
الخيال الى حد رهيب . حتى أنه حكى لي ذات مرة أن سيدة
ثرية من العراق استأجرت طائرة خاصة حلقت بها فوق
منزله في الجيزة لعل قلبه يرق لها بعد أن هجرها دون
جدوى . وحكى لي مرة أخرى أن فنانة مشهورة جاءت اليه
بعد منتصف الليل وهي ترتدي الملاية اللف والمنديل أبو
أوية ، وسارت معه على الاقدام فوق كوبرى عباس بالجيزة .
ولما استوضحته اسم الفنانة ذكر في هدوء بارد . . اسم
فنانة كبيرة !

ولكنى كنت سعيدا بصحبته رغم كل شيء . . وعندما فقدته
ادركت مدى الفراغ في نفسي . . ولقد غفرت له مواقفه مني في
أول لقاء لنا بعد ذلك فقد ادركت مدى بؤسه وضياعه . . والحق
أن زكريا كان طاقة فنية لا حد لها . . وكان يقطر فنا حتى من
بين اصابعه ومن تحت اسنانه . . . وبينما كانت الاصداف تلمع
تحت أضواء الشهرة . . كان زكريا الذهب ينام مدفونا تحت
تراب مستشفى الحوامدية . فقد كان زكريا هو كاتب المستشفى
وأمين المخازن ، واستطاع في فترة وجيزة ان يتحول من كاتب
في المستشفى الى زعيم للمدينة . . ولكن الروتين الحكومي العفن
الذي يريد من الموظفين ان يتحولوا الى مكاتب وليس الى زعماء

قدم زكريا للمحاكمة وطرده من المستشفى الى وظيفة حقيرة في مجلس بلدى الجيزة . . واضطر سنوات طويلة ان يعول عشرة أشخاص بخمسة جنيهاً لا تزيد ! وكان موقفه السياسى مضطرباً مثل حياته . . ففى صباه تولى زعامة الطلبة فى مدرسة الفنون والصنائع . . ولعب دوراً هاماً ضد النحاس باشا وحزب الوفد . . وعندما ترك المدرسة كان من رواد التنظيمات الماركسية فى مصر . . واستمر حتى أصبح يشغل منصباً قيادياً فى أحد التنظيمات !

ثم اختلف مع اليساريين وخرج بما أسماه الاشتراكية الإسلامية ولكنه لم يستمر طويلاً فى هذا التيار ، ولم يلبث أن هجر السياسة كلها قانعاً بجهوده فى الأدب والفن ، ولذلك عدت الى زكريا الحجاوى هذه المرة وأنا أكثر حذراً واعمق فهماً لتصرفاته غير انى لم البت أن هجرت الشلة مرة أخرى الى مجلة الاسبوع ، وكانت الاسبوع فى الاصل مجلة أصدرها جلال الدين الحماصى ثم توقفت عن الصدور فجأة . وجاء رجل من الصعيد اسمه أمين وأصدرها رغم أنه لم يكن على علاقة بالصحافة . وكان الائتلاف الدستورى السعدي يحكم البلاد بيد من حديد والرقابة مفروضة على الصحف وكانت أخبار اليوم هى المجلة الوحيدة المزدهرة ، وأيضاً مجلات دار الهلال ، وفيما عدا هذا فقد كانت كل المجلات تلقى المتاعب والاهوال . واجتمعنا فى مجلة الاسبوع : أربعة شبان صفار وصاحب المجلة . ورجل آخر اسمه هارون كان من أقارب صاحب العمل وكان يتولى منصباً هاماً ودائماً فى المجلة . . هو

حارس رئيس التحرير وملاحظ الطبع فى المطبعة وكان على جمال الدين يتولى منصب مدير التحرير ، وكان طوغان هو رسام المجلة الوحيد ، وكنت أنا كل اسرة التحرير وكل المحررين ! وكان يعف علينا كالطير عشرات آخرون . منهم أفندى صعيدى اسمه الاقصرى . بدد حياته كلها ومواهبه كلها فى الكتابة بالفصحى الصحيحة وبالنحو السليم . وكان يحفظ الفية ابن مالك عن ظهر قلب . . ويعتقد أن العالم اينشتين أجهل من دابة لأنه لا يعرف الفاعل من المفعول . . ولم يستطع الاقصرى هذا ان يدرك ان الحياة أوسع من الفية ابن مالك ، وان الكتابة احساس أكثر منها حفظ للفاعل والمفعول ! ولذلك كان دائم الشجار فى المجلة لأننا لانشر مقالاته . وعندما صدر العدد الاول كان يحمل

أول تحقيق صحفي بتوقيعي ، وكان التحقيق عن رجال الحرس الوطني ، وكان يقتر سخرية بخبراء الاقاليم ، وفي ذلك المساء حضر الاقصرى الى المجلة وسبني سباً شديداً ، واتهمنى بأن شخصاً آخر يكتب لى مقالاتى . وراهننى أمام الجميع أن أعرب « بلادى وان جارت على عزيزة . . واهلى وان جاروا على كرام » لا برهن للحاضرين اننى اجيد الكتابة . . ولم اعرب شيئاً بالطبع ولم يقتنع الاقصرى بأننى أنا الذى كتبت المقال . . باع العدد الاول فى الاسبوع سبعة آلاف نسخة . وفى العدد الثانى باع ألف نسخة فقط ، ثم أخذ البيع يتناقص حتى بلغ مائة نسخة ، وبينما كان صاحب المجلة فى دهشة لنقص التوزيع ، كنت أنا أيضاً فى دهشة لاننا نبيع كل هذه الكمية . فلم يكن فى المجلة شئ يقرأ . ولم يكن لها هدف واضح . وكان لدينا « مصوراتى » يحمل كاميرا ضخمة لها شوال أسود ضخم يضع رأسه فيه كلما ارتكب عملية تصوير أحد . وكان يحمل معه جردلاً لتحميض الصور وكان لا يصور الا فى الشمس . . وكان يقف فى ميدان التوفيقية بالقرب من دار المجلة . . وكنا نستعين به كلما دعت الحاجة الى جهوده . . وذات مرة سحبته من يده لنصور مجموعة من العمال العاطلين لاكتب عنهم موضوعاً بعنوان الذين فاتهم القطار . . وبعد ان التقط صورهم راح يستخرج لهم نسخاً بالاجر . وعندما نهزته امام الجميع حمل الجردل وضربنى به على رأسى . . ثم رفض العمل معنا بعد ذلك !

كان صاحب ورئيس تحرير المجلة قد بدأ يهمل شأن المجلة ونادراً ما كان يحضر الى مكتبه تاركاً العمل لحارس المجلة هارون وتحول هارون شيئاً فشيئاً من غفير خصوصى الى رئيس للتحرير وراح يفتش علينا فى كل لحظة ، والويل لنا اذا ضحكنا أو ارتفعت صيحاتنا . ثم راح يتدخل فى العمل أكثر . . واعترض على الرسوم والمقالات مع أنه لم يكن يقرأ ولا يكتب . وذات مساء جن جنونه فحمل هراوة وانهاه بها ضرباً علينا وطاردنا حتى الطريق . وظل عم هارون يصرخ طول الليل وفى الصباح حضرت الاسعاف وحملته معها الى مستشفى الحانكة وأجبرت هذه الحادثة صاحب المجلة على الحضور . ولكنه لم يحضر وحده ، جاء معه رجل اسمه اسماعيل الجوهري ، وقدمه الينا بصفته مديراً عاماً للمجلة .

وكان الجوهري رجلا مهيبا سميّا عليه سمات أصحاب الاعمال
وكان يحترف ادارة الصحف الميته . . فيكفيه اسم مجلة لينطلق
بعد ذلك ينصب على مخاليق الله . . وكانت السفارات الاجنبية
والشركات الكبرى هي مجالات نصبه . ولقد أقتنعا الجوهري ان
مجلة الاسبوع سيصير لها دار ولا دار أخبار اليوم . . وسيصبح
لكل محرر أرشيف ودوسيه خاص ، وستصلنا مرتباتنا في
أظرف مغلقة ، وسيصبح مرتب كل محرر خمسين جنيها كاملة
وعشت في هذا الحلم اسابيع كثيرة . ولكن أحلامنا كلها تبخرت
واختفى الجوهري أيضا من حياتنا . ولم يعد رئيس التحرير
يظهر بالمرة وعرفنا بعد ذلك أنه نال غرضه منها ، وأن الحكومة
قررت له مصاريف سرية وكمية من الورق ، كان يستهلك بعضها
في المجلة ويبيع الكمية الاكبر في السوق السوداء .

وجلسنا اسابيع نتدارس الامر ، على جمال وطوغان وانا .
ولكننا لم نصل الى حل . وذات مساء حظ علينا وافد جديد
اسمه فهمي . كان سميّا كالعجل ويرتدى بالطو من الجلدوطاقيّة
من طواقي الروس . وكانت معه قصة مترجمة عن تشيكوف
اسمها « النهار » وطلب منا نشرها . . ولما أخبرناه ان النشر
بدون أجر . . أبدى استعدادا طيبا للتعاون معنا على هذا الاساس
. . كانت القصة لابأس بها ، وعندما سألته عن اللغة التي ترجم
عنها القصة ، قال في هدوء . . الروسية . . وقال أنه قضى في
روسيا خمسة اعوام حيث كان والده يعمل مستشارا في السفارة
المصرية في موسكو . وان له مؤلفات باللغة الروسية ذائعة الصيت
هناك . . وبعد اسابيع اكتشفنا أنه طريد المدرسة السعيدية ،
وأنه لا يجيد لغة على الاطلاق ، وانه نصاب راسخ القدم في هذا
الفن ، وأنه لم يخرج من القاهرة الا الى بنها . . وعندما واجهناه
بالحقيقة اكتفى بالابتسام ، وصاحبنا بعد ذلك طويلا . واشتغل
في عدة صحف كبيرة . ثم سافر الى الخارج وأقام فترة طويلة
هناك . . ولكنه لم يكف أبدا عن النصب في أي مكان يحل فيه
ثم قدرله ان ينتهي النهاية الحتمية والوحيدة التي كانت تنتظره
فقد دخل السجن ليقضى مدة العقوبة . . الاشغال الشاقة المؤبدة
ولا يزال في السجن حتى الان !

ثم جاءت النهاية بعد ذلك . . وفي ليلة ممطرة ومظلمة
وشديدة البرودة . وكنا نجلس في المطبعة على جمال وأنا ،

كنا نطبع سبعة آلاف نسخة كل أسبوع ، نبيع منها مائة نسخة
ثم نبيع المرجوع فور رجوعه وكنا نتناول اجورنا من ثمن المرجوع
وهي لم تزد أبدا عن جنيهين في كل مرة . وقررنا في تلك الليلة
أن نبيع المجلة فورا ، وقدرنا أننا سنكسب أكثر لان الاعداد طازة
وساخنة وستزن أكثر . . . وهو عمل على أية حال خير ألف مرة
من طرحها في السوق ثم أعادتها من جديد ، ثم بيعها بعد ذلك
ثم هو أيضا حل لمشاكل كثيرة بالنسبة لنا . . فلم يكن معنا
نقود . ولم يكن لدينا سجائر ، وكنا نشعر بالبرد والجوع . .
وفعلا غادرت المطبعة قرب الفجر الى شارع محمد علي . وعدت
الى المطبعة ومعى تاجر ورق يجز عربة يد وميزان لزوم الوزن
بالاقية . . ورحنا نحمل الاعداد ساخنة من المطبعة الى الميزان . .
ولهنأ أكثر من ثلاثين جنيها دفعة واحدة . . اقتسمناها على
الفور ، واحتففت كل منا بنسخة من المجلة . وانصرفنا على غير
موعد والى غير لقاء . ولم يشعر صاحب المجلة بالامر الا بعد
أسبوع . عندما ذهب الى دار المجلة ليكتشف ان المكاتب نفسها
غير موجودة . فقد أصبح فمى هو المتردد الوحيد على المجلة بعد
غيابنا . . ولما يئس من حضور أحد . . باع المكاتب لتاجر فى
وكالة البلح واحتفى هو الآخر أيضا !

ولقد غاظنى جدا ما قام به فهمى وحده ، فلقد خرج من الصفقة
بنصيب الاسد ، وبينما اقتسمت أنا وعلى مبلغ الثلاثين جنيها
خرج هو بستين جنيها دفعة واحدة . . لذلك رحت اتردد على
منزله لعلنى أجده فأعكمه من قفاه وأتناول نصيبى من الغنيمة
ولكنى دخت دوخة الارملة وراه دون ان اعثر له على اثر . وذات
مرة صممت على ان انتظره . وظللت عند الباب انتظره حتى
انتصف الليل . وفجأة رأيته قادما من اول الزقاق فى الباطو
الجلسد اياه وجوانتى مطعم بالفرو ونفس الطاقية
الفرو فوق رأسه . منظر امير من امراء بطرسبرج
فى عصر غابر ولا يتفق أبدا مع منظر الزقاق الفقير
المظلم الذى تنضح من حيطانه رائحة عفنة . . وعندما رآنى
اصفر وجهه ، ورحب بى بكلمات غير صادقة وبود غير حقيقى
. . . وكنت مصرا تلك الليلة على أن أتناول حقى أو أرتكب جريمة !
فلم يكن معى نقود ولم يكن هناك عمل آخر . ولكن عندما
طلع الصباح علينا ونحن فى حجرته القذرة . . كنت قد نسيت
كل شىء ، ولم اعد أشعر نحوه الا بالاسف والشفقة . كانت

الحجرة عارية تماما من أى أثاث . وعلى الحائط صورة ضخمة لفهمى نفسه فى ملابس الانيقة وفى قمه بايب وحلقات الدخان تبدو فى الصورة وعلى رأسه قبعة وفى يوز مفتعل كأنه ممثل فى رواية . وكانت المرتبة القنرة ملقاة على الارض البلاط ولم يكن لديه غطاء الا البالطو . ولكنه كان يحتفظ فى ركن الحجرة بأعداد مجلة الاسبوع التى نشر فيها قصصه . وأثر من خطاب مرسل اليه من بعض رؤساء تحرير الصحف الكبرى ، وكانت كلها ردا على خطابات أرسلها اليهم بصفته قارئاً معجباً بهم على نحو ما !

وعندما دعانى على العشاء معه سحب علبة فاصوليا ناشفة من ركن فى الحجرة . ووضع العلبة نفسها على النار ثم سحب عدة أرغفة من العيش الناشف وكمية من المخلل كان يحتفظ بها . وعلى رشقات الشاي الساخن الذى أعده على عجل راح يحكى لى متاعبه فى الحياة ، متاعب لاحصر لها مع أسرته ومع صاحب البيت والبقال ومع فتاة على علاقة بها . وسحب من تحت المرتبة صورة لبنت بضه وممتلئة وشعرها أسود وعلى شفيتها ترتسم ابتسامة ساذجة . . وحسدته بينى وبين نفسى على البنت وعلى الصورة التى معه . . فلم أكن حتى هذه اللحظة على علاقة بأى فتاة . . وكل علاقاتى كانت عابرة وبالصدف . . ولم يكن لدى الوقت ولا المال لأهتم بشئ آخر غير البحث المستمر الدائب عن عمل . . أو مأوى أو فلرس ! وسألته عن سر متاعبه مع الفتاة فحكى لى بصراحة أنها طالبة فى الجامعة ، وأبوها موظف كبير فى الحكومة . . وقد تعرف عليها فى حفلة وقدم نفسه اليها بصفته خريج جامعات موسكو . . وصحفى وكاتب قصة ومن أسرة ثرية وقوية وتمتلك مئات الافدنة فى الصعيد . ولقد تعرف عليها فى بداية الامر ليعبث بها وليهبر منها ما يستطيع من الفلوس . ولكنه لا يستطيع التقدم اليها ، مع أنها ترفض الزواج من غيره وتريده ، وهو يخاف لأن كل المعلومات التى قدمها عن نفسه كاذبة ، ولأنه أيضا لا يجد ثمن اقطاره كل صباح . ولما سألته عن مصير المبلغ الذى هبزه من بيع المكاتب ، سحب كشفا من تحت المرتبة وراح يقرأ . . خمسة جنيهاً لالبقال . خمسة جنيهاً للجزار ، خمسة جنيهاً للترزى ، عشرة جنيهاً لأمه المريضة فى المستشفى ، جنيهان لشقيقه الاصغر الذى يدرس فى الاورمان ، خمسة جنيهاً للمطعم ، جنيه ثمن حذاء ، جنيه

مش عارف ايه ، جنيه لين . . ومن واقع الكشف المكتوب تبينت أنه لم يعد معه شيء !! وأقسم لي وصياح الديكة يتصاعد حولنا في الزقاق انه لم يحصل منذ عامين على أي دخل من أي نوع على الإطلاق . وأنه قادم الآن من العباسية الى عابدين سيرا على قدمين !

وشهور كثيرة مرت بعد ذلك رهيبة وسوداء أسود من جلد الغيل . . ولكن وقع خلالها حادث كان له أثر كبير في حياتي . . فقد اصطحبني طوغان معه ذات مغربية الى نقابة الصحفيين . . ولم يكن طوغان عضوا في النقابة ، وكان من أحلامه أن يصبح يوما ما عضوا فيها . وعندما دخلنا سألنا موظف الاستعلامات عن الاسم والمهنة والعضو الذي ينبغي زيارته وذكر طوغان اسم العضو الذي يعرفه . . زهدى الرسام . ودخلنا النقابة ولكن زهدى لم يكن هناك . واستقبلنا رجل آخر سمين وطيب وفنان كانت له شهرة كالطبل تلك الايام . ولم أصدق انا ان هذا الرجل البسيط الحجول الطيب هو نفسه الفنان الكبير الذي كانت شهرته تطبق الآفاق . كان الفنان هو رخا . . وتلك الليلة لا أنساها مدى الحياة . . فقد عاملنا رخا باحترام زائد . ولعب معنا طاولة وعزفنا على العشاء . . وكانت النقابة تزدهم بعشرات من الصحفيين اللامعين . وكانت بها حجرة للقمار سهرنا فيها نتفرج على اللاعبين حتى الفجر ، ثم خرجنا مع رخا الى ميدان باب الخلق ، واكلنا فطيرا على الرصيف ، ثم ركبنا معه تاكسي حتى ميدان الجيزة . واقسم ونحن نودعه ان نحضر الى النقابة كل ليلة وأكد لنا أنه سيكون في انتظارنا هذا المساء !

ولكني ترددت في الذهاب الى النقابة بعد ذلك . وأخذت أحكي للناس في كل مجلس عن أحداث تلك الليلة الخالدة وبمناسبة وبغير مناسبة كنت أحشر اسم رخا في الحديث . أحيانا كان الحديث يكون عن حرب فلسطين المتوقعة بعد انسحاب الانجليز . . فأتدخل في الحديث . . « مش ممكن هتحصل حرب ، دنا ليلة ما كنت سهران مع رخا ، تناقشت في هذا الموضوع ، وعرفت كذا وكيت وكذا » !! وليالي كثيرة كنت أذهب حتى باب النقابة ثم أحجم عن الدخول . فقد كانت ملابسي غير لائقة ، وكنت أشعر بخجل شديد من عيون الناس

وهي تعربد في عيوب الجاكته ومساويء القميص . ولعل تلك الايام هي السر في أننى سأظل بقية حياتى أشعر بضعف شديد أمام الملابس الجديدة وسيظل بى شغف شديد بالاناقة وحرص أشد على أن أبدو دائما فى ثوب قشيب . . وهكذا وبعد شعور طويلة . . بالبدلة المكرمشة التى بليت من طول الاستعمال ، والخذاء المضروب المخبوط ، زحنت ذات صباح نحو أول مجلة محترمة قدر لى ان أعمل بها . وكانت المجلة فى شارع فاروق ولها دار كبرى وماكينات طباعة خاصة بها . وكان صاحبها يشتغل بالترجمة واستطاع بعد كفاح مرير أن يهز السوق الصحفى هذا بمجلة ذات طابع جديد هى مجلة مسامرات الجيب . وقد ضربت المجلة عند صدورها مجلات دار الهلال ضربا شديدا ، ثم وقفت تناطح مجلات أخبار اليوم فى السوق . . وعندما تولى أبو الخير نجيب رئاسة تحريرها واتجه بها نحو المعارضة ومال بها نحو الوفد . . كانت المجلة قد وصلت الى أعلى رقم وصلت اليه مجلة من نوعها فى التوزيع . وكانت المجلة تعتمد فى توزيعها الى جانب الرأى ، على قصص من لون جديد يكتبها شباب ناشئ وضابط فى الجيش اسمه يوسف السباعى . وكانت رسوم الحسين فوزى تلهب خيال القراء بطابعها المميز وأسلوبها الفريد . ولكن عندما وصلت اليها كانت الدار التى تصدر عدة مجلات قد أخذت تندرج . وهجرها أكبر محرريها لماطلة صاحب الدار فى دفع المرتبات . ثم فقدت أغلب قرائها عندما هادنت المجلة الحكومة السعدية وفتحت أبوابها لكل من يريد أن يعمل فيها بلا أجر . وفى هذه المجلة تعرفت بكل أبناء جيلي من الصحفيين . . بعضهم يتولون المسئولية فى صحف هذه الايام . . وبعضهم تندرج ولا يزال يقف مكانه محلك سر ، وبعضهم ترك المهنة كلها وضاع فى الحياة ، ولكن سيظل أبرزهم على الاطلاق ثلاثة . عبد المنعم الحزائى الذى جاء ذات يوم من الصعيد ليعيش مع خاله فى القاهرة ، فلما فشل فى الدراسة راح يسرح وراء خاله فى حوارى الجزيرة يبيع الجاز ، ثم اشتغل فى الحكومة موظفا فى الدرجة التاسعة ثم تسلل الى الصحافة بموهبة فذة وخبرة هائلة وعلم قليل ، وبعد فترة قصيرة اتخذ لنفسه ركنا فى مقهى بشارع ابراهيم باشا واجتمعت حوله شلة من الادباء الشباب الصياع . واصبحت يوما ما عضوا فى هذه الشلة ولكن لفترة وجيزة . ذلك ان رجلا مثلى كان ينحدر

من شلة زكريا الجاوى سرعان ما اكتشف تفاهة وضيق أكثر
الجالسين فى الحلقة . وكان أحدهم واسمه محمد يثير ضحكى
كلما هم بالكلام . كان قصيرا واحول ويلف حول رقبته خرقة
مبللة فقد كان مصابا بالبرد على الدوام . . . وكان اذا فشى بقه
بدا كأنه حمار على وشك النحيق ، وكانت احكامه الادبية
لا تفرق كثيرا عن احكام بائع موز يتصدى للامور العلمية !

وكان ثمة تلميذ آخر من تلاميذ هذه المدرسة يدعى صمويل ،
وقد مل صمويل حياته ولم يطق الصبر على الفلس والجوع ،
فتخلص من هذه الحياة ذات صباح ، بأن شنق نفسه بالكرافته
الوحيدة التى كانت هى كل ممتلكاته ! ولقد أسفت على النهاية
الحزينة التى انتهت اليها ، فقد كان أكثرهم علما وأكثرهم خبرة
بالادب والفن والحياة ! والحق أقول أن عبد المنعم الحزائى
نفسه كان على شئ . . . ولو أتيج له أن يقرأ ما ينبغى لمثله أن
يقرأه . . . لكان له شأن آخر . فقد كان يتمتع بمواهب خارقة ،
وكانت تجربته فى الحياة أطول بكثير من سنوات حياته وأعرض
بكثر من حياة الآخرين !

وكان الرجل الثانى الذى عرفته فى مجلة مسامرات الجيب ،
هو سيد عبد الله . وكان فى الاصل كاتب محامى استطاع أن
يصل الى منصب رئيس التحرير . وكان صاحب اسلوب جميل
ولكنه كان شديد الهياقة ، واهتماماته كلها كانت تنحصر فى
الليل والسهر والانصهار داخل الحياة اللدنية . ولم يكن يهتم
بالسياسة على أى نحو ، وعلاقته بالادب تنحصر فيما تنشره
المجلات من قصص هايفة ، وما يذيعه الراديو من أحاديث للأدباء!
وكان الى جانب عمله كرئيس للتحرير مشغولا دائما بالحصول
على اعلانات من أصدقائه الفنانين للمجلة . وكان شديد الزهو
لعلاقات الصداقة التى تربطه بكبار الممثلين . وكان يعتقد أن
الحكمة والفن والفلسفة تكمن كلها فى رأس ممثلة حمقاء كانت
تبادل الحب . ولذلك كانت صورها تحتل صفحات المجلة ،
وكلماتها الساذجة ينشرها فى براوين كمادة لتثقيف القراء .
وعندما أغلقت المجلة التى كان يتولى رئاسة تحريرها أبوابها ،
لم يستطع الصمود طويلا ، ولم يلبث أن قدحرج حتى كنسه
النسيان !

أما الرجل الثالث فكان عالما بحق ، ومثقفا على نحو رفيع ،

وطيبا يصح - رغم بؤسه وضياعه - على جراح الآخرين .
وكان قد هجر وظيفته الدائمة والمرتب المستقر الى الصحافة
ولكنه فوجيء بعد شهرين بأن المهنة التي اختارها ، هي مهنة
ضياعة وضياعة وعدم استقرار .. ولكن نفسه الفنانة وهي
نفس أمارة بالسوء ، كانت تلح عليه أن يبقى حيث هو ، وأن
يمضى في طريقه وسط الاشواك والصخور . ومن هذا الرجل
تعلمت الكثير في صباي . وأغلب الكتب التي قرأتها تلك الايام
سرقتها من عنده !! وكان هو أول من زرع الثقة في نفسي ،
وأول من جعلني أتشبث بأسناني بمهنة الصحافة رغم طول
ووعورة الطريق ! ولقد قدر لهذا الرجل أن يشق طريقه بعد
ذلك بنجاح ، وأن يتغلب على كل العقبات والصعاب ، وأن يلمع
ليصبح أحد نجوم الصحافة وكتابها الكبار . وكان الدور الذي
لعبه في حياتي هاما وجوهريا وخطيرا ، وكانت علاقتي به بداية
مرحلة جديدة .. وما أكثر المراحل التي خضت فيها خلال
رحلتي القصيرة العريضة في الحياة الرجل الطيب اسمه
محمد عودة الكاتب الشهير الذي يتألق دائما في الأزمان .



كان الرجل الطيب حين التفيت به أول مرة خارجا لتوه من محنة شديدة حطمت قلبه وأفقدته الثقة في كل شيء وبدأ لي أنه يعاني قلقا شديدا وأنه يشعر بمرارة لا أحد لها وحين وقع نظره على أول مرة لم يتجاهلني ولم يشح بأنفه شأن المربين الكبار حين يلتقون بأمثالي من المتوردين على أبواب الصحف ولكنه ابتسم لي ود والقي نظرة على المقال الذي كنت أكتبه وأطلق ضحكة صافية من قلبه وقهقهة في براءة وقال وهو يهزني بعنف « أنت لك أسلوب ساخر لو استطعت أن تستخدمه بمهارة سيصبح لك شأن » ولم أكن قد سمعت تقريرا من أحد حتى هذه اللحظة .

والكلمات الطيبة التي كنت قد سمعتها من قبل ، كانت
كلمات مجاملة أكثر منها كلمات استحسان . . . ولذلك نظرت
اليه في دهشة وبتفرس لاكتشف اذا كان صادقا في القول أم
مجرد هازل يسخر مني في قالب مدح . ولكنه أعاد نفس كلماته
واضاف اليها كلمات أخرى مماثلة . وسحبني من يدي الى قهوة
ايزافتش . وأنبهرت جدا بالمقهى وبالزبائن الجالسين في خيلاء ،
وبالجرسون الجريجي الذي كان يبدو أنيقا ووسيعا مثل نجوم
السينما المشهورين . واكتشفت أن الجرسون صديق للرجل
الطيب . فقد حضر وحيانا في ود ثم وقف يناقش الرجل الطيب
في السياسة . . . وجاءت شلة من الافندية وانضمت اليها .
واكتشفت انهم جميعا طوال القامة . وأن رؤوسهم جميعا
صلعاء . وأنهم يهتمون على نحو خاص بشواربهم ، وهي شوارب
ليست عادية . ولكنها كثة وسوداء ، ولها أطراف تتدلى الى
أسفل ، ولما سألت الرجل الطيب عن سر هذه الظاهرة . قال
ببساطة كأنه يفسر ظاهرة طبيعية : « دول بيقلدوا ستالين ! »

ولقد دخل الجميع في نقاش صاخب حاد حول الموقف
السياسي . . . وتطور النقاش الى سباب ، ثم تبادلوا الاتهامات
الخطيرة ! وخيل الى أن المسألة ستتطور الى شجار . وأنهم لن
يلبثوا أن ينهضوا جميعا ليتراشقوا بالكراسي والللكلمات ، وأن
دماء كثيرة ستسيل حتما وأن بعضهم سينقل لا محالة الى
المستشفيات على عربة اسعاف !

ولكن شيئا من هذا كله لم يحدث . . . فسرعان ما هدأت
الضجة والتف الجميع حول أطباق الفول يلتهمونها بشهية ، ثم
طلب الجميع الشاي وراحوا ينظرون في هدوء نحو الشارع
متربصين بعيونهم لكل أنثى تعبر الطريق . . . وكانت رؤوسهم
تستدير في حركة رتيبة هادئة وتلتوي أعناقهم من أقصى اليسار
الى أقصى اليمين أو بالعكس ثم تعود الرؤوس الى وضعها الطبيعي
عندما تبتعد الأنثى عن الانظار . . .

وكان أحدهم يعلق بكلمة دائما عقب مرور كل أنثى . . . وكأنه
واجب يؤديه ، أو كأنه ناقد نسائي مطلوب سماع رأيه في كل
أنثى تعبر الطريق . . . وكانت تعليقاته قصيرة وحاسمة :
« دي رجليها وحشه » أو « دي كتافها نازلة » أو « صدرها
كبير » . وعندما تكون الأنثى لا عيب فيها يكتفي بهز رأسه

استحسنانا ويعلق بكلمة واحدة « ظبط » !! ولم أشارك معهم في المناقشة ولم أشارك معهم أيضا في البصيرة ! وعندما نهضوا ليغادروا المقهى نهضنا معهم . وجاء الجرسون على عجل يطلب الحساب ، وتقدمت أنا فغادرت المقهى الى الشارع . . . ولكن جذبتني الى داخل المقهى صوت الجرسون يشتم ويسب ويلعن سنسفيل جدودهم جميعا . . . ووقفت دقائق أستمتع الى حوار ساخن بين الجرسون والافندية جميعا ، ثم تركهم جميعا يمضون وهو يلعن ويسب اجداد الجميع . واكتشفت أن الجرسون الجريجي له دين ثقیل في أعناقهم ، وانهم يماطلون في الدفع منذ شهور !! ومنذ تلك اللحظة تعلمت ألا تخدعني المظاهر ، وألا أنبهر بالقشور الزائفة . فقد كنت أمر يوميا على مقهى ايزافيتش وألقى نظرة على المقهى والزبائن المسترخين على مقاعدها ! وكنت اتوهم أن الجالسین فی المقهى هم البشوات والبهوات وأثرياء القوم . وكان منظر الزبائن ومنظر المقهى ومنظر الجرسونات الجريج يوحى بذلك . ولكن هذا الموقف كشف الغطاء عن الحقيقة المرة ، وعري كل شيء أمامي .

ولكني رغم ذلك أعجبت جدا بشجاعة هؤلاء الأفندية الذين دخلوا مع الجرسون الجريجي في حوار صريح مكشوف وأمام جميع الزبائن دون أي شعور بالحجل . ولعل سبب إعجابي بهم هو جنبني الشديد في مواجهة هذه المواقف ، وهو جنبني دفعني الى عدم الاستدانة من أحد ، وعدم الماطلة في الدفع ، وأن أحجم عن ارتياد مثل هذه الأماكن الا اذا كان في جيبی ما أدفعه ثمننا لطعامي وشرابي ! بل لقد دفعني هذا الجبن أيضا الى التخلف عن شلة الاصدقاء أيام الطفولة اذا دخلوا عند حلواني أو فكهاني ، وأتظاهر بأنني مشغول بشيء في الخارج حتى لا أخرج نفسي ولا أتسبب في إحراج أحد . وكان على عكس تماما طوغان . فقد كان يقتحم المحل على رأس الشلة ، ويدور بين الاصناف ينتقى ويختار ! فقد كان شديد الضعف أمام اغراء الحلوى والفول السوداني والبلح الأمهات . وكان يأكل كفايته ، ثم يعلن بعد ذلك للشلة أنه يعاني الافلاس . ولكن حتى طوغان كان يفعل ذلك أمام شلة من الاصدقاء ، وكان يجد دائما من بينهم من يدفع حسابه ! ولكن هؤلاء الافندية لم يدفعوا الحساب ولم يدفع لهم أحد ، بل وناقشوا

الجرسون الجريجى وأمام جميع الزبائن وفى شموخ وكبرياء ،
وكانهم محامون يترافعون فى أعظم القضايا • ولقد صادقتهم
بعد ذلك وأصبحت واحدا من شلة المقهى لسنوات طويلة ،
واكتشفت أنهم جميعا كانوا أعضاء فى التنظيمات اليسارية
عند بدء تكوين هذه التنظيمات فى مصر ، ثم هجروا التنظيمات
السياسية واكتفوا بالجلوس على المقهى والاشتغال بالسياسة
كهواة • • وكانوا شديدي الضيق بكل شئ ، كافرين بكل
انسان ، وجميع الناس خونة وعملاء للاستعمار ماعدا أفراد
الشلة • وكانوا يشعرون بالرضا عن أنفسهم لأنهم قد وصاوا
الى الحقيقة !! فكل الزعماء متعاونون مع القصر • وكل الاحزاب
متعاونة مع الاستعمار ، وكل الصحف مأجورة ، وكل الناس -
حتى الجرسون الجريجى - متعاونون مع البوليس ، وكل الافلام
تافهه ، وكل الكتب حقيرة ، وكل الاغاني هائفة ، وكل الموظفين
مرتشون ، وكل النساء مومسات ، وكل الرجال يستحقون
القتل !! وكانوا لا يرون فى الحياة الا لونين ، الاسود الفاحم
والابيض الناصع • فأنت اما خائن واما شهيد • وانت اما
ثائر واما بوليس • ولقد ظلت الشلة قعيدة المقهى لسنوات
طويلة ، حتى جاء يوم فاختلفت كلها • بعضهم دخل السجن
فى قضية اختلاس ، والبعض الآخر هجر المقهى الى البارات
ليفرق نفسه فى الخمر !! ولكن صديقى الطيب لم يكن واحدا
منهم • وكان على خلاف معهم • وعندما أبديت اعجابى بهم
كمثقفين قال فى امتعاض شديد • • ما يفر كش الكلام المقعر
الى يقولوه ، المثقف الحقيقى هو الى يعيش حياة الناس ويعبر
عنها بطريقة بسيطة • • وأعجبني تعريفه للمثقف ولكن لم
يعجبني تعريفه للشلة ، فقد وصف أفرادها بأنهم « حشرات
مريضة » فقد وقع فى نفس الخطأ الذى وقعت فيه الشلة ،
كما أنهم لم يكونوا حشرات مريضة ، ولكنهم كانوا نماذج
لألوف من أبناء الجيل فقدوا الثقة فى كل شئ حتى فى الخلاص
من المصير المحتوم ، ثم أسلمهم اليأس الى الانطواء داخل
أنفسهم والفرجة على ما يجرى دون أن يكلفوا أنفسهم عناء
الاشتراك فى التغيير ، خصوصا وان التغيير كان يكلف كثيرا
• • فقد كان قانون صدقى باشا بتحريم المبادئ الهدامة (!)
قد صدر حديثا ، واصبح السجن مصير كل شاب يحاول
التصدي لفساد القصر أو انحرافات الاحزاب • ولما كانوا غير

مستعدين لدفع الثمن ، فقد انسحبوا نهائيا الى المقهى ، ولكنهم لم يرتضوا أن يلقوا السلاح نهائيا فآتفوا بالكلام على المقهى كمحاولة للاشتراك فى التغيير دون أن ينالهم من وراء ذلك أى عقاب ! لذلك كان كلامهم حماسيا للغاية ومتطرفا أكثر من اللازم ، ولعل ذلك يرجع الى احساسهم بأن الكلام هو كل بضاعتهم ولذلك يجب أن يكون من أحسن وأجود صنف ! ولكن برغم كل شئ فقد كانت هذه الشلة تمارس حريتها على أوسع نطاق ، ولم يكن يقيدهم أى قيد ، وكانوا مثقفين على نحو ما ، ولكنهم لم يشعروا أبدا بلذة اقتحام حياة الناس والالتحام مع الجماهير العريضة ، وبالرغم من اعتقادهم الراسخ بأنهم وحدهم ممثلو الامة وترجمان الشعب ولسان حال الملايين .. ولقد لعبت شلة ايزافيتش دورا فى الحياة السياسية والثقافية فى مصر ، رغم أنه كان دورا على الهامش . وذاعت أخبار الشلة واشتهر افرادها ، ولكن أبرزهم ، وكان مهيب المنظر ارسنقراطى الحركات مفلسا على الدوام ، يحكى دائما وفى كل مناسبة عن دوره الطليعى فى قيادة الشعب ، وعن مقاومة الباسلة لرجال البوليس السياسى . وكان أشد الجميع تطرفا واشدهم صلابة كما كان أكثرهم حركة !! فقد كان من عادته دائما أن يغادر المقهى أحيانا الى مكاتب الصحف البائرة يكتب فيها مقالات ضد الاستعمار وضد الحكومة . وكان أحيانا يتقاضى مبالغ زهيدة لقاء هذا النشر لا تتجاوز الخمسة جنيهات وأحيانا تصل الى عدة شلنات . وكان متزوجا وصاحب مشاكل عائلية لا تنتهى ، وكان يرتدى فى الصيف بنطلون شورت وصندل أبيض وقميص حرير هفاف ، ويبدو فى زيه الصيفى كأنه سائح انجليزى عجوز جاء الى مصر ليقف فترة بين المتاحف والآثار ! ولقد قدر لى بعد ذلك أن أعيش معه فترة من الوقت داخل زنزانة واحدة فى السجن ، وقضيت الليالى الطويلة ساهرا معه حتى الفجر ، فقد كان أشد الجميع انهيارا وأكثرهم بكاء وكان يجلس طول الليل ساهرا لا يغمض له جفن ! وكان على استعداد لأن يدفع نصف حياته ثمنا لكأس واحد من الخمر ! واعتقدت أنه انهار هذه المرة فقط بعد أن ناضل كثيرا داخل الزنازين الباردة وخلف الأسوار الصماء . ولكن الذين عاصروهم فى الماضى ، أكدوا جميعا أن هذا هو طابعه ، وأنه منهار بالفطرة ، وأنه بكى فى نفس اللحظة التى صافحت فيها أقدامه أرضية

السجن أول مرة ، وأنه شديد الانهيار عندما يكون فى الزنزانة ، شديد المقاومة والصلاية عندما يكون على مقهى ايزافيتش !! ولقد ودعت صديق سجنى ذات مساء عندما فتح السجنان باب الزنزانة ودعاه الى الخروج لأمر عاجل ، وخرج ولم يعد ، وعرفنا بعد ذلك أنه أفرج عنه فى نفس الليلة ، وأنه عاد لاستئناف حياته ورواية حكاياته على مقهى ايزافيتش ! ولقد صحبت الرجل الطيب بعد ذلك سنوات طويلة ، وكان دائما يبدى إعجابه بما أكتب ، وكان أول من نصحنى بكتابة رواية طويلة ، ولقد استمعت الى النصيحة وكتبت رواية طويلة اسمها « حارة السمك » لم يقدر لها أن تتم ولم يقدر لها أن تنشر ، وضاعت ضمن ما ضاع لى من أوراق على مر السنين . وقال لى ذات مساء ونحن جلوس على مقهى ايزافيتش ، أنت أول كاتب يخرج من الحارة المصرية وعليك أن تعبر عن هذه الحارة وأن تكون نائبا فى برلمان الأبدية ! وفى مساء آخر قال لى وعيناه تبرقان ووجهه كله يرتعش ، لاتقع فى مصيدة العبارات البراقة ، اكتب كما تتكلم وستصبح شيئا فريدا بين أدباء الجيل ، واقرأ كثيرا ولكن اجتهد ان تنسى كل ما تقرأ ، وحاول أن تتقن لغة أجنبية فهى الجسر الذى تعبر عليه الى رحاب التراث العالمى ، وأول سفارة دخلتها فى حياتى كانت فى صحبتته ، وكانت سفارة الهند . وقد تناولت عشاء فاخرا وشربنا زجاجة ويسكى كاملة ودخنت علبة سجائر أمريكية وقضينا الليل نتفرج على الرقص والغناء . ظلمت شهرا بعدها أحلم بذكرى تلك الليلة المجيدة ! وأعطتنى تلك الليلة شعورا بالثقة لاحد له ، وقضيت ساعات أرطن باللغة الانجليزية مع موظفى السفارة ، وقد اندهش صديقى الطيب لاننى أجيد اللغة الانجليزية نطقا ولا أجيدها كتابة ! وقال لى وهو يضحك من الأعماق . . . انك مثل تراجمة نزلة السمان يجيدون الحديث بكل اللغات ولكنهم يجهلون شكل الحروف وطريقة الكتابة ، ولم يكن صديقى الطيب يعرف حتى هذه اللحظة اننى كنت أعمل ترجمانا لفترة طويلة من الزمان ! وأول بيت محترم سهرت فيه كان مع صديقى الطيب أيضا ، وفى بيت فى الدقى استرعتنى نظافته الشديدة وفخامة العفش وكثرة التحف المبعثرة فى أنحائه . وجلست مؤدبا كتلميذ خائب يجلس فى حضرة أستاذه ، وتلعثمت فلم أستطع أن أتكلم . وكانت صاحبة الشقة ألمانية فى الخامسة والاربعين من عمرها ، ولكنها ظلت رغم

هذه السنين تحتفظ بشبابها ! وكانت لها صديقة مثلها في ربيعها الخمسين ، وكانت أيضا صبية ومليحة وعاشقة للفن ، وسهرنا حتى الفجر نستمع الى موسيقى تشايكوفسكى ، وكلنا صامتون كأننا في جنازة ، وكانت السيدة الالمانية ذات الخمسين ربيعا تتولى خدمتى طوال السهرة وتقدم لى الكأس بعد الآخر ، وأحيانا كانت تسألنى عن رأيى فى الموسيقى فأهز رأسى وأفشخ بقى عن ابتسامة بلهاء !! وقبل نهاية السهرة بدقائق مسحت على شعرى بيدها ، وقالت أنت تشبه الأسبان .. هل أنت مصرى حقا ، وقلت فى سرى .. أنا مصرى ابن مصرى ابن مصرى وادم بتاع اسرتنا كان مصرى ومن حارة مظلمة وقذرة فى بقعة من الارض المصرية يعلمها الله . وعندما نهضنا لنغادر الشقة انحنيت على شفتى وقبلتنى ! وشعرت بخجل لامزيد عليه ووددت لو تبتلعنى الارض فلا أعود أظهر لها . ونكست رأسى فى خزى كأننى ارتكبت جريمة . ونهرنى صديقى الطيب ونحن نسير فى الشارع بعد منتصف الليل ، لماذا كنت مكبوسا فى السهرة الى هذا الحد ؟ وادعيت لصديقى أن الجو لم يعجبنى ، وكنت كاذبا الى حد بعيد ، فقد أعجبنى الجو والجلسة والشقة والست العجوزة !! ولكن كنت أشعر باضطراب شديد ، وكنت فاقدا للثقة فلم يكن يخطر ببالى أن أكون ندا لست خوجاية تعيش فى مثل هذا القصر العظيم . ولقد صارحته بحقيقة الأمر بعد ذلك فطمأننى الى اننى بشبابى وبهيئتى المصرية وبذكائى وخفة دمى يمكن أن أكون محبوبا لدى قطاع عريض من النساء . ولم أصدق صاحبى الطيب وقضيت ليلة بأكملها أمام المرأة أفرس فى وجهى وهيئتى ، ولكنى لم أقتنع أبدا برأى صديقى الطيب . ولكن يبدو أن المسائل كلها عادة . فبعد زيارة ثانية وثالثة ورابعة أصبحت أنا عمدة القعدة . بل تناولت على الحوجاية العجوز ونهرتها عن الصراخ بهذا الشكل المزعج . وحزنت الست الحوجاية جدا وقضت السهرة كلها تسترضينى ! ولقد ظلت مجلدة مسامرات الجيب تنحدر حتى وصلت الى الحضيض ، وبينما كان صديقى الطيب يتقاضى أربعين جنيها شهريا كان لا يحصل الا على خمسة جنيها وأحيانا على عشرة . وكان مرتبى ثمانية جنيها ، ولكنى كنت أحصل على جنيهن . وأحيانا لا أحصل على شيء .. وكان فؤاد أفندى هو صراف .

المجلة ، وكان رجلا بارد الاعصاب ميت النظرات ، وهي ميزة كل رجال الحسابات وأمناء المخازن وصرافين البنوك والخزائن . ولعلها صفات يكتسبونها خلال عملهم الرتيب القاتل الممل الذي يصلحت على رقابهم سيف المسئولية الحاد القاطع ! وكنا نعرف أحوال الخزانة من نظرات فؤاد أفندى ، ولكن نظراته غي الشهور الاخيرة كانت تنم عن الافلاس والبوار والحياة الثقيلة !

وكانت ديونى قد أخذت تتضاعف عند البقال الذى يحتل ركنا تحت دار المجلة . ويئست أخيرا من العثور على الترشين صاغ اللازمة للوصول الى المجلة . فقد كان على أن اركب بقرش صاغ الى ميدان قصر النيل ثم أحتفظ بقرش صاغ آخر لأعود به مرة أخرى الى الجيزة !! وكان هذا المبلغ عبئا ثقيلا لم استطع أن أحتمله ! فقررت عدم الذهاب كل يوم الى دار المجلة والاكتفاء



بثلاثة أيام في الاسبوع . ونفذت هذا القرار اسبوعا واحدا ثم عدلت عن قرارى وعدت الى دار المجلة . فقد اكتشفت أن الذهاب الى المجلة أكثر ربحا ، لان وجودى هناك يتيح لى التدخين بالمجان . . وأيضاً شرب الشاي والقهوة على الحساب . وتحولت مجلة مسامرات الجيب من مجلة الى قهوة . وأصبحت مكانا للقاء والدرشة أكثر منها مكانا للعمل . وكان صاحب المجلة قد راح يسرح فى كل مكان عارضا الدار للبيع وبأى ثمن . وكانت حرب فلسطين قد نشبت ، وحكومة الاقلية راحت تنشب أظفارها بقسوة فى عنق الشعب ، وأصبحت الحياة غير محتملة ، وفجأة جاءنا محرر فى المجلة بخبر هز أعصابنا هذا ، وفتح أمامنا بابا من الأمل فى مستقبل أكثر استقرارا وسعادة للجميع . .





كان الخبر الذي هز أعصابنا هذا ، والذي حملته الينا محرر
فى المجلة أن دار روز اليوسف ودار الهلال فى حاجة الى
محررين ، وأن اثنين من محررى مسامرات الجيب قد التحقا
فعلا بالعمل فى روز اليوسف ، وأن البعض الآخر قد ذهب
فعلا الى دار الهلال . ولقد استقبلت الخبر ببرود ظاهرى رغم
أنه فى الحقيقة هزنى من الاعماق . ها هى مرحلة جديدة فى
الصحافة توشك أن تبدأ فى حياتى ، وهى لا شك ستكون
فاصلة ، فاما الى الصحافة واما الى الصياغة !

وقضيت ثلاثة أيام متتالية أقلب الامر على جميع الوجوه ،
وأقارن بين روز اليوسف ودار الهلال . ولم يكن لى حتى هذه
اللحظة أى علاقة بروز اليوسف الا كقارىء . وكان بينى وبين
بعض محرريها علاقات صداقة غير وطيدة . وكنت أتردد عليها
أحيانا مع طوغان الذى كان يعمل بها رساما لفترة من الزمان .

ولقد راعنى منظرها أول مرة رأيتهـا من الداخل ، منظر المكاتب المحطمة والجدران المشقوقة ، وعشرات من المحررين اللامعين يتخاطفون ساندويتش واحد ، أو يبحثون معا عن سيجارة . ولكن هذا المظهر لم يكن يخفى عن العين الفاحصة حقيقة الموضوع . فلقد كانت هذه المجموعة التى تعمل فى روز اليوسف أغلبهم ثوار وأصحاب قضية . . وحتى المحررين المحترفين فيها كانوا ينصهرون فى الجو العام للدار ، فيصبح من الصعب على الزائر أن يفرق بين الصحفى والثورى !

وكانت العلاقة بين رئيس التحرير والمحررين نموذجية ، كان واحدا منهم ، وكثيرا ما كان يترك مكتبه ويجلس فى الصالة . يتفرج على لوحات الفنانين . وكانت تربطنى بروز اليوسف رابطة أخرى هى أن الصداقة توطدت بينى وبين احد محرريها المسئولين وهو فى أخريات أيام حياته . كان اسمه عز الدين . وكان شابا وسيما وفنانا ووحيداً ، وقد تعرفت عليه فى مستشفى القصر العينى وهو يعانى من مرض السل الرهيب . وقد طال به المرض قبل أن يفتك به ، أو فى الحقيقة قبل أن يفتك هو بنفسه . وذات مرة حذر الأطباء أمامى من السهر ومن التدخين ومن الانفعال ومن الكلام .

وابتسم عز الدين فى هدوء وقال وهو يناولنى سيجارة ويشعل لنفسه سيجارة أخرى . .

انهم يحذروننى من الحياة . وظللت اتردد على عز الدين فى المستشفى حتى مات ، وقد ترك موته فى نفسى اثرا رهيبا . فلقد كنت قبل أن أراه اتوهم انى مريض بالسل ، وبعد أن عرفته تأكدت من اننى مريض ، وظللت بعد ذلك أعواما طويلة أعيش الحياة على اننى مسلول ، ولم يدفعنى هذا الشعور الى الحياة بحذر ، بل دفعنى الى الحياة بجنون ! فمادام المصير هو الموت ، فأى فائدة يجنيها الانسان من التردد والخوف . والوقوف على مشارف الحياة يتفرج عليها .

ولكنى رغم ذلك اخترت دار الهلال وفضلتها على روز اليوسف والسبب أن روز اليوسف كانت تعامل محرريها بالقطعة ، ودار الهلال كانت تنهج نفس السبيل ، ولكن روز اليوسف كانت تدفع على ما ينشر ، وكانت دار الهلال تدفع على ما يكتب ، وبينما كانت دار الهلال تدفع ثلاثة جنيهات على

الموضوع ، كانت روز اليوسف تدفع خمسين قرشا ، وأحيانا كانت تدفع عشرة قروش على الخبر ، أما الخبر الذي ينشر بحروف بارزة فكانت تدفع مقابله ريالاً كاملاً !

ورغم أنني قارنت واخترت ، إلا أنني لم أذهب إلى دار الهلال إلا بعد ذلك بستة شهور ، ذلك أن الطريق إلى هناك لم يكن سهلاً . وخلال الشهور الستة الأخيرة في مسامرات الجيب عانيت الكثير . كان الرجل الطيب دائم التجوال بين البانسيونات كأنه أحد الأعراب الرحل . ولم يكن الانتقال بدافع السياحة أو التغيير ، ولكن السبب الحقيقي كان ضيق ذات اليد ، وعدم استطاعة صاحبات البانسيونات الصبر ، حتى تنفرج الأمور وتتعدل الأحوال !

و ذات مساء ونحن جلوس نتأهب لترتيب الكتب في بنسيون جديد كان الرجل الطيب قد انتقل إليه فجأة ، عرض على أن أتزوج ! ولم يكن يخطر ببالي شيء من هذا ولم أكن أستطيع حتى الارتباط الاجتماعي بشقة استأجرها أو قرزى يقبل التفصيل لي على الحساب . . كنت حتى تلك اللحظة كأبناء الفجر ، أهلب رزقي بالعافية ، واتناول الطعام ليس لأنني جائع ولكن لأنني وجدته ، وأنام عندما يغمي على من شدة الإرهاق ، وأذهب إلى أي مكان مادامت هناك دعوة . وكانت حياتي كلها مضطربة ، ولكن علاقاتي الجنسية كانت أكثر اضطراباً .

وكانت آخر مرة اتصلت فيها بامرأة منذ أسبوع من هذا العرض الذي جاء فجأة وبلا مناسبة من الرجل الطيب .

وكانت مغامرة شقية ليس لها نظير ، وحماسة لا يرتكب مثلها إلا المجانين أو المجرمين العتاه .

فقد تعرفنا إلى امرأة ليس لها شكل تجلس وحيدة في كازينو شهريار ، وكنا عشرة شبان ورجلا عاقلاً يعمل مدرسين في إحدى الجامعات . وكان شديد الخجل شديد الطيبة ، منعتة ظروف أسرته المحافظة وعمله المحترم وعمره الذي شارف الأربعين من أن تكون له أية مغامرات من أي نوع .

ولقد وجد في صحبتنا لونا من الحياة لم يألفه وإن كان يتمناه . وعوضته شقاوتنا عن استقامته التي كانت مضرب

الامثال • وكان شديد المحافظة على المظهر فى الخارج ، فاذا ضمه معنا منزل واحد بدا على طبيعته المرحية ، وسلك سلوكا يختلف تماما عن السلوك الذى كان يبديه أمام الناس •

وفى تلك الليلة نصحنا بألا نتقرب من المرأة التى تجلس وحيدة وأكد أنها تنتظر رجلا ، وهددنا بأنه سيفادر الكازينو اذا نحن أقدمنا على عمل طائش من هذا النوع • ولكننا لم نستمع لنصيحته وقمت أنا وغزالى وبعد لحظة كنا نجلس مع السيدة التى تجلس وحيدة ، ولم تلبث ضحكائنا نحن الثلاثة ان ارتفعت تعلن للجمع المتربص بنا أننا فى غاية الورد والانسجام !

وسرعان ما غير الرجل الطيب رأيه فلم يغادر الكازينو ، ولم يحتج علينا ، بل أرسل إلينا من يخبرنا أننا نستطيع أن نطلب ما نشاء من الطلبات وأنه سيدفع الحساب !

وبعد قليل نهضنا مع الست خارج الكازينو فى طريقنا الى المنزل • ولم يكن لدينا منزل كما لم يكن هناك منزل لدى أحد من الشلة التى تتبعنا • ورحنا نفكر أنا وغزالى فى مكان

نقصد اليه • ولم نهتد فى النهاية الا الى بيت طالب أزهرى اسمه الصيرفى كان يسكن وحده فى الجيزة فى شقة فى بيت له مظهر البيوت الانيقة ، رغم أنه فى الداخل لم يكن يحتوى الا على سرير شديد القذارة ومشنة عيش كانت دائما فارغة ، وثلاثة كراسى كلها محطمة كأنها متخلفة من خناقة بين بعض الشتات العتاة !

وكان الصيرفى نفسه شديد الغرابة ، مظهره يدعو الى الاضحاك ، كان قصيرا ومشوها ويتكلم بالفصحى وبصوت عال كأنه يخطب على الدوام • وكان سعديا متحمسا وهى

ظاهرة شاذة تأملتها كثيرا ، ولكن لم أستطع تفسيرها على الاطلاق ، فلقد كان هناك وزراء سعديون ، ونواب سعديون ، وشيوخ سعديون ، ولكن أبدا لم يكن هناك شبان سعديون •

كان الشباب موزعا تلك الايام بين الوفد ومصر الفتاة والشيوعيين والاخوان • وكان الصيرفى هو الشاب السعدى الوحيد الذى قابلته فى حياتى ، وكنت دائم العراك معه ،

شديد السخرية به ، هازئا من معتقده ، متهما اياه بالرشوة
اذ لا يعقل أن يكون الانسان سعديا بضميره ، خصوصا اذا
كان شابا ، ولا بد أن يكون لهذا الموقف الغريب ثمن مدفوع !

وأعتقد الآن أن موقف الصيرفي كان مدفوع الاجر ، وأنه
كان أجرا زهيدا لأنه كان دائم الشكوى من الافلاس ، وكان
يبدو دائما شديد الارهاق والشحوب .

ولقد استقبلنا الصيرفي بفرح شديد ، وعندما وقع بصره
على المرأة التي معنا لمعت عيناه ببريق غريب . واستقبلته
المرأة بفتور وباحتقار شديد ، فقد كان يرتدى جلبابا مخططا
وحافى القدمين ، وكانت فانلته تبرز من فتحة جلبابه وكان
فيها من الثقوب أكثر مما فيها من القماش .
واعتقدت المرأة أنه خادم فى المنزل وعاملته طول السهرة
على هذا الاساس .

ولم تلبث شلة الاصدقاء أن اقتحمت علينا المنزل . وكعادة
الفقراء أردنا أن نزيف الواقع المر وأن نخدع أنفسنا ، وأن
نضفى على الجو مسحة من الشاعرية والخيال ، واكتبنا جميعا
لنحصل على زجاجة رخيصة من الكونياك الردى ، ومن جهاز
الراديو العتيق الذى تعشش فيه الصراصير رحنا نستمع الى
موسيقى حاملة ، وصعد غزالي على أكتاف أحدنا ولف حول لمبة
النور قطعة من الورق الاحمر ، ورحنا نسهر فرحين فى هذا
الجو الهزيل . جو كلما تذكرته الآن اقشعر بدنى من هول
ما كنا فيه . جو تجتمع فيه امرأة صايعة قبيحة وعشرة شبان
ورجل رزين وزجاجة خمر رخيصة وراديو كان لا يواصل
الغناء الا بخبطة يد قوية تهز أجهزته العتيقة التى تود أن
ترتاح من هذا الشقاء اللعين !

المهم أن السهرة اكتملت ، وعندما جاء الصباح كان علينا
أنا وغزالي أن نواجه الموقف الصعب ، ولم يكن معنا سوى ستين
قرشا هى كل ما مع الشلة من نقود . خمسون قرشا دفعها
الرجل الرزين وعشرة قروش هى كل ثروة الآخرين !

كانت المرأة تقف أمام المرأة تسوى شعرها وتغنى بصوت
مسلوخ أغنية شائعة ، وكان الصيرفي يقف فى الصلاة محموما

وعيناه مصوبتان نحونا كأنهما فوهتا بندقية مستعدة للاطلاق . . والسبب أن المرأة الصايعة رفضت بشدة أن يختلي بها الصيرفي وكان هذا تصرفا طبيعيا من جانب المرأة . فهكذا الفقراء دائما يريدون في أى مناسبة أن يؤكدوا لانفسهم أن هناك من هم أفقر منهم ، وهكذا الحقراء أيضا يريدون أن يثبتوا ولو لانفسهم أن هناك من هم أحقر منهم .

وكانت تلك الليلة هي فرصة الست الصايعة ، ولقد أصرت على موقفها وظلت متمسكة برأيها لا تتزحزح ، ورغم التوسلات والشفاعات فإنها رفضت بشدة ، وبدأ عليها في لحظة أنها مسألة مبدئية ، وأنها على استعداد لتواجه الموت في سبيل هذا المبدأ العظيم !

ولما ضاعت كل المحاولات عبثا ، قررنا تجاهل الامر تماما ، واتفقنا على ضرب الصيرفي لو اعترض طريقنا أو حاول أن يقوم بحركة انتقام من أى نوع .

وكانت المرأة الصايعة قد انتهت من زينتها عندما أقبلت علينا تتقصص كأنها ممثلة سينما . . وبدأت تلك اللحظة بشعة كغوريلا مزوقة . ووقفت أمامنا فجأة ومدت يدها تطلب النقود وهمس غزالي في أذنيها أن الحساب سيتم في الخارج وليس أمام الصيرفي الفاضب المتحفز المطعون في كبريائه ولكن الست رفضت بشدة أن تتزحزح خطوة الا بعد أن تحصل على النقود .

ومد غزالي يده بالمبلغ الموجود ، ولكنها شهقت وتقصصت وألقت بالمبلغ على الارض وطلبت عشرة جنيهات لا تنقص مليما والا فالويل والثبور وعظائم الامور !

وضحكت أنا وغزالي ، فلم نكن في هذه اللحظة فد رأينا عشرة جنيهات كاملة ، وكان اليوم آخر شهر ولو أننا فتشنا الجيزة كلها فلم نكن نعثر على عشرة جنيهات .

ولقد كنا متعبين للغاية بعد أحداث تلك الليلة الحافلة . . ولم نكن قادرين على النقاش كما أننا لم نكن مستعدين لمواجهة امرأة متمرة وفي بيت رجل أكثر تنمرا !
ولذلك - وبدون اتفاق - فتحنا الباب فجأة بعد أن جمعنا

النقود المبعثرة على الارض وانطلقنا هاربين الى الشارع . ولكننا لم نبتعد كثيرا حتى توقفنا فى عرض الطريق نستمع الى الصراخ الذى انبعث من داخل المنزل ، ولم يكن الذى سمعناه هو صراخ المرأة . ولكن صراخ الصيرفى !

هذه اذن هى نهاية الصيرفى فى هذا اليوم المشئوم ! ليلة معذبة بالنسبة له وصبح أغبر ! ولكن الصراخ لم يلبث أن تلاشى ثم هدأ كل شئ .

وتوقعنا أن تخرج المرأة ولكنها لم تفعل ، ولما طال غيابها جلسنا على قهوة الحريرى القريبة وطلبنا افطارا وشربنا الشاي واشترينا علبة سجائر كاملة ، وجلسنا ندخن فى هدوء . . . كأننا نستقبل يوما جديدا من أيام الحياة فى نقّة زائدة . وفى الظهر خرجت المرأة الصايعة ومعها الصيرفى ، ووقف معها على محطة الترام حتى ركبت ، ولما انطلق بها الترام رفع يده يلوح لها كأنه صديق يودع صديقه العزيزة وشى تبدأ رحلة ميمونة الى باريس .

أغرب شئ أن الست الصايعة لم تنقطع عن الجلوس فى كازينو شهريار ، ولكنها كانت كلما زأتنى أنا وغزالى أشاحت عنا بوجهها . رغم أن الرجل الرزين أستاذ الجامعة قد تنازل عن كبريائه وتجاهل مركزه الاجتماعى وقضى معها ليلة بأكملها فى الكازينو يعتذر لها . ثم احتفت الست من حياتنا ومن الكازينو بعد ذلك . . ثم علمنا أنها تزوجت !

وممن ؟ . . .

من أستاذ الجامعة الرزين نفسه ! . . . ودنيا عجيبة وواقع . . . ولكن أغرب من الخيال !

لذلك كان عرض الرجل الطيب بالزواج موضع دهشتى ! فهو أعلم الناس بظروفي كما أنه يعلم تماما أنه ليس فى حياتى امرأة ! وعندما سألته عن سبب هذا العرض قال على الفور ، أنت محتاج الى امرأة الى جوارك ، موهبتك ينقصها التنظيم ، لو أنك حصلت على كفايتك من النوم وكفايتك من الطعام لاستطعت أن تنتج شيئا أعظم ، انك مادة خام طيبة وفى حاجة الى من يبنيك ! -

وعندما سألته : ولكن أين هي الزوجة التي ترضى بهذه
الصفقة الخاسرة ؟

أجابنى فى هدوء وقد رفع وجهه عن الكتاب الذى يقرأه :
صفية !

وكانت صفية امرأة رغم أنها لم تتزوج قط ، وكانت من
أسرة ثرية ، وتتمتع بروح متشردة . وكانت تتردد على دور
الصحف مقنعة نفسها أنها مثقفة وأنها عالمة ، وأن عليها
واجبا ثقيلًا هو تعليم الشعب ورفع مستواه . وكانت متبجحة
لاتدرك كم هي غبية وحمقاء ومزيفة ! وكان الشعب فى نظرها
هو مجموعة المثقفين الذين تجلس معهم وهم شلة الافندية الذين
تقضى اوقاتا سعيدة فى صحبتهم .

ولما أبدت له رأى فى صفية ، قال فى حسم ، تتزوج
لا لتصلح أحوال الدول ، ولكن لتصلح من شأنك وأنت فى
حاجة اليها لمدة عامين أو ثلاثة ، ثم تصرف بعد ذلك كما تهوى !

ورحت أفكر فى الامر . . وبعد أسبوع وافقت على العرض
ولم يبق الا التنفيذ . . وتم الامر فى هدوء . . سحبتها الرجل
الطيب الى كازينو شهريار ذات يوم لكى تتعرف عن قرب الى
الولد الشقى الذى سيكون زوجها لها فى المستقبل ودعوتها
أنا على الغداء ، فتة ولحمة راس وطرشى بلدى . وجلست
تتفرس فى الطعام كأنها خوجاية من بلجيكا تشاهد قطعة
أنتيكا مصرية لأول مرة ! ثم صحبتها فى جولة داخل الجيزة
وهى مدهوشة لما ترى وما تسمع . وانطلقت على سيجيتى
أنكت وأضحك وأصافح كل من ألقاه من أبناء البلد الطيبين ،
ويعلم الله كيف استندنت لأواجه نفقات هذه الدعوة ، فقد
أنفقت يومها ما يقرب من جنيه !

وفى المساء انصرفت الست صفية ، ثم علمت فى اليوم
التالى أنها رفضت ، والسبب أننى بلدى .

ولقد حدثت هذه المسرحية بين الست صفية وثلاثة شبان
آخرين غيرى ، أحدهم الآن نجم من نجوم السياسة فى مصر ،
والآخران من رجال الاعمال الناجحين للغاية ، وقد رفضتهم
الست جميعا .

وأنا أدرك السبب الآن ، فلقد كانت صافية تتمنى من أعماقها أن تتزوج الرجل الطيب ! والى هذا الحد كان الرجل الطيب يعرفها ولذلك أثر أن يبتعد عنها ، ولما يتس من العثور لها على زوج مناسب ، تزوج الرجل الطيب فجأة وغادر مصر الى الهند وقضى هناك سنوات طويلة . ولا تزال الست صافية - وهى الآن فى خريف العمر - تنتظر الزوج المناسب ! ولكنها لم تعد نفس السيدة التى كنت أعرفها من قبل ، ذبلت وجفت وانزوت ، وأصبحت كقطعة قماش قديمة ممزقة وباهتة اللون !

ولقد غادر الرجل الطيب مصر فجأة ذات يوم من عام ١٩٤٨ وكانت حرب فلسطين على الابواب ، ولقد حضرنا اجتماعا ساخنا فى فندق شبرد حضره « زعماء العروبة » وقتئذ ، وفى نهاية الاجتماع أخرج أحدهم مسدسه وأطلق منه عيارا فى الهواء ، وقال كلمة صارت مثلا :

تكلم السيف فأسكت أيها القلم !

وكتبت يومئذ كلمة قصيرة عن الاجتماع ، وعلقت فى نهايتها على الكلمة الماثورة التى أطلقها الزعيم اياه !

تكلم السيف فأسكت أيها القلم .

وقلت : وسكت القلم ، وتكلم السيف . . سيف الاسلام عبد الله !

مجرد نكتة حزقتنى ولكنها كانت الحقيقة المرة . وشعرت بضياغ شديد وفراغ لا حد له بعد سفر الرجل الطيب . هأنذا وحدى مرة أخرى بلا أى سلاح . والرجل الطيب غادر مصر الى الهند ، ويبدو أنه سيغادرها نهائيا . ولكن أنا محكوم على بالبقاء فى الحضيض الى الابد .

فلا أنا أستطيع أن أجد مكانا لقدمي فى الزحام . ولا أنا أستطيع أن أبحث عن هذا المكان بعيدا عن مصر . وفكرة الهجرة نفسها لم تكن تروق لى ، فأنا أشعر بارتباط حقيقى وبحنين جارف الى الارض ، ولا يوجد مكان فى الحياة يستطيع أن يعوضنى عن حوارى الجيزة وميدان الساعة وشريط الترام وشاطئ النهر .

وطاف بخاطري أن أعود مرة أخرى الى الوظيفة ، ولكن
سرعان ما تخلّيت عن هذه الفكرة نهائيا ، فانا لا أطيق الحركة
فى نطاق روتين لا يتغير . كما أننى لا أتقيد بمواعيد ، ولا أحسن
عملا أجبر عليه . وأنا فى حقيقة أمرى صايع أكتب أحيانا ،
ولو تركت لى حرية الاختيار لاخترت أن أكون مجذوبا أطوف
حول ضريح السيدة أصرخ فى الليل كالذئب بكلام غير مفهوم .

والذ لحظات حياتى هى تلك التى أقضيها وأنا على سفر .
ونى أى لحظة أسمع فيها الن صفير قطار يسابق الريح أحس
برغبة شديدة فى البكاء . وكلما رأيت طيارة تحلق فى الجو
انتابتنى حالة غريبة ، فأتوقف عن السير وأظل رافعا رأسى الى
أعلى أتبعها حتى تختفى عن ناظرى .

وأعظم أغنية حركت مشاعرى وأنا طفل وألهمتنى لحظات
عظيمة من الكآبة والحزن كانت أغنية شائعة منذ أكثر من
ثلاثين عاما فى مصر . . . وكانت كلماتها تقول : « يا طير يا مروح
على بلدك ليه بتنوح » .



الوظيفة آذن لا تصلح لى وأنا لا أصلح لها .
وهكذا عدت من جديد الى الجيزة ، والى شارع عباس .
والى رجل كانت تربطنى به صلة صداقة عميقة ، ويشدنى اليه
اعجابى به على نحو ما . . . ولكنى عدت اليه وقد تغيرت سحتى
وتغيرت هيئتى ، عدت اليه وقد غيرت منى الايام ، وأكلت منى
الاحداث ، وشيبتنى الايام السود التى عاصرتها .
وهكذا عدت الى الجلوس على باب دكان عبده المكوجى . . .
عدت الى عالمى العجيب الرائع ، عالم حسنين الطباخ وعساير
السفرجى ، والمعلم قطب .
ولكنى ولأول مرة فى حياتى بدأت أخشى المستقبل . . .
وأتحسس طريقى وسط الظلام الذى لا تبدد من ظلامه بارقة
أمل ضئيلة !
وذات صباح وصلنى خطاب خلصنى من قلقى وهمى . وكان
الخطاب من جهة رسمية ، ويحمل ثلاثة سطور لا غير ، وكان
يدعونى الى التجنيد الاجبارى فى صفوف الجيش .



كان استدعائي للجيش حلا لجميع المشاكل ، وكنت فخورا على نحو ما ، ولاننى ضمن أول دفعه تدخل الجيش بعد الغاء نظام البديل . . . وهكذا غادرت الجيزة ذات صباح بعد أن استعرت بالطو قديم من أحد أصدقائي ، وسافرت الى قريتنا وقضيت فى القرية عدة أيام استراحت فيها نفسى من القلق والعذاب . . . هاهى ترعة سبك التى أحبها وكأنها كائن حي ! ففى قاع هذه الترعة كثيرا ما قضيت أيام طفولتى ساعات طويلة ألبط فى الطين . ومن هذه الترعة أصابتنى مأساة حياتى ، البلهارسيا . والتى لم أفلح فى التخلص منها الا بعد عذاب .

وهنا الرياح المنوفى الذى أشم على شاطئه رائحة غريبة ليس لها مثيل فى أى مكان ، وهنا منازل الجدود والأعمام وقد رحل معظمهم عن هذه الحياة . وهنا الفلاحون الطيبون الحباء البلهاء أفقر واتعس مخلوقات الله على هذه الأرض . وفى هذه الايام راقى فى عيني بنت فلاحه تمنيت من أجلها أن أدخل الجيش واتزوجها على أن تبقى فى القرية وازورها أحيانا . وكانت مليحة وبضة وفيها ملامح ممثلة أمريكية شهيرة كنت أعشق أفلامها وكان جمالها طازجا وعفيا ، وكانت جريئة تهوى المزاح والغناء ، وكانت حين تغنى يسيل من صوتها المبحوح نبرات حزينة كأنها البكاء . ولكنى رحلت ذات صباح من القرية دون كلمة وداع من البنت الفلاحه ، ولم أرحل وحدى ولكن مع قافلة حزينة من عشرة شبان فلاحين ، صادق

ويوسف وجاد الحق وآخرين . وكان بعضهم أصدقائي ، والبعض الآخر أراه لأول مرة ، وخرجت أنا على رأس المركب أركب حمارا وفلاح قريبى يجرى من خلفى ، وخرج جدى الشيخ خليل يودعنا حتى شاطئ الرياح ، ثم منحني جنيها وتمنى لي السلامة . . وعاد ! وخطفت نظرة على جدى وهو يحث الخطى نحو القرية ، وادركت عندئذ أنني أنتقل الى حياة جديدة مختلفة ، واننى لأول مرة أواجه المرحلة الجديدة بلا أصدقاء ! كانت الشمس على وشك أن تتوسط السماء حين وصلنا الى مركز بوليس الباجور ، وفي دقائق انتهت اجراءات تسليمنا وصافحنا الحفراء ومضوا . وواجه شاويش المركز مشكلة وجودنا فى المركز حتى الصباح . وراح يسأل كل مسئول فى المركز عن حل مناسب للمشكلة . كانت المشكلة تتلخص فى أننا عهدة لديه ، وكان السؤال : هل ينقى بنا فى الحجز ؟ ولكننا لسنا وش ذلك كما أفتى أحد الصولات الطيبين اذن هل يتركنا تتجول فى فناء المركز ؟ ولكن من يدري . . فقد يهرب أحدا ، خصوصا أن بعضنا كان يبكى بحرقة وكأنه ذاهب الى الاعدام . وفى المساء ذهب الشاويش وأحضر كاتب المركز ، وهو رجل مسئول خطير المسئولية ، وكان شابا صغيرا حديث العهد بالوظيفة ، عندما وقع بصره علينا ، صاح على الفور : « ارموهم فى الحجز » وعلى الفور انطلقت الصيحات والنبي يابيه احنا غلابة ، نبوس رجلك يابيه ربنا يخليك . . وانقلب المركز الى مناحة ، ولكن البية لم يتزحزح خطوة . . وأصر على موقفه وكان لابد من تنفيذ الامر ، وانهاالت الكرايبج فجأة تمزق الهواء وتمزق الجلود ، وسرعان ما هدأت الضجة ، وانفتح باب السجن الكبير ليدخل عشرة رجال سيصبحون بعد أيام عساكر فى جيش مصر . وقبل أن نخطو داخل الزنزانة القدرة المعتمة نادانى الافندى الكاتب وقال وهو يهزنى برفق : انت مش محمود ، ولما أجبت بالإيجاب صافحني بحرارة . . وتبينت وأنا أتفرس فى وجهه أنه فخرى صديقى القديم وزميلى فى مدرسة المعهد العلمى . وقضيت الليل كله فى حجرة فخرى نشرب الشاي وندخن السجاير ، ونستعيد ذكريات الشقاوة فى شارع سلامة أيام التلمذة ولأجل خاطرى أفرج عن الآخرين وسمح لهم بالنوم فى فناء المركز على ضمانتى . وفى الصباح أوصى الشاويش الذى صحبنا الى القاهرة أن يعاملنى معاملة

كريمة • وسرنا من جديد الى محطة السكة الحديد ، الفلاحين
مقيدون بالحبال ، وأنا أسير بجوار الشاويش نتبادل الحديث
والسجاير والفلوس أيضا • فقد حدث أن وقفنا ننتظر القطار
فى محطة بنها ، وكان علينا أن ننتظر لمدة ساعة واستأذنت من
الشاويش لمدة دقائق أزور خلالها خالتي التى تسكن فى بنها ،
وعندما عدت لم أجد أحدا فى المحطة ، واكتشفت أنني تأخرت
كثيرا وأننى تحت الحاح خالتي تناولت طعام الفطور وشربت
الشاي ثم خرجت أتجول فى شوارع بنها قبل أن أذهب الى
المحطة • وركبت القطار الآخر وفى نيتى أن أفعل شيئا •
إذا وجدت القافلة فى انتظارى فى محطة مصر كان بها •• وإذا
لم أعثر فالفرار اذن هو الشئ الوحيد الذى يجب أن أفعله •
فلقد عانيت كثيرا خلال الساعات الاخيرة ، وشعرت بمرارة من
منظرى وأنا أزحف الى جوار الشاويش ومن كلمات النفاق
التي تناولناها خلال الرحلة ، وهى كلمات زائفة ، وباردة كما
أننى لم أكن تعودت قبل ذلك أن أنهض بأمر وأسير بأمر ••
وأتوقف بأمر ، وإذا كان هذا هو حال الاوامر وأنا فى يد
البوليس ، فكيف يكون الحال عندما أصبح فى يد الجيش ••

دخل القطار محطة مصر •• ورحت أتلفت على الرصيف ،
ولكننى لم أعثر على أحد هناك ، وعندئذ قررت أن أهرب ••
ولكن الى أين •• الى الجزيرة ؟ انهم سيبحثون عني حتما فى
الجزيرة وسيقبضون على •• اذن أهرب الى مكان آخر • ولكن
أين هو هذا المكان ؟ ورحت أستعرض فى ذاكرتى كل الأماكن
التي أستطيع أن أهرب اليها ، ولكن قبل أن أستقر على مكان
لمحت ضجة من بعيد ، وصراخ يتصاعد فى فناء المحطة ••
وشدنى فضولى الى هناك •• وهو فضول سيسبب لى متاعب
لا حصر لها فى المستقبل • واخترقت الحلقة المضروبة حول
الرجل الذى يصيح وعندما أصبحت أمام الحلقة ، اكتشفت
أننى أصبحت وجها لوجه أمام الشاويش •• وأنه هو نفسه
الذى يبكى ، ومد يدا عملاقة جبارة وقبض على عنقى ، وعبنا
حاولت أن أخلص نفسى منه دون جدوى ، ولم يترك عنفى
يقلت من بين أصابعه الا فى معسكرات الجيش •

كان المعسكر الذى ضمنا يقع على مشارف الصحراء فى
أطراف العباسية وكان اسمه معسكر العزل .
ومن أول دقيقة تم تقيطنا . . وعزلونى بعيدا عن زملاء
الرحلة ، ووضعونى فى خيمة مع سبعة أفندية متعلمين . هم
حصيلة هذا اليوم من المجتدين أصحاب المؤهلات . . كان
الأفندية السبعة كلهم من الريف ، وأبناء عم جميعا ومستورين
وكانت أسرهم قد انتقلت الى المدينة خلفهم ساعين بالوسائط
والشفاعات لدى أصحاب النفوذ ليخرجوا « الأولاد » من هذه
المحنة . وكان المعسكر يسلم رواده ماركات بخمسة قروش
ليشتري من البوفيه طعامه وشرابه ولكن سكان خيمتى كانوا
يتبرعون بالماركات لشاويش المعسكر ، الشاويش خلاف . .
وهو رجل له صوت مكنة طحين خربانة ، وقلب من بلاط . .
وعقل أغلب الظن أنه من مصاصة قصب ، وكان شديد الزهو
بهيئته ، شديد الاصرار على تنفيذ الاوامر كما هى دون أدنى
تقصير . ورغم أنه فلاح فقد كان يحتقر الفلاحين من أعماقه ،
وكان يطلق على زملائنا فى المعسكر من أبناء الريف وصف
الطلاينة ، وكان يعتقد أن الطلاينة هم أسوأ ناس على ظهر
الارض . وكان يتردد علينا دائما أثناء تناول وجبات الطعام ،
وكان يتلصق عندما ندعوه الى الأكل معنا ثم يقبل بعد الحاح ،
ولكنه بعد أيام ، أصبح يهجم على الطعام دون دعوة ، بل أصبح
يوصى بأصناف معينة ، وأكثر من هذا كان يوجه نقدا لبعض
أصناف الطعام ، ولم تكن خيمتنا تستهلك من الطعام ألا الذه
وأشدها ، فطير مشلتت ، فراخ مخمره ، عسل نحل ، قشطه
فلاحى ، جبنة قديمة ، بيض مسلوق ، رز معمر ! وكان خلاف
يعشق الرز المعمر الى درجة الجنون ، وذات مساء أكد لنا ونحن
جلوس أمام باب الخيمة أن الذى يأكل الرز المعمر فى كل وجبة
يعمر الى سن المائة ، ويبقى فى صحة جيدة الى آخر يوم من أيام
العمر . وأن معنى معمر مأخوذة من العمر الطويل ! وفى ذلك
المساء نهض خلاف فجأة فى منتصف الليل وأطلق صفارة طويلة
وسرعان ما استيقظ جميع الوافدين للتجنيد ، ولما سألته عن
السبب قال فى هدوء ، عشان يلموا ورق ! ولما لم يكن هناك
ورقة واحدة فى أنحاء المعسكر ، فقد هز خلاف رأسه وقال :
يلموا أى حاجة دول طلاينة ! وخلال سبعة أيام فى المعسكر

رأيت أشياء عجيبة ، المجتذون - ماعدا الأفندية - تحولوا الى
 مجموعات ، أبناء المتوفية وحدهم ، وأبناء الشرقية وحدهم ،
 والصعايدة وحدهم . ولكن أنشط وأعظم مجموعة كانت تضم
 أبناء الاسكندرية . ولقد جاء أبناء الاسكندرية الى المعسكر
 ليس كما يجيء الناس . جاءوا فرادى ومع كل منهم عسكري ،
 وفي يد كل منهم جوز كلبشات وأمر من البوليس بمراقبة
 النفر ، فاذا دخل الجيش كان بها ، واذا أعفى من التجنيد فلا بد
 من تسليمه للبوليس ، واكتشفت أنهم جميعا من بحرى
 والانفوشي ، وأنهم جدعان لهم شهرة فى اسكندرية وأنهم
 جميعا مراقبين بعد سجن طويل من أجل جرائم لاتمى الشرف
 . وكانوا يسهرون الليل بطوله مضفين على جو المعسكر ساعات
 من البهجة والمرح وكانوا جميعا يحفظون الحان سيد درويش ،
 ويتعصبون لكل ما هو سكندري ، وكانت الاسكندرية فى رأيهم
 هى مركز الكون ، ومحور العالم ، كما أن أهلها هم أذكى ناس
 على ظهر الارض ! وكانوا يحتقرون الشاويش خلاف بشدة ،
 ويتعمدون عدم تنفيذ أوامره ، وكانوا يسمونه القفة ردا على
 تسميته لهم بالطلائنة . ولكن رغم هذا التحدى فقد سارت
 الامور عدة أيام فى هدوء قبل أن ينفجر الموقف داخل المعسكر
 . . ورغم رذالة الشاويش خلاف إلا أنه كان محتملا ، فقد كان
 خفيف الدم ، وكانت تطلعاته محدودة ، ومطالبه سهلة ولكن
 الصول شفيق كان أكبر مصيبة حطت علينا نحن الافندية . .
 كان يسهر معنا طول الليل مصرا على أن يقرأ علينا كشاكيل
 ضخمة من انتاجه الادبى . . وكان مصرا على أنه لو صادف
 بعض الحظ الحسن فى الحياة لاصبح مثل طه حسين والعقاد
 وكان يحلم بأن يترك الخدمة يوما ما ليصبح كاتباً كبيراً ذائع
 الصيت . وعندما قرأ أول سطر فى الكشكول الضخم الذى
 سحبه علينا ، تبينت كم هو مدع وكاذب مهبول « بينما كنت
 أسير فى منازل الزرع الاخضر ، بين النسيم العليل والهواء
 البليل والطيور تغرد على أفنانها ، والحيوان يتبخطر فى
 أرجائها » . . وسكت فجأة ليسألنا سنوآلا مفاجئا ، عارفين
 يتبخطر يعنى أية ؟ وأجاب بنفسه على الفور ، يعنى يتمخطر
 شايفين الفن ! ولم يكن فى كلامه فن ولا حتى صنعة . ومع
 ذلك ظل يقرأ علينا كل يوم كشكولا ضخما ونحن نستمتع اليه
 فى أدب وفى خوف ، وكنا أحيانا نردد أمامه عبارات الإعجاب

وكان هو ساذجا ومغرورا الى حد أنه صدق كل حرف قلناه !
وذات صباح نشبت المعركة فى المعسكر ، طلب الشاويش
خلاف من أبناء الاسكندرية أن يجمعوا الورق ، ولما لم يكن هناك
أى ورق ، فقد رفضوا تنفيذ الامر ، ومد الشاويش يده ولهف
أحدهم قلما ولكن قبل أن تصل يده الى المكان الذى اعتادت
أن تصل اليه . كان الشاويش خلاف قد أصبح جثة ممددة
على الارض والدماء تنزف من كل جزء فيه . وطاح عيال
اسكندرية فى المعسكر كله ، وضربوا الشاويشية والصـول
والمجندين ، وزعق النفير كبسة وتدفقت قوات كبيرة حاصرت
المعسكر ، وسرعان ما هددت المعركة وتم عزل أبناء الاسكندرية
فى معسكر آخر قريب . وذهبنا للكشف الطبى فى النضارة .
ووقفنا جميعا عرايا فى حوش واسع تنبعث منه روائح كريهة
أشبه بالروائح التى تنبعث من بيت الاسد فى حديقة الحيوان
• وعندما عدنا الى المعسكر كنا قد أصبحنا جنودا فى الجيش .
أما الآخرون فقد اطلقوا سراحهم بعد الكشف ، ولم يعد معى
من أبناء بلدنا الا واحد فقط . والباقون جميعا شرك • وكان
السبب واحد : ضعف الرؤية الى درجة العمى • • ولقد أتيحت لى
أن أعيش عشرين يوما فى المعسكر ثم استطاع أحد أفراد اسرتى
وهو مستوظف وكان على علاقة بأحد الاحزاب استطاع أن
ينتزعنى من المعسكر ومن الجيش كله لاعود من جديد الى الجيزة
تحت الطلب ! وكانت تحت الطلب تعنى أننى أكون مستعدا
دائما لدخول الجيش عند أى لحظة خطر يتعرض لها الوطن ! وهى
نكتة بالطبع لاننى خرجت من الجيش والوطن يتعرض فعلا
للخطر ، ولم أكن أنا وحدى الذى خرجت ، خرج معى كل
الافندية ، وتركنا الطلائنة خلفنا للشاويش خلاف وللصـول الذى
يحلم بالشهرة عن طريق الادب • •

وخرجت من المعسكر الى دكان عبده بكر ، وبعد شهر واحد
أصبحت محررا فى دار الهلال • ولكن خلال هذا الشهر وقع
حادث غريب • فقد هبط على ذات مساء شاب كان يعمل معنا
لفترة فى مسامرات الجيب • وكان اسمه خلف وكان وسيما
وصحيح البدن وله هيئة وشكل أبناء الذوات الهنود • وكان

يعمل محاميا ولكنه صادف كثيرا من المتاعب فلبثا الى الصحافة
وكان قريبا الى قلب الرجل الطيب . ولقد نصحه الرجل الطيب
بأن يتجه الى الترجمة ، وكان رأى الرجل الطيب أن المترجم
الذى ينقل أدب الشعوب الى لغتنا ينبغي أن يكون أديبا وفنانا
ومحبيا للشعب ولقد وافق خلف على هذا الرأي فعلا وانهمك في
ترجمة كتاب لدستوفسكى ، ولكنه سرعان ما هجر دستوفسكى
الى سمرست موم ، ثم هجر الجميع الى كاتب فرنسى وترجم
له فصولا من كتاب فلسفة الحب ! ثم مالبت أن اختفى نهائيا من
المجلة ولم أره بعد ذلك الا عندما هبط علينا فى دكان عبده
بكر . ولقد ارتعت بشدة عندما رأيته ، كان يبدو عليلا ومنهكا
للغاية ، وكان منظره يدعو الى الأسى ، وعيناه متقرحتان ، وفي
وجهه بثور ، وحذاؤه مخبوط ومضروب فى أكثر من موضع
.. وينظرونه ممزق وجاكتته باهتة اللون وقميصه ممزق كأنه
خارج لتوه من خناقة حامية ، وعندما استفسرت منه عن حاله
لم يتكلم .. أثر الصمت البليغ وسرح فى ملكوت الله .. وبدأ
لى وأنا أتفرس فيه كأنه مجذوب يعيش حول ضريح سيدينا
الحسين ..

وفى آخر الليل طلب منا أن نسمح له بالنوم فى دكان عبده
حتى الصباح .. ورفض عبده فى أول الأمر ، ظنا منه أن خلف
لا بد وأن يكون لصا عريقا اعتاد الاجرام . وهارب من البوليس
ويبحث عن مكان يلجأ اليه .. وفى النهاية وافق بشرط أن
يغادر الدكان فى الصباح الباكر قبل أن يكتشف وجوده أحد
.. ومع ذلك فقد نام خلف فى دكان عبده أسبوعا كاملا ،
وكان أكثر المتحمسين له عبده نفسه ، وكان شديد الكرم
معه ، يشتري له الطعام ويعد له الشاي ويمده بين الحين والآخر
بالسجائر .. ولكن عبده الذكى كان يرمى الى شىء آخر ، فقد
كان عبده هاويا للمسرح وكانت له فرقة مسرحية خاصة به ،
وأراد أن يستغل خلف فى تأليف الروايات ...
ولكن خلف المسحوق تماما لم يستطع أن
يكذب طويلا على عبده ، ولم يلبث أن غادر الدكان ذات صباح
ولم يعد ، ولقد عرفت من الرجل الطيب بعد ذلك أن خلف
فقد عقله ، وأنه نزيل مستشفى المجاذيب ، ثم عرفت بعد ذلك

أنه مات في الطريق ، صدمته عربة في مصر الجديدة ولفظ أنفاسه على الفور . . ولقد قدر لي أنا أيضا أن أغادر دكان عبده المكوجي الى غير رجعة . وبعد رحلة قصيرة الى دار الهلال ومقابلة لم تستمر طويلا مع رئيس التحرير ، وحديث قصير بالتليفون من اسماعيل الحبروك ، أصبحت محررا في دار الهلال . . ولقد بدت دار الهلال أمام عيني شامخة وجليئة ، والدار نفسها كانت نظيفة والرخام يلمع بشدة والسكون يشمل كل شيء على غير عادة دور الصحف وكاننا في مستشفى من مستشفيات العاصمة الانيقة ولقد تحدثت معي رئيس التحرير حديثا خاطفا ولكنه بلور ولخص فيه كل فلسفة دار الهلال وكل أهدافها . نحن هنا نهتم بتسلياة الناس ، علينا أن نقدم للقارىء كل ما ينشده انه يبحث دائما عن كل شيء طريف ! ولم أفهم وقتئذ ما هي الطرافة ، وحسبت أنه يقصد الظرف وأن الشيء الطريف هو الشيء الطريف . . وعندما استفسرت عما يقصده رئيس التحرير ، أجابني أحد المحررين بحماس ، يعنى لازم تجيب شيء جديد ، القارىء يحب الجديد ، وضرب لي أمثلة حية من إنتاجه هو شخصيا ، وسحب عددا من مجلة الاثنين . . وراح يتصفحها ببطء ثم توقف عند صفحة معينة وقال . . بص ، دا موضوع طريف ، أنا عامله ! وكان الموضوع في دولاب ممثلة شهيرة ، وعدة صور عن ملابس الشتاء القادم ثم الممثلة نفسها وهي تعرى فخذوها ، ثم الممثلة أيضا وقد برز صدرها للهواء النقي ! ورأيت توقيع المحرر « بقلم جلال مرزوق » واندذهشت لانه لم يكن في الصفحة أى شيء بقلم هذا الاستاذ والموضوع المنشور كله بعدسة المصور ، ولكن المجد كله للاستاذ مرزوق . . وتنهذ الاستاذ بعد أن انتهى من شرحه العملي ، ورفع سماعة التليفون في رشاقة وطلب الست الممثلة ، وراح يرددش معها دردشة طويلة عن الموضوع ، وما بذله في سبيل نشره وانتهى الكلام بموعد مع الممثلة في المساء وعندما نهض واقفا نظر نحوى في زهو ممتزج ببلاهة ، وقال قبل أن يغادر الحجرة ، اذا كنت عاوز أى حاجة أنا تحت أمرك . . تم قذف أمامي بكارت . . وعلى الكارت كان اسمه بارزا بحروف صفراء في لون الذهب ، الاستاذ مرزوق ، صحافى ! ووضعت الكارت في جيبى وتمنيت أن يكون لي مثله في قادم الأيام !

كان فوج المحررين الجدد الذين اقتحموا دار الهلال أخيراً يتكديس أفرادهم جميعاً في حجرة واحدة . وكان منظر الحجرة الخشن البائس يوحى للزائرين أن هذه الحجرة قد انفصلت نهائياً عن دار الهلال ، كما أن كل الأصوات النشاز التي كانت تتصاعد في جو الدار الهادئة هدوء المقابر كان مصدرها هذه الحجرة التي أصبحت مقراً لهذا الفوج البائس من المحررين الجدد . وكانت النظرة الأولى إلى هؤلاء المحررين تؤكد أنهم حديثو الصلة بالدار . فقد كان المحررون القدامى جميعاً يرتدون قمصان حرير وبدل أنيقة وأربطة عنق غاية في الحلاوة والجمال . وكان أحدهم واسمه نصرت عبد العليم يرتدى نظارات ملونة ويضع السيجارة دائماً بين شفتيه ويتكلم من طرايطف أنفه ويفلسف كل شيء وكأنه الفيلسوف جان نجاك روسو نهض من قبره فجأة ليهدى البشريه إلى طريق السلام . وكان الأستاذ نصرت قد كتب عدة قصص قصيرة في مجلة الاثنين الواسعة الانتشار فأصبح نجما من نجوم المجتمع المصري ولكن لعدة شهور . ثم مالبت أن اختفى اسمه من المجلة ثم اختفى هو نفسه من المجتمع ، وقنع بركن في كازينو أوبرا كل مساء يدخن فيه الشيشة ويجتمع ببعض الأصدقاء الذين كانوا يؤمنون بعبقريه الأستاذ . ورغم انطفاء اسمه وذبول أحلامه في الشهرة والانتشار إلا أن وظيفته في دار الهلال كانت تتيح له سيطرة كاملة على المحررين ، فقد كان يقوم بدور المراجع ، وكان يستطيع أن يمنحك مائة جنيه كل شهر ، أو يمنحك نصف جنيه فقط لا غير لو أراد . . . ولذلك كان يقضى الساعات الطويلة في الحجرة البائسة مع قطيع المحررين الجدد يحكى لهم أمجاده العريضة في الصحافة ، ويصحح لهم معلوماتهم الخاطئة عن الحياة . وكان يصحبه خلال هذه الساعات صمت عميق من جانب المحررين . . . ويضمن أيضاً نفاقاً لا حد له

من جانب البعض الطامع فى مزيد من عطف الاستاذ ومزيد من فلوس الدار . . ولكنى اكتشفت من أول لقاء أن الاستاذ فاضى تماما من كل ثقافة . وخاوى تماما من كل موهبة . . وأنه قبل مجيئه الى هنا كان باشتمورجى هرب من عيادة طبيب والتحق بدار الهلال كموظف فى الادارة . ولكنه استطاع بفضل نبوغه فى النفاق ان ينقل من الارشيف الى التحرير ، واستطاع أن ينشر عددا من القصص . . ثم ارتكب غلطته الكبرى عندما نسي أنه يحتل هذا المكان ليس بفضل عبقريته الفذة ولكن بفضل سلوكه كتابع أمين لأصحاب النفوذ فى الدار . . فلما شمع بأنفه عليهم ، عزلوه ببساطة وجردوه من كل شيء . . وأغلقوا عليه باب حجرة ضيقة ليراجع فيها أعمال المحررين ، غير أنه كان شديد الثورة ضد النظم القائمة فى الدار ، هذه النظم نفسها التى رفعت من كاتب فى الارشيف الى كاتب قصة . وكان يزعم أن حقد أصحاب الدار عليه ليس الا لكبريائه الوطنى وثقافته العريضة !

وكان يحلم دائما باصدار مجلة تقضى على مجلة الاثنين ثم تقضى على دار الهلال نفسها . وكان يؤكد دائما أن لديه مائة قصة جاهزة لنشرها فى المجلة المزعومة !

ومضى شهر كامل وأنا أعمل فى دار الهلال دون أن أعرف المبلغ الذى سأقتاضه آخر الشهر . كان على أن أقدم ما أستطيع من الموضوعات وكانت هذه الموضوعات تخضع لتقييم وتقدير مدير التحرير . وكانت العلاقة بينى وبين مدير التحرير لا تسمح بالخوض فى هذا الموضوع فقد كان رجلا قصيرا ومشوها وحادا المزاج ، وكان يسير فى نقابة الصحفيين يلعب القمار حتى الصباح ولكنه والحق أقول كان على دراية بهذا النوع من العمل فى دار الهلال فقد كان يعرف الخط العام للمجلة والسياسة التى ينبغى أن تسير عليها . وكانت كل اهتماماته محصورة فى الطريف والظريف من الامور ، وكان كل أصدقائه من المقامرین ، وكل صديقاته من بنات الكومبارس المترددات على أسنديوهات السينما . وكان أحيانا ينشر لبعضهن صوراً بالمايوه عند اقتراب فصل الصيف باعتبارهن من بنات الاسر التى اعتادت الاصطياف وكانت له بطانة من المحررين يسهرون معه أحيانا ويتكلمون

باسمه أحيانا .. وكان هؤلاء المحررون ينتفون عن سعة ،
ويدخنون نفس الصنف الذى يدخنه مدير التحرير ويرتدون
نفس الالوان التى يرتديها .. بل كانوا أحيانا يقصون علينا
نفس الحكايات التى يقصها عليهم ، وعلى أنها حدثت لهم
شخصيا وليس لمدير التحرير !

وجا آخر الشهر ، ووقفت أمام عم حبيب صراف الدار كبائع
غلبان معكوم تحرى ، وسألنى عن اسمى عدة مرات ، ثم ألقى
نظرة على كشف أمامه ، ثم أدخل يده فى درج .. ثم أخرج رزمة
أوراق مالية وراح يعد فيها ، وأدركت أن الرجل أخطأ ، فهو
يعد أوراقا مالية من فئة العشرة جنيها ، وأنا شخصيا لم أكن
أطمع فى أكثر من ستة جنيها أو ثمانية . هذا اذا كنت سعيد
الحظ ! ولكن عم حبيب واصل العد ثم راح يفرد الاوراق أمامى .
أوراق بلغت خمسين جنيها ثم ورقة من فئة الخمسة جنيها ، ثم
ورقتين من فئة الجنيه ثم أوراقا صغيرة من فئة العشرة قروش .
وكاد يغمى على .. فانا لم أحلم أبدا منذ ان احترقت الصحافة
بأن أمتلك مبلغا بهذا القدر . وأنا كنت أعتقد حتى هذه اللحظة
أن الوزير يتقاضى خمسين جنيها فى الشهر وأن الملك يتقاضى
أكثر من مائة جنيه .. وهأنذا فى لحظة أقفز الى درجة الوزير .
وها هو عم حبيب يمنحنى خمسين جنيها وأكثر مرة واحدة ..
وأمسكت بالنقود فى خوف .. وترددت فى التوقيع فقد كنت
متأكدا أن النقود ليست لى .. لعلها لرجل آخر اختلط اسمى
باسمه فى ذهن عم حبيب . وقررت أن أصارح عم حبيب بالامر
لكى أثبت له أننى رجل شهم وأمين .. ولا أقبل المال الحرام
مهما كان قدره ومهما كان مصدره ! ولكن عم حبيب شـخط
شـخطه عنترية أفرعتنى ، ودعانى الى التوقيع لأفسح المجال
لغيرى من المنتظرين ، ووقعت فعلا ، ولهفت المبلغ وخرجت من
دار الهلال أجرى ، كأئنى قاتل تطارده عشرة كلاب متوحشة ..
وسبعة أيام كاملة وأنا صايح فى الشوارع دون هدف .. أرتاد
البارات والمقاهى وأستعمل التاكسيات .. وأدخن السجاير
الامريكانى التى يدخنها طاقم المحررين الملتف حول رئيس
التحرير .. واشتريت لنفسى حذاء جديدا .. فقد كان حذائى
القديم قد بلى من كثرة الاستعمال ، وكانت المياه المتخلفة من
الامطار تتسرب الى قدمى من خلال الثقوب الكثيرة التى طرأت

عليه .. وكان لونه أجرب لم تعد تنفع فيه الاصباغ ولا الورنيش
ولقد ارتديت الحذاء الجديد داخل المحل ، ثم قذفت بالحذاء القديم
فى الميدان الكبير وانصرفت هاربا ، وأحسست براحة لأحد لها ،
وكأننى امرأة زانية تخلصت من جنينها الذى رزقت به فى الحرام .

وعدت من جديد الى دار الهلال .. عدت اليها وقد تغيرت
كثيرا ، واكتشفت خلال الاسبوع الذى مضى أننى أصبحت أكثر
رقة وأكثر طيبة وأقل غلظة وأقل حدة عن ذى قبل .. وجلست
فى سكون فى ركن الحجرة أكتب وقد اعترانى فجأة احساس بأن
ما أكتبه مهم . كنت اكتب موضوعا عن فنان الشعب . الرجل أبو
أرغول الذى يحتل كل أسبوع ركننا فى سوق الثلاثاء يغنى
مواويل أدهم الشرقاوى ومسعود ووجيده . ولقد وافق عليه
رئيس التحرير بصعوبة . ووصفه بأنه شحات ، وقال أن الفنان
هو من يعمل فى المسرح أو فى السينما ، أو البنت التى ترقص
فى الصالات .. ونطق الكلمة بالانجليزية ARTIST وقال
ان الكلمة ينبغى عدم ابتذالها .. واستبدل العنوان بعنوان
آخر .. مطرب الشعب !

وفجأة هبط علينا محرر من طاقم المحررين اياهم . وجلس
أمامى . وتفرسنى بشدة ، وسألنى وهو يهز رأسه ويغمز لى
بعينيه :

• هيه مبسوط ؟

— الحمد لله ..

• فهمى بك عمل لك مبلغ محترم .

— آه فعلا ..

• شكرته والا لا ؟

— لا والله ..

• شوف العبط .. مش تروح تشكره ..

— بكره بقى ان شاء الله ..

• أقولك .. تعرف اسكايينو ؟

ولم اكن اعرف اسكايينو ، ولم اكن قد سمعت به من قبل ،
وخيل الى أنه محل جاتوه مثل جروبى .. أو كاتزانس ، وربما

هو قهوة مثل بوديجا و الشمس .. ولما بدا جهل الشديد ،
أضاف الرجل الحير .

.. سكايينو بتاع الجرافات ..

وهزئت رأسى وقلت كاذبا :

.. آه ..

• طيب فوت عليه بعد الظهر ، عنده تشكيلة جديدة رائعة .
هات نص دستة لفهمى بك وروح بكره اشكره .

ونهض الرجل الحير على الفور ولم يترك لى أى فرصة للرفض
او للرد .. وجلست أفكر فى هذا العرض الثرىب ، نص دستة
كرافات لفهمى بك وأنا نفسى ارتدى بدل الكرافة شيئا يشبه
الجبل . ولو عثرت على دستة كرافات فمن المؤكد اننى ساستعمل
بعضها وابع البعض الآخر . كما اننى حتى هذه اللحظة لم
اكن قد تلقيت أى هدية فى حياتى ، ولم اكن قدمت أى هدية
لاحد على الاطلاق .. ثم هل هذه هدية ؟ ام رشوة ؟ وهل
النقود التى قبضتها هى أجر ما كتبت .. ام فى أموالنا حق
معلوم لمدير التحرير المسئول ؟ وهل هذا النظام معمول به
هنا فقط أم فى كل دور الصحف الاخرى ؟ وهل هذه هى
الصحافة ؟ وهذا هو الطريق الوحيد المؤدى اليها ؟ ام ماذا ؟

وقررت فى النهاية امرا .. لن اذهب الى سكايينو .. ولن
أهدى شيئا لفهمى بك .. ومضت الحياة عادية فى دار الهلال
حتى جاء أول الشهر .. وعندما وقفت امام حبيب صراف الدار
اكتشفت أن المبلغ هبط من سبعة وخمسين جنيها الى سبعة
عشر جنيها ، وهبط فى الشهر التالى الى ستة جنيها ، ثم الى
لاشئ فى الشهر الرابع . وأصبحت محررا بلا أجر فى دار
الهلال .. واقترحاتى كلها مرفوضة وموضوعاتى كلها مردودة
وجركاتى كلها سخيقة ودمى بايخ وصوتى مزعج بشكل رهيب !
ورحت اقترض من المحررين الراضجين ، ثم رحت اتناول منهم
أجرا لقاء ما كتبه لهم ، وذاع صيتى فى الدار ، فأصبحت كاتب
عمومى . أكتب موضوعات المحررين لقاء اجر معلوم اتقاضاه آخر
الشهر ثم احتكر جهودى محرران احدهما يعمل الان مندوبا
للاعلانات واخر ضاع فى الحياة وعاد الى قريته بعد ان داخ دوخة
الارملة فى مصر !

كان الرجل الاول شديد الذكاء شديد الطموح ولكن امكانياته لم تكن تسعفه لتحقيق اغراضه . . وكانت كل حصيلته في الثقافة قبل ان يصبح محررا في دار الهلال هي عشر روايات جيب لارسين لوبين ، وروايات السينما المصرية ، وكان واسع الاطلاع عليها ، وعلى صلة وثيقة بجميع مؤلفي الاغانى في مصر وكان يطلق عليهم وصف الشعراء . . وكان صديقا لاحدهم وهو مؤلف وتاجر فراخ ، وكان يكتب عنه كل شهر موضوعا في المجلة ، ويلتقط له صورا وهو يؤلف الى جانب أقفاص الفراخ وكان يكتب في الفرق بين صوت الديك وصوت الشاعر . . وكان الشاعر الفراجي كريما فقد كان يهدي المحرر اياه خمسة أجواز فراخ كل اسبوع ، وكان المحرر كريما هو الآخر ، فكان يستولى على الهدية اسبوعا ، ويرسل بها الى بيت مدير التحرير اسبوعا آخر . . وعندما اطمأن الى كفاءتي واثقاني في العمل ، ترك لي مهمة كتابة المواضيع وتسليمها باسمه وتفرغ هو لعمله الآخر فقد أصبح مديرا لدعاية شركة أفلام !

أما الرجل الآخر فكان من الارياف . . وكان مدرسا الزاميا قبل ان يعمل بالصحافة . . واغرب شيء انه استقال من وظيفته ليتفرغ لعمله الآخر كسكرتير لوكيل عام احدا الاحزاب السياسية الكبرى ، ومن خلال عمله في الحزب تسلل الى دور الصحف المختلفة ، ومنها الى دار الهلال . . ورغم ان الحزب الذي كان يعمل داخله كان حزبا عقائديا ، الا أن اهتمامات الاستاذ علوي كانت كلها نسائية ، وكان وثيق الصلات بكل الجمعيات النسائية في مصر ، وكان قادرا على الحديث مع السيدات بالساعات دون أن يكل ، وكانت اهتماماته تافهة تدور كلها حول الطبخ واصناف الطعام والحلوى اللازمة لبناء الجسم . . وكان يؤكد في كل مناسبة أن الارز هو الطعام الكامل . . وأن الحلويات تساعد على تكاثر الدم ، وان شرب الماء على الطعام يسبب كوارث عظمية وان الرجل الكامل هو الذي يأكل ثم يشرب بعد الانتهاء من الاكل بساعتين . . ورغم أن الاستاذ علوي كان أعزب الا أنه كان قد دخل تجربة الزواج مرتين ! مرة في بداية الحرب العالمية الثانية وكان يسكن في حارة في عابدين وعلى رأس الحارة كانت احدى الفتيات تبيع الجاز بدون كوبون وبسعر مرتفع وكان علوي يحصل لها على الكوبونات بنفوذه في دوائر وزارة التموين ،

وكانت تربح من وراء هذا العمل مبالغ طائلة ، كان علوى يحصل على بعضها مقابل خدماته ، ولقد تطورت الصلة بينهما الى حب ثم الى زواج ، ولكن علوى سرعان ما سئم حياته فهجرها . . . ولكن البنت الغليظة التي جربت الزواج من رجل يتمتع في الحياة بنفوذ لم تقبل ان تفرط فيه بسهولة وقاوتت في سبيله بأسنانها وبأظفارها . . . وادى بها الامر الى انتظاره كل صباح امام دار الهلال ، والصراخ داخل الدار ! ورغم الفضيحة فقد أصر علوى على موقفه ، ولم تجد البنت بدا من رفع الامر الى القضاء . . . وفعلا . . . حصلت على حكم ضد علوى بالنفقة او السجن . . . ولما لم يكن مع علوى ما يدفعه ، فقد القوا به ذات صباح في السجن ثم قبل العودة اليها فافرجوا عنه ، ولبت معها شهرا ثم هجرها مرة أخرى ولكن بدون مشاكل ولا قضاء !

ثم تزوج مرة أخرى من بنت كومبارس جاءت الى دار الهلال لتظهر في موضوع عن ملابس الحريف . وبعد الموضوع خرجت البنت مع علوى الى مأذون السيدة زينب . . . وعادا في المساء الى بيت علوى زوجين سعيدين للغاية . ولكن يبدو أن الامور تكشفتهما بعد ذلك فأنفصلا دون ضجة . فقد ظنت البنت انها حصلت على الشهرة والمجد بزواجهما من علوى ، وظن هو انه حصل على الاستقرار المادي بزواجه منها . . . ثم اكتشف بعد شهر انها مفلسة ، واكتشفت هي أنه هايف وتم الطلاق في هدوء وعاد يسعى من جديد على رزقه في دار الهلال . ولقد كان علوى نموذجا غريبا من البشر لم اصادف مثله في حياتي . . . بل لعله أغرب نموذج التقيت به في الحياة ، ورغم أن والده كان من رجال الدين ورغم انه كان من بيت طيب الا انه لم يكن يشعر بخجل تجاه أى شيء . . . وكان يقبل القيام بأى عمل لرؤسائه حتى ولو تحول الى قواد دون أى غضاضة ! ورغم انه كان يصنع أى شيء وكل شيء الا انه لم يكن طماعا او طموحا . . . فلم يكن يهدف الى شيء الا ان يعيش في هدوء . وكانت كل امنيته في الحياة أن يعيش في شقة بمفرده . . . وان يصبح دخله ثلاثين جنيها كل شهر . وكان يتمتع بقوة ثور ولا يشكو من مرض على الاطلاق وكان يبدو لاهيا وسعيدا وبسوطا رغم المشاكل العديدة التي تلاحقه في كل مكان . . . ولقد تسبب في انقسام مروع داخل

الحزب وتسبب في طرد وكيل الحزب وعدد من أعضائه الكبار ، ولكنه لم يشعر بالذنب أبدا . وكان يلقي اللوم على عقلية زعماء الحزب التي لا تريد ولا تقبل أى جديد ولم يكن هذا الجديد سوى شقة استأجرها علوى فى ميدان شهير وكان وكيل الحزب يتردد عليها وكان علوى يتولى اعداد كل شىء من النساء الى الحمور الى الحشيش .

ومع النساء والحشيش كان وكيل الحزب يجمع انصاره داخل الحزب لمناقشة الامور السياسية ، ولاتخاذ موقف موحد يهدف الى النهاية الى خلع رئيس الحزب وبعض اعوانه ، وذات مرة تسلل واحد من انصار رئيس الحزب الى الشقة وصادق علوى واغدق عليه بالفلوس والهدايا وانبسط علوى شديد الانبساط ، وانشكع غاية الانشكاع وأطلعته على كل أسرارها ، بل جعله عمدة ، فى الحشيش . . . هو الذى يرص ، وفى الحمر هو الذى يصب ، وفى الليالى الطرية هو الذى يتولى كل شىء وهو الذى يفهم كل شىء . . . ودحرج علوى اكثر حتى ترك له مفاتيح الشقة ، وكأنه ترك مفاتيح الكرار للقط واهتبل القط الاسود - مع الاعتذار للاذاعة - هذه الفرصة وهبر من مكتب علوى فى البيت كل الاوراق المطلوبة وكل الوثائق التى تدين الوكيل والانصار والاخ علوى ولكن بقيت وثيقة واحدة ، وهى وثيقة هامة وحاسمة وفاصلة عند الحساب . ولكى يحصل رئيس الحزب وانصاره على هذه الوثيقة فلا بد من تعاون علوى معهم ، ولكن كيف ؟ وعلوى هو اليد اليمنى للوكيل المتمرد . وكانت مشكلة ولا مشكلة كوريا ، ولكن القط الاسود لم يكن من النوع الذى تقف أمامه عقبة أو يمنعه عن الوصول الى أغراضه أحدا ، خصوصا اذا كان هذا الاحد رجلا طيبا ومنهارا ومستعدا لاي شىء وكل شىء مثل الاستاذ علوى .

وفعلا تم الامر على خير ما يشتهى القط الاسود ، دفع للاستاذ علوى ببعض النقود وغمره ببعض الهدايا ويسر له كثيرا من الامور ثم اتفق معه على أن يسجل قعدة من هذه القعدات للسيد الوكيل وبطانته . وليه ؟ للذكرى وللتاريخ . ولكى تنفع عندما تمر أيام الحظ الحلوه ويصبح التسجيل هو الشىء الحى الباقى لايام الحظ الثانية !! وصادق علوى بالطبع !! وانبسط جدا

لهذا الاقتراح الرائع الذي يحفظ الذكريات والقعدات والسهرات
الطرية !!

ولكى يتم الامر على خير وجه ، قام علوى بالتسجيل لكى
يكون الامر كله مفاجأة للوكيل الطيب الساذج الذى أسلم
روحه ونفسه للاخ علوى !

و ذات مساء حافل رهيب . كان بيت علوى يشغى بالناس ،
سياسيون من عينة الوكيل ، وفتيات فى عمر الورود ، وشبان
كالغزلان وخمر وحشيش ، وكل مالد وطاب مما تعصر المعاصر
ومما تنبت الارض ، جلست الشلة والتسجيل دائر ، علوى
مبسوط لأنه يعد مفاجأة عظيمة وحلوة ، والبيه الوكيل أيضا
مبسوط لأنه يسهر سهرة من سهرات العمر ! وتطرق الحديث خلال
السيرة الى السياسة ومن السياسة الى المؤامرة ! وخلال الحديث
ضحكات وهمسات وقرصات مفيش بأس ..

وانتهت السهرة ، وانتهى الرجل الطيب .. وعلى صوت
التسجيل الدائر فى مقر الحزب ، استطاع رئيس الحزب اليقظ
المدرّب الوصول الى خلع الوكيل والانصار والاخ علوى ..
وكانت التهمة الموجهة اليهم جميعا هى خروجهم عن الحلق
اللائق ، وارتكابهم ما ينجل وما يشين دون وازع من دين أو
ضمير .. وتكرر اسم علوى فى بيان الحزب أكثر من مرة ..
ومع ذلك كان شديد الاصرار على أن الامور يوما ستستقيم ،
وانه يوما ما سيعود على رأس الحزب من جديد !



ثلاثة شهور وأنا في دار الهلال أكتب للمحررين وأقبض منهم ولا احد يدري في الدار . وكان فهمي بك مدير التحرير يلتقي بي أحيانا فتبدو عليه الدهشة لأنني لازلت مقيما في الدار مع اني لا اتقاضى شيئا . ولو كان فهمي بك يقوم بعمله على خير وجه ، لاكتشف أن كل أعمال الاستاذ علوي الجديدة بخطي وكذلك أعمال الاستاذ الآخر صديق المؤلف تاجر الفراخ ! ولكن فهمي بك لم يكن يؤدي عمله على الوجه الاكمل ، وكان يترك عمله في الدار لبعض المساعدين ، متفرغا في النهاية لقبول الهدايا من المحررين ولعب التمار في الليل والسهرة في الشاليه الذي كان يملكه محرر في شارع الهرم على ربوة عالية تطل على قرية نزله السمان . وفي هذا الشاليه البعيد عن العمران وعن المدينة ، كان فهمي بك يسهر أحيانا وسط شلة من بنات الكومبارس في المسرح والسينما . وكان علوي يحضر أحيانا هذه السهرات ، وكان يحكي دائما في الصباح لكل من يلقاه عن أدق تفاصيل السهرة ، وكان يبدو عليه الغيظ الشديد لأنه لا يملك شاليه من هذا الطراز ، وكان

يحلم دائما بأن يصبح له شاليه يوما ما . وعندئذ يستطيع تحقيق أحلامه في عالم الصحافة ، ويضمن الاستقرار الذي ينشده منذ زمن بعيد . وذات صباح ذهبت الى دار الهلال على غير العادة وكانت الحجرة خالية ولا أحد هناك . وكنت أشعر بقلق بالغ لأدري سببه ورحت أتمشى في الحجرة جيئة وذهابا كأنني نمر هائج في قفص في حديقة الحيوان . وفجأة دخل الحجرة رجل مهيب يرتدي بنطلونا وقميصا من حرير ويرتدي فوق كم القميص كما آخر من قماش رخيص أسود اللون ، ثم نظر نحوي وأجال بصره في أرجاء الحجرة ، ولما لم أكن أعرف ما هو هذا الرجل الغريب ، فقد جلست على المكتب الذي كان بالقرب مني لحظة دخوله الحجرة . ولكن الرجل أبدى دهشة بالغة ارتسمت على قسماط وجهه لجلوسى فوق المكتب ، وكأننى ارتكبت عارا لم يرتكبه أحد من قبل ، واقترب مني في خطوات بطيئة وأشار نحو المكتب وسألنى في غرور ولاغرور حكمدار يسأل بائع لبن غشاش .

• ايه ده ؟

ولما كان اصبعه اتجه نحو المكتب فقد اجنبه على الفور :

• دا مكتب ..

وبنفس الطريقة أشار نحو الكرسي وقال :

• وايه ده ؟

ولما كان اصبعه مد اتجه نحو المكتب فقد أجبتة على الفور :

الفور ..

— دا كرسي

وقال الاستاذ المهيب وكأنه اكتشف سر الحياة فجأة :

— والناس بتقعد ع الكرسي والا ع المكتب ؟

وقلت أنا ببلاهة وبدعم مبالة .

— ساعات تقعد ع المكتب ، وساعات تقعد ع الكرسي .

وهز الاستاذ رأسه ، ثم سألنى عن اسمى قبل أن ينصرف

وبعد لحظة حضر فراش نشيط وأبلغنى أنتى مطلوب حالا لمقابلة

الاستاذ الجريدينى ولم أكن أعرف ما هو الجريدينى هذا كما لم

أكن أعرف أى شئ عن مهنته بالضبط . وعندما ذهبت لأكلم

الجريدينى ، اكتشفت أنه يجلس في حجرة من زجاج كأنه

سلعة معروضة للبيع في محلات عمر فنلى ، كانت الحجرة

الزجاجية مستديرة وتتوسط قاعة كبيرة لكي يتمكن الاستاذ الجريديني هذا من القاء نظرة شاملة على كل ماحوله ، ولم يكن حوله شيء يستحق النظر ، فقد كان كل من حوله عدداً من الموظفين الغلابا العجائز ، هم كل موظفي الارشيف والادارة في الدار واقتحمت الباب وقد نويت شرا ، فأنا الآن شديد الزهق شديد الغلب ، ودار الهلال أصبحت جهنم الحمراء بالنسبة لي ، فلا أنا محرر فيها ، ولا أنا أستطيع الاستغناء عنها ، ولا أنا أبحت لنفسي عن عمل آخر . ووقفت أمام الجريديني وقد اتخذت موقف المتحدى ، وسألني الاستاذ وقد راح يترجع على مقعده الهزاز الدائري .

• أنت بتشتغل ايه هنا يا استاذ ؟

• محرر .

وقلب بين أصابعه عدة أوراق اكتشفت من القاء نظرة عليها انها الدوسيه الخاص بي ، وقال وأصابعه تعبت في الاوراق :
• لكن دا أنت بقالك كام شهر مالكش انتاج .
• أصلي زهقان

ورفع الجريديني رأسه وألقى على العبد لله نظرة فاحصة وقال وهو شديد الدهشة :

• زهقان ؟ زهقان من ايه ؟

• ماليش نفس أشتغل .

• حضرتك مؤهلاتك ايه ؟

• مهندس !!

• مهندس .. أتفضل ..

وأشار الجريديني الى المقعد الوحيد في الحجرة ، وعلى الفور جلست ووضعت ساقا على ساق ، واندھشت جدا لتصرف هذا الابله المعتوه الذي أقعدني بشدة لمجرد كذبة حمقاء بأنني مهندس . مع أنني أعمل في دار المفروض أنها تنتج الثقافة والفن والإدب !

وتبسط الجريديني معي في الحديث وسألني في ود بالغ :

• و حضرتك خريج جامعة فؤاد ؟

• لا أنا خريج جامعات ألمانيا .

• ماشاء الله ... وبتعرف ألماني ؟

• طبعا ..

• وتخصصك ايه يا أستاذ ؟•

• مبانى ..

• عال قوى ، طيب دناهاحتاجك قريب، أصل عندنا مشروع
عشان دار الهلال ، ايه رأيك يااستاذ تبقى تتعاون معانا •

• اذا كان هناك فرصة

• طيب أنا آسف على الى حصل منى • أنا ما كنتش اعرف
سعادتك •

وضغط الجريدينى على الزروطلب للعبد لله واحد قهوة مضبوط
وانتشرت فى الدارحكاية لقائى بالجريدينى ، وهرع أكثر المحررين
ليتفرجوا على العبد لله وهو جالس مع الجريدينى ساقا على
ساق وكاعب السيجارة فى فمه ولا رئيس تحرير الاهرام ..
وسرعان ما انتشرت اشاعة فى أنحاء الدار أننى مرشح لوظيفة
هامة فى الدار واننى على وشك أن أكون سكرتيرا للتحرير فى
احدى المجلات ! وهكذا أدركت من انتهاء المقابلة أن الجريدينى
هو أهم رجل فى الدار بعد أصحابها بل هو أهم من أصحابها ،
وانه شقيق المستشار القانونى للدار ، وانه ثرى أمثل ، وانه
مدير عام الدار ، وانه يتدخل فى كل شىء ، فى الادارة والاعلان
والتحرير أيضا !

ولو أردت أن أمضى فى هذا الشوط الى النهاية لكان لى ما أردت
ولكنى كنت زهقانا من دار الهلال الى الحد الذى لم يكن فى
استطاعتى أن أمضى داخلها وقتا آخر • وكان شىء جديد آخر
قد حدث داخل الدار ، فقد عين حديثا مديرا للتحرير طالب فى الجامعة
الامريكية • وكان شابا طيبا وساذجا وعديم الخبرة • من أول
لقاء بينى وبينه أدركت أنه تعلم كل شىء عن الصحافة فى
أمريكا ، ولكنه لم يكن يعرف حرفا واحدا عن الصحافة فى مصر •
ولقد اوصانا جميعا فى أول اجتماع بالاتجاه الى الترجمة •
ولم يكن يدري أن كل المحررين لا يعرفون حرفا واحدا من الانجليزية
وان كل معلوماتهم فى الانجليزى ، انه عسكرى احتلال موجود
فى مصر ! كما اننى تضايقت أكثر من تصرفات ولد نصاب اسمه
السرساوى ، كان وجهه مثل وجه الخنزير الحديث الولادة
وكان من النوع الذى تكتشف محاسنه عند أول نظرة ثم تقضى
العمر كله تحصى عيوبه دون جدوى ، وكان يمتاز بمواهب عتاة
المجرمين ، فلا يفعل ولا يغتاز ولا يحتج أبدا • وكان خبيرا فى

التغريير بالفتيات وكان يسلبهن نقودهن وحليهن ثم يفر منهن في النهاية . ولكنه كان موهوبا وكان صاحب اسلوب مشرق وذكي ولو أنه استغل موهبته الفذة في موضعها الصحيح ، ولو أنه تمسك بعض الشيء بالقيم والشرف والامانة والصدق لكان اليوم علما من اعلام الحياة الصحفية والادبية في مصر . ولكنه لمع فترة ، ثم اختفى قبل الاوان ، ولقد قضى الناس عليه ، ولكنه قضى على نفسه اولا ، واحترف الكذب في النهاية ولم يسلم رجل شريف واحد في مصر من لسانه ، ولكنه كان صديقا لكل المرتشين والمنحرفين واصحاب السلوك والسمعة المشينة . وعندما التقيت به اول مرة ادعى أنه ينشئ دارا للنشر . وانه اشترى كتباً من العقاد والحكيم وطه حسين . وانه ينوى اصدار كتاب لي في السلسلة الادبية الكبرى أو هكذا سيطلق عليها ! وفي النهاية طلب مني عشرة قروش فكه لان كل النقود التي معه اوراق من فئة العشرة جنيهاً ! وفي دار الهلال أيضا التقيت بمحرر آخر مدعى وجاهل وحقير غاية الحقارة ، وكان اسمه سعد الكاتب ولكنني اكتشفت أنه ليس اسمه . وانه اضطر لكي يطلق على نفسه صفة الكاتب ان يغير شهادة ميلاده ، وكان يكتب قصصاً خرافية على شاكله قصص طرزان وكان مغرورا الى الحد الذي تصور نفسه فيه اعظم كاتب انجبت مصر ، وكان جاهلا الى الحد الذي لم يستطع فيه ان يكتشف عظمة نجيب محفوظ ، مفضلا عليه هلفوت مثله اسمه عزيز حب الرمان ! ولقد ظل عزيز هذا متصورا لفترة طويلة من الزمان أنه انبغ ما أنجبت مصر من الكتاب حتى قرأت خبرا ذات مرة عن انتحاره ، ثم فوجئت به بلحمه ودمه يقتحم على مكتبي في احدي دور الصحف ، وعرفت انه لم ينتحر . ولكنه هدد فقط بالانتحار لضيق ذات اليد ، ثم طلب مني أن أجمع له من المحررين زملائي عشرة جنيهاً اعانه ، وهددني بأنه سينتحر اذا لم يحصل على هذه النقود !

شيء آخر جعلني افر من دار الهلال ، فقد ارادوا تطعيم الدار بدم جديد من الشباب يتولى المسئولية في مجلة جديدة . واختاروا فعلا أحد الشباب الذين دخلوا الدار مع فوج المحررين البائسين الذي كنت أنا احد افراده ، وكان المحرر الذي وقع الاختيار عليه ليكون أول مدير تحرير للمجلة الجديدة يدعى

منير وكان أكثرنا وسامة وأكثرنا أناقة وأكثرنا جهلاً . .
وأغرب شيء أن هذا الدم الجديد لم يكن جديداً على الإطلاق ،
ولكنه كان أكثر فساداً من الدم القديم . . فلقد حول
المجلة إلى بورصة للسمسرة وجعل صفحاتها معروضة للبيع ،
وللايجار . . وقام فترة توليه مسئولية التحرير التي امتدت
زمناً طويلاً في منزل أحد المطربين المشهورين بالبلاهة والغباء .
وكان يوم اختيار منير . . هو أول أيامي في دار
الهلال . فلقد اكتشفت أنني لكي أشق طريقى في الدار فلا بد
أن أكون من طراز منير . ولما كنت عكسه تماماً ، فقد كان المستقبل
شناً أمامي ، وإن على أن أهجر الدار قبل فوات الأوان ، ولقد
هجرتها فعلاً . . ولكن إلى أين ؟ كان البحث عن مكان آخر هو
مشكلة حياتي ! كان في السوق عدة جرائد ومجلات صغيرة
مثل الحوادث والخبر والصباح والغريب والشباب ، ولكنها
جميعاً كانت مفلسة وكانت لا تدفع نقوداً لأحد . وكانت هناك
الجرائد اليومية الكبرى ، ودخولها أصعب من دخول الجنة ،
ثمّة مجلة أخرى كانت في السوق وكانت تتأرجح بين الانتشار
وقلة التوزيع وكانت وفدية يشرف عليها أحد نواب الوفد وهو
في الوقت نفسه شقيق أكبر مسئول في الحزب ! وكانت
المجلة تستكتب عدداً من كبار الكتاب مثل طه حسين والدكتور
مندور وسلامة موسى وعزيز أحمد فهمي ، وكان يعمل فيها
مجموعة من الشباب الناضجين وعدد من الصحفيين القدامى
وكانت تصدر مجلة أسبوعية أدبية يتولى رئاسة تحريرها
الدكتور إبراهيم ناجي ويعاونه عدد من الأدباء الشباب
سيحتلون فيما بعد صدارة الحياة الأدبية والفنية بعد ذلك .
ولقد اخترت هذه المجلة بعد تفكير شديد ولعدة أسباب . أولاً
لأنها المجلة الوحيدة التي يمكن العمل فيها والتي يمكن في
الوقت نفسه الحصول منها على بعض الجنيهات كل شهر . وثانياً
لأن رئيس التحرير كان صديقي ، وكان رجلاً طيباً وخدوماً
واستطاع أن يحتفظ بنقائه وسط غابة الصحافة الشريرة . .
كان قاسم جودة هو رئيس التحرير ، وكان قاسم في بداية
حياته صحفياً لامعاً وشاباً وفدياً متحمساً ، ثم انشق على الوفد
مع مكرم عبيد واشترك في وضع الكتاب الأسود ، وهو موقف
خاطئ دفع مستقبله ثمناً له . فلقد كان حزب الوفد حزباً
شعبياً وجماعياً ومناضلاً ضد الاستعمار وضد الطغاة من أسرة

محمد علي ، وكان أيضا حزبا فاسدا ومنخورا من الداخل ، ولكن كان ورغم ذلك من أعظم الأحزاب اثوجودة ، وأشدها صلابة وأكثرها التصاقا بال جماهير وتعبرا عنها .

وكان الكتاب الاسود صورة صادقة لفساد الوفد ولكنه كان مصلحة من هم أكثر فسادا ، وكان يخدم في النهاية مصالح الاستعمار والقصر ! ولقد كان مكرم عبيد رجلا صادقا ولكنه كان رجلا منفعلا ، ولقد استطاع القصر وبطانته التأثير عليه في لحظة انفعال فخرج على الوفد محاولا طعنه بشدة ، ولعله أفاق بعد ذلك بسنوات ليجد نفسه وحيدا وقد خسر اكبر سند له في حزب الوفد ، واكتشف انه وقع فريسة في يد الملك واحزاب الاقلية ، ولعله اراد ان يكفر عن خطيئته بالعودة الى حزب الوفد ، ولكن الوفد كان لا يرحم من يخرج عليه ، ولا يقبل بين صفوفه مرة اخرى من يطعنه في ظهره . وكان الوفد هو الشعب كله ، ولكن بلا تنظيم ولا جهاز يحرك قلبه ولقد ظل سنوات طويلة ينبض بالحرارة ولكن دون حركة ، ورغم ضعفه ، وشيخوخته فقد ظل هو الممثل الطبيعي والحقيقي للشعب المصري الى أن قامت الثورة ، وكل الذين خرجوا عليه ذهبوا الى النسيان وكنسهم التاريخ في ترابه ولعل قاسم جوده قد أفاق لنفسه هو الآخر ، فعاد الى حزب الوفد ولكن من الباب الخلفى وكانت مجلة النداء هي الباب الخلفى الذى دخل منه قاسم !

وعندما ذهبت اليه في قهوة الانجلو اطلب عملا استقبلني بحفاوة وصافحني وطلب لي زجاجة بيرة وجلس يسألني عن احوالى ، وحكى لي ما عاناه في دار الهلال ، وما جرى فيها من مآس ورسم على شفتيه علامة ازدراء كبرى وقال وقد اكتسى وجهه بحمرة فاقعة :

• تعرف • • • • • الدار دى مش بتاعة صحافة • • دى كان لازم تكون متحل خردوات زى محل عمر أفندى •

ثم طيب خاطري ووعدنى بالبحث عن عمل لي في مجلة النداء في أقرب فرصة • وطلب منى أن أمر عليه مرة أخرى في القريب وهكذا اضطرت الى البقاء في دار الهلال فترة أخرى في انتظار أن يحقق قاسم جودة وعده ، وفي خلال تلك الايام التى قضيتها في دار الهلال انتظر ، تمردت على المحررين الذين اكتب لهم وطلبت رفع السعر الى الضعف ، فوافق الاستاذ صديق المؤلف

الفرارجي ، ورفض الاستاذ علوى لضيق ذات اليد ، ولكنه لكي يغريني على التعامل معه دعاني الى الغداء عنده في المنزل . وكان يسكن في حي طولون ، وفي حارة ضيقة تقع على دحديرة خلف المسجد ، وكان البيت قديما تقوح منه روائح عطنة ، وتتزاحم البيوت في الحارة وتتشابك ويتداخل بعضها في بعض ، حتى أنني كنت اسمع الجيران يتكلمون في البيت الرابع ، وعندما أصبحنا داخل الشقة انشغل علوى بإعداد طعام الغداء ، وبعد أن انتهينا من الطعام نهض ليعد لنا الشاي ، ثم فتح الباب وراح ينادي بصوت مزعج ، وسرعان ما لبى ندائه صوت نسائي فيه بحة ولسعة نفدت الى عظامي . ولم تلبث صاحبة الصوت أن اقتحمت علينا الشقة في جراءة ، وقد ارتدت قميص نوم رخيص وأرسلت شعرها الاسود الناعم خلف عنقها وعلى كتفها وكانت جميلة رغم فقرها وجسمها يكاد يبرز من القميص الرخيص الذي ترتديه ، وصدرها بارز بشكل مثير ، حتى خيل الي أنه يبرز بعوامل صناعية ، وعندما صافحتها في أدب غضضت بصرى خجلا ، ولكن علوى مد يده وعبت في صدرها أمامي وقال وهو يضحك :

• بذمتك مش سعاد تنقع في السينما
ولما امنت على كلامه ، سالتني في لهفة :
• صحيح والنبي ..

تم جلست تحكي لعلوى ماحدث لها بالامس وكان علوى قد أرسلها بتوصية خاصة الى مخرج صديقه لتعمل كومبارس في فيلم من الافلام . ولقد اشتغلت طول الليل مقابل جنيه ، وستذهب مرة اخرى مساء الغد ، وستعمل معهم لمدة أسبوع وستلهم عشرة جنيهات كاملة . وقالت لعلوى بعد أن انتهت من قصتها وهي تضربه بيدها على رأسه :

– اكتب عني بقي

وأشار علوى نحوي وقال :

– ده اللي هيكتب عنك ، صحيح هو صغير كده لكن ده رئيسي في الشغل .

ونظرت البنت نحوى نظرة فاحصة أربكتنى ، وقالت وهى
تتقصع :

- رئيسك .. مش معقول ، انت عاوز تهرب منى ..

وقال علوى وهو يقسم بكل المقدسات •

- زى مايقولك كده • احكى له على قصة حياتك وهو

هيكتهها ، وهيطلع صورتك فى المجلة •

ونفض علوى وارقدى ملابسه ، ثم استأذن فى الانصراف
وخرج دون وداع ، واكتشفت أننى أصبحت وحيدا مع البنت
المستوية فى شقة علوى ، وأحسست بأننى ارتعشت كلى ..
وضربت معى لحمة فلم أعرف كيف أتصرف معها ، وفجأة ،
نهضت ، ومددت يدي أضافحها وأستأذن ، ولكن البنت
المجربة شهقت وتقصعت ، وضربت صدرها بيدها وقالت :

- ايه يادلعدي ، قرفت مننا والا ايه ؟ عامل بيه ؟ دانت
الى يدور عليك يلاقى الست أمك كانت غسالة •





كانت البنت مجربة وشجاعة وتتمتع بشخصية قوية
أجبرتني في النهاية على الجلوس في ركن الحجرة كاليتيم البائس
اعتذر لها بكلمات لامعنى لها . ولم اكن في الحقيقة اقصد
اهانتها ولكنى كنت انجو بنفسى من مواجهة موقف لم أواجهه
من قبل .

وجلست البنت بعد أن هدأت ثورتها تحكى لى قصة حياتها
وجلست انا أمامها اتصنع الاهتمام الزائد كمن سيكتب هذه
القصة يوما ما واكتشفت وهى تحكى أنها لا تحكى شيئا من
الواقع ، ولكنها تفبرك قصة صحفية سينمائية تصلح للشاشة
وفي نفس المستوى الذى شاهدته البنت فى أفلام تلك الايام .
وقالت أنها أحببت شابا طيارا يسكن فى حارتها ! مع اننى
أستطيع ان أقسم بأغلظ الايمان أن أحدا من سكان حارتهم لم
ير الطيارة فى حياته وان ركوبها بالنسبة لأى واحد منهم حلم
لا يتحقق الا بلاء الجن أو العثور على خاتم سليمان ! المهم ان
البنت وقعت فى غرام الولد الطيار والولد الطيار وقع فى غرام
البنت وأنهما كانا يقضيان أغلب الوقت فى حديقة الاورمان .
واحيانا فى حديقة الاندلس ، ثم وعداها بالزواج ثم سلبها أعز
ما تملك ، ثم يافرحة ما تمت خطفها الغراب وطار ، وطار الواد
الطيار ولم يعد ، سقطت به الطائرة واحترقت ، واحترق أهلها
الكبير مع الحطام !

ومن لحظتها أقسمت ألا تتزوج . وألا تحب ، فقد مات الذي كانت تحبه ، وهى لذلك تفتح ميدان العمل ، ولذلك أيضا اختارت السينما لكي تتمكن يوما من انتاج قصة حياتها على الشاشة ! واقترحت فى نهاية القصة أن أكتبها تحت عنوان « حب من غير أمل » ! ..

وقلت لها أنها قصة عظيمة ، وأنها ستحقق نجاحا لاحد له ، وأرباحا طائلة ليس لها نظير ! وقضيت لحظات سعيدة طيبة مع البنت ثم جلست أنتظر علوى وحيدا فى الشقة ، ولما يئست من حضوره انصرفت تاركا له ورقة بأبنى سألقاه فى صباح الغد ، ولقد استولت على الدهشة عندما التقيت بعلوى فى اليوم التالى ولكنه لم يفاتحنى فى شىء مما حدث بالأمس ! ولكنه قدم لى موضوعا لاعيد صياغته من جديد ثم استأذن فى الانصراف لأنه على موعد هام فى حزب النهضة .. وكان حزب النهضة حزبا نسائيا تديره امرأة قبيحة شمطاء .. وكانت تتخذ من شقة فى شارع دوبريه مقرا للحزب ، وكانت هذه الشقة ملتقى بنات الذوات ورجال السلك السياسى والمشتغلين بالصحافة والأدب والفن وكنت قد ترددت على هذا الحزب عدة مرات مع الرجل الطيب ، وتعرفت هناك على بنت اسمها تهانى كان أبوها تاجرا كبيرا فى وكالة البلج .. وكانت يتيمة وحزينة وشاردة على الدوام .. ولقد دعوتها ذات مرة على الغداء وجلست معها على شاطئ النهر ، وخيل الى أنها متيمة وأنها واقعة فى حب العبد لله . فضمامتها الى صدرى وطبعت على فمها قبلة . ولكن البنت التى ظننتها متيمة وواقعة فى حبى ، بكّت فجأة وعبثا حاولت أن أسكتها دون جدوى وعندما قمت معها لتوصيلها الى المنزل غادرت التاكسى دون أن تنظر فى وجهى . ولم أرها بعد ذلك أبدا ، ولم تعد تتردد على حزب نهضة مصر بعد ذلك .. وفى هذا الحزب تعرفت على بنت قبيحة عجفاء مشوهة كانت طالبة فى إحدى الكليات . وقد ظلت طالبة لمدة عشرة أعوام وقد وقع فى حبها اثنان من أصدقائى وكان أحدهما خياليا الى حد بعيد ، وكان الآخر عكسه تماما . ولذلك فاز الرجل الآخر بالبنت المشوهة ، وأثرت هذه الحادثة على قلب الرجل الحالم ، ولعلها لا تزال تؤثر فيه حتى الآن . ولقد عرفت البنت العجفاء أكثر شبان مصر وأكثر رجالها . وألقت بنفسها فى أحضان أجيال

متعاقبة . ولذلك ستجد في دفتر قلبها توقيعات بعض الشيوخ وبعض الرجال وبعض الشبان وبعض الصبيان أيضا . ولقد كنت أعجب كيف استطاعت بنت شكلها مثل شكل جسمها في حجم جسم ولد صايع يتسكع في ميدان الجيزة ، كيف استطاعت مثل هذه البنت أن تحصل على كل هؤلاء المعجبين ؟! ولقد ناضلت طويلا داخل هذا الحزب حتى وقعت ذات مرة في امرأة مناضلة من مناضلات الحزب ، كانت في الأربعين من عمرها ولكنها كانت تبدو أصغر سنا ، وكانت جميلة حقا وخفيفة الدم الى درجة تجعل من يراها مرة لا يستطيع أن ينساها أبدا .

وكانت متزوجة أكثر من مرة ولكن عندما عرفتها كانت وحيدة ، وكانت قد هجرت زوجها الاخير منذ شهر واحد . وحكمة الله أن جميع أزواجها كانوا من العجائز الاثرياء ولقد خرجت من كل صفقة زواج بربح مادي كبير ، فأصبحت هي الاخرى من كبار الاثرياء . وكان لها نفوذ كبير في دوائر الحزب ، فقد كانت تمدد بالمساعدات المادية . . . وكانت تقيم الولائم لعضواته ، وهي ولائم كانت تجمع بين الكرم والترف . وكانت هذه الحفلات السياسية الهامة فرصة للتعارف بين الجنسين ! وذات حفلة كنت أتوسط حلقة وكانت السيدة صاحبة البيت تجلس في ركن قريب ، عندما أصدرت فتوى خلاصتها أن المرأة تفقد سحرها بعد سن الخامسة والعشرين ، وكان رأيا فجا من شاب صغير عديم التجربة والخبرة ، ولكن المرأة الثرية المجربة أخذت المسألة مأخذ الجد فأقتربت مني وزجرتني بنظرة حادة ثم تجاهلتني بقية السهرة وقررت أنا أن أختفي من دار الحزب ، ومن حفلات السيدة الثرية . ولكنها التقت بي مصادفة بعد شهر ، وسألتني عن سر غيابي وأعطتني رقم تليفونها وعندما اتصلت بها دعتنى الى منزلها ، وسألتها في سداجة .

— هو فيه حفلة النهاردة ؟

وأجابت هي بالإيجاب ووعدتها بتلبية الدعوة . وحلقت شعري الذي كان يغطي قفاي كالخنفس . ولعت الحذاء مرتين وحرصت على أن أقترض ربطة عنق ملائمة . وتوجهت الى

الحفلة وفي نيتي أن أقع على صيد ثمين يعوضني جفاف الايام
التي مضت مني !

ولم أكتشف أنه لاحفلة هناك ولا يحزنون حتى بعد أن دخلت
المنزل ، وجلست وحيدا في حجرة الصالون أنتظر قدوم الست
المضييفة وعندما حضرت غندورة كالعهد بها ، رائعة الجمال
كأنها تمثال في متحف .. سألتها عن سر تأخر الضيوف
فقلت في بساطة :

— مفيش ضيوف غرك الليلة ..

وشعرت عندئذ أنني على أبواب مغامرة لذيذة ، وأنني مقبل
على القيام بدور لم يسبق لي القيام به من قبل !

وجلست أمامي. تصب خمرا في كأس وهي في ثوب شفاف
يكشف عن مفاتنها وراحت تتحدث حديثا فياضا في السياسة
والادب والعلم وسرعان ما طردت الحاطر السيء الذي راودني
وشرعت في الحديث بطلاقة ورحت أرغى كأنني بالمراديو
في أشياء شتى . ولكنها فجأة ضحكت وجذبتني من شعري
نحوها وانحنيت فقبلتني وقالت وهي تضحك .

— دمك خفيف يامضروب .

وانتهزت الفرصة كأي ساذج وجذبتها نحوي أنا الآخر ،
ورحنا نتبادل القبلات والعناق ! ولما كنت وقتئذ في العشرين
وهي في الأربعين فقد كنت أصدق منها في التعبير عما يجيش
بصدرى ، وكانت هي أقدر مني على قيادة نفسها بحكمة وحنكة
ومعلمة ليس لها نظير . وعندما هممت بها ردتني في لطف ..
ثم ردتني في عنف . وانكسفت كما بنت بكر فاجأها شاب
عابث في الطريق .. واعتذرت لها عن سوء سلوكي وقلة
أدبي وفساد ظني . وقبلت الاعتذار على الفور ثم فتحت حديثنا
آخر جادا غاية الجد ، ودخلت أنا الآخر في موجهة الجد التي
شملتها . ولكنها بعد قليل ضحكت ضحكة أشعلتني ثم مدت
يدها وقرصتني ومددت يدي أنا الآخر وبادلتها القرص ، ثم
احتضنتها بشدة وقبلتها كالمجنون ، ثم هممت بها ، ولكنها مرة
أخرى ردتني في لطف ثم ردتني في عنف ، ثم أنبتني بشدة
على مسلكي المتوحش .. واعتذرت لها مرة أخرى وجلست

مكسوفاً كتلميذ راسب عدة أعوام فى مادة واحدة ! وقبلت السيدة الكريمة اعتذارى ثم راحت تصب لى كأساً آخر ، ومع الكأس راحت تتحدث فى السياسة .

وتكرر المشهد بعد ذلك أكثر من مرة ، تبدأ هى بالمنغشة ثم أبادلها ثم أندفع أكثر ثم أقفز محاولاً الوصول الى آخر الشوط .. ثم تنهرنى بشدة وتتهانى بعنف ثم أجلس مكسوفاً وأعتذر .. وحتى الفجر كنت قد اعتذرت عشرين مرة ، وأدركت أننى لعبة الست الكريمة تلك الليلة ، وأنها ترد على رأى بأسلوب عملى لكى أتعلم الادب فى الحديث فى المستقبل . كان الفجر على الابواب عندما غادرت الفيلا سكرانا حزينا شديد الهم . مكسوفاً اكاد أطلب من الارض أن تنشق لتبتلعنى وتخفينى بعيداً عن الانظار ! ولقد ظللت أعواماً طويلة بعد ذلك أغض من بصرى كلما واجهتها فى أى مكان ، ثم تحاشيت لقاءها بعد ذلك ، ولم ينقذنى منها الا اختفاؤها هى نفسها من الحياة العامة . ولكن الدرس الذى علمتنى أياه كان رهيباً وقاسياً على نفسى ، ولقد أثر فى نفسى الى حد أننى جيت عدة سنوات عن أن أخطو الخطوة الاولى مع أى امرأة . وفقدت الثقة بنفسى الى حد أننى كنت أخشى مغازلة أى امرأة ولو كانت خادمة خشية أن ترفضنى بشدة ، ولم تسمح المرأة الحبيثة نفسى بالنسبة لها فقط بل أننى كنت أخشى النظر فى عينى أى سيدة فى حزب النهضة فقد كنت أعتقد أنها قصت قصتى لكل من تعرفهم ! وعدت الى دار الهلال مهموما قلقاً أريد أن أهرب من الدار ومن القاهرة كلها ، وخطر لى أن أغادر مصر كلها . ظهر مركب وفعلاً رحلت أسأل كل من ألقاه عن أسلوب العمل فى المراكب ! وهل أصلح أنا للعمل فى المراكب وخصوصاً وأننى معتل الصحة ؟ وهل يوجد على ظهر المراكب عمل خفيف لائق ؟ ثم تخليت عن هذه الفكرة عندما استطعت أن أمسح من ذاكرتى أحداث تلك الليلة الغريبة . ولكن علوى لم يقطع صلته بحزب النهضة كما أنه كان على علاقات وثيقة ومتينة بكافة الاحزاب النسائية فى مصر وكانت هذه الاحزاب هى المنجم الحصب الذى يحصل منه علوى على المواد الخام لسهرات الشاليه الذى يقع فوق الربوة عند الهرم .. وكانت سيدات السياسة المصرية يشعرن حقاً بالسعادة لأنهن سيقضين السهرة مع بعض

رؤساء التحرير والمحربين المسئولين في صحف دار الهلال !
ولقد طلبت من علوى أن يصحبني معه مرة في إحدى هذه
السهرات ، ولكنه فتح فمه ونظر نحوي بدهشة وكأنني
مجنون . . وقال وهو يمسكني من كتفي ويهزني بشدة . .
— أنت عاوز تخرب بيتي ، دا فهمي بك لو شافك هيرفدني ،
دى قعدات خاصة ومقفولة . دا فهمي بك لو عرف اني بقولك
يرفدني . . يا خبر أسود ، دا أنت باين عليك مجنون .

ولم يدرك علوى اننى لم اكن أعرف حقيقة ما يدور في الشاليه
منه وحده . . لقد كنت أعرف الحقيقة كاملة من أكثر من مصدر ،
كان علوى خفا هو أهم مصدر ، ولكن كانت هناك مصادر أخرى
غيره ! وكانت أخبار هذه السهرات منتشرة في المدينة في الوقت
الذى كان فهمي بك يظن فيه أنها جلسات مقفولة وخاصة .

وفي هذه السهرات كان فهمي بك يلعب القمار مع شلة
المحربين أصدقائه . . وكان هؤلاء يتعمدون الخسارة ليكسب
وكانت هذه الخسارة بمثابة رشوة لفهمي بك لكي يرضى
ولذلك وصلت مرتبات بعض هؤلاء المحربين الى مائتى جنيه في
الشهر ، وهو مبلغ يفوق ستمائة جنيه من عملة هذه الايام
ولقد بلغت بى السذاجة حدا جعلنى أحاول الثورة ضد نظام
العمل في دار الهلال وفعلا فاتحت عددا من المحربين المضطهدين
بضرورة رفع أصواتنا بالشكوى من نظام العمل في الدار .
وطالبت بأن يكون هدفنا الغاء نظام القطعة ووضع مرتبات ثابتة
حتى لا يكون هناك مجال لاي تلاعب ، وللقضاء على نفوذ رؤساء
التحرير ومديرى التحرير ولقطع الطريق على الرشوة
والمحسوبية واتخذت من مقهى فى الجزيرة مكانا للقاء واعداد الثورة
المنتظرة وهجم على المقهى عدد من المحربين لم أكن انتظر منهم
استجابة لهذا العمل الذى ننوى القيام به بالمرّة وظننت اننى
قطعت شوطا بعيدا فى سبيل تحقيق الاحلام ، وفى هذه الجلسات
التي كنت أعقدها كل مساء فى القهوة قلت كل ما اعرفه مما
يدور فى الشاليه ، والكرافات التي طلبها منى صديق رئيس
التحرير والموضوعات التي أكتبها باسم ميخائيل وعلوى . .
وبدلا من أن تكون هذه الاسرار والاخبار وقودا للثورة المنتظرة
اكتشفت أن أسرارى كلها واخبارى كلها تصل الى فهمي بك
أولا بأول . . وأنه يعلم خطواتنا كل ليلة بدقة أكثر من الدقة

التي يعلمها بعض المشتركين في الثورة .. أغرب شيء ان
السذاجة بلغت بنا حدا لم نكتشف معه أن بعض هؤلاء الذين
أخذوا يترددون على المقهى ويحضرون جلساتنا ويشتركون في
المناقشات معنا ، كانوا من بطانة فهمي بك .. وكانوا من
سماسرته .. وانهم من جلسائه كل ليلة في الشاليه ، ومن
المشاركين معه في الحوار السياسي الذي يدور كل ليلة مع سيدات
السياسة المصرية ! ولكن هكذا شاعت الاقدار لنا .. أو ان
شئتم الدقة هكذا شاعت غفلتنا وسذاجتنا وعدم خبرتنا بالحياة
وبالناس ! وذات صباح ، فوجئت بالبواب يمنعني من دخول
الدار . واكتشفت ان على الباب ورقة معلقة من الادارة تعلن فيها
أنه ممنوع دخول غير المحررين المدونين في الكشف الرسمية .
ودخلت في حوار مع البواب ثم في عراقك .. وأصررت على الدخول
لاجمع أشياء التي في الدار ، رغم أنه لم يكن لي شيء في الداخل
على الاطلاق .. ولقد سمحوا لي بالدخول مع أحد الموظفين لاجمع
حاجياتي المزعومة . ولما لم يكن لي أي شيء هناك ، فقد اتهمت
الدار بالسرقة ، واشتعت جوا من الصخب والضجيج في أنحاء
الدار .. وانتهى صخبى بالخروج مطرودا في صحبة الموظف
حتى الباب ..

وتذكرت بعد أيام وانا جالس على المقهى في الجيزة وعد قاسم
جودة .. فقامت اسعى الى مجلة النداء .. واستقبلني قاسم
بحفاوة .. وقال وهو يهز ذراعي في حماس :

— انت فين ياراجل ، دنا بادور عليك ، خلاص يا عم مبروك
المدير وافق أنك تشتغل بمرتب عشرة جنيه في الشهر .

وكان هذا هو أعظم خبر سمعته في حياتي .. هأنذا بعد تعب شديد
أصبح لي مرتب ثابت ووظيفة معينة .. وهأنذا الآن استطيع
أن أكتب في هدوء وأن أنشر على مهل ، وأن أرتب حياتي في
حدود المبلغ الذي سأقتاضاه .. وقررت أن أبذل أقصى جهدي
لكي ارد لقاسم جوده جميله الذي يطوق عنقي وان اثبت للجميع
أن موقف قاسم مني لم يكن مجاملة وانما لانني استحق هذا واكثر

منه بكثير ! وجاءني رجل عجوز من محرري المجلة القدامى ونصحني بأن اتجه الى الحصول على الاخبار لانها الصحافة الحقيقية ، وقال دعك من كتابة الموضوعات انها لا تضمن العيش حتى لاكبر الادباء .. وضرب أمثلة عديدة بإبراهيم عبد القادر المازني والشيخ عبد العزيز البشري والدكتور زكي مبارك . وقال الرجل العجوز وهو ينصحني .. الكاتب كالفراش كلاهما يمكن الاستغناء عنه في أي لحظة . ثم نهض واتجه الى مكتب آخر أمامي وجلس وبسمل وحمد الله ، ثم اخرج أوراقا بيضاء من مطروف



كان يحمله تحت ابطه . . ثم انهمك في الكتابة ولكن بصعوبة .
بدت من خلال توقفه الطويل احيانا . . وكان يلحق شفتيه خلال
هذه الفترات ويضغط على جبهته بيده . ويخبط على المكتب
خبطا شديدا . . وبعد ساعات نهضت من مكاني واقتربت
منه ، والقيت نظرة على الورق الذي أمامه . . كانت صفحة
واحدة مكتوبة وتحت عنوان كبير . . « حديث مع الشنقيطي »
وكلاما فارغا كثيرا ليس له معنى . . واسلوب مثل اسلوب
تلاميذ المدارس . . وعندما اكتشف وجودي فوق رأسه ، نظر
نحوي ثم نظر نحو الورقة التي أمامه وقال وهو يهز رأسه :

— أهى دى الكتابة ، دى الصحافة اللى تأكل عيش . .

وهزرت رأسى موافقا وانصرفت .



كانت مجلة النداء أشبه بسوق الثلاثاء ، كل شيء فيها معروض للقراء . . كل شيء وكل لون وكل صنف ، وكانت مرآة صادقة لحزب الوفد ، وكان حزب الوفد قد بلغ حدا من القوة جعل كل الشعب فيه ، وكان أيضا قد بلغ حدا من الضعف جعل كل المتناقضات داخله . .

وعلى صفحات النداء مثلا كان ينشر سلامة موسى مقالاته عن العلم ، وكان عزيز أحمد فهمي ينشر مقالاته في عالم الخرافة والهيلولة التي على قفا الشفق . وكان عزيز أحمد فهمي نموذجا حيا على فساد العصر . كان عندما التقيت به حطام انسان مدمن على كل انواع الحشيش والافيون . وكان يأكل الحشيش علنا وكان يدعى أن بلسانه مرضا خبيثا لا يشفيه الا المخدرات . وكان قبيح الوجه الى درجة لا تطاق ، شعر رأسه تساقط منذ زمن بعيد ، وفمه المفتوح دائما يشبه قبراء مهجورا نبشته الذئاب . وقد تتضح أبعاد المأساة أمام الناريء اذا علم أن عزيز أحمد فهمي كان منذ عشرين عاما سابقة على ذلك العام الذي التقينا فيه ، كان ألع وأجمل شباب في مصر . وكان كاتبا فريدا من نوعه . وكان صاحب أسلوب لإذع للغاية ، ساخر غاية السخرية وكان عدوا للوفد . شن حملة هوجاء ضد الوفد ورئيسه ، جعلت بعض الألازميش يدبرون له كمينا دخل بسببه السجن . . وكانت

التهمة الموجهة له : احراز المخدرات • وخرج عزيز من السجن
شخصاً آخر • تحول الكاتب اللامع الساخر العظيم الى شخص هلامي
وعلى باب الله • منظره منظر شحات وعقله عقل مجنوب
وتصرفاته تصرف مدمن أهلكته المخدرات ! وراح يتدحرج شيئاً
فشيئاً حتى وصل الى القاع •

وعندما وصل الى مجلة النداء كان قد سقط من القاع الى شيء
ينسبه الفضاء ، وراح يدور مع الريح مغنى عليه حتى غادر الدنيا
ذات صباح في حجرة عارية من الاثاث في زقاق مظلم بارد كئيب •
ولحظة صعود روحه الى خالقها لم يكن معه في الحجرة سوى قطعة
مريضة كانت تربطه بها صلة صداقة عميقة امتدت عدة سنوات •

وكان سلامة موسى نموذجاً آخر لفساد العصر ولكن علي نحو
آخر • كان واسع الثقافة ، وصاحب موقف اجتماعي ، وكان
شديد الثورة على كل القيم البالية والمقدسات القديمة ، ولكنه
كان يكتب في النداء أي كلام ، ويقبل أي معاملة نظير حفنة
جنيهات لا تزيد عن عشرة ، وكان هو في غنى عنها تماماً
اذ كان ميسور الحال قليل النفقات ، لا يدخن ولا يسهر ولا
يشرب الخمر •

ولقد تعجبت من مسلكه هذا وتعجبت أكثر لهذا الرجل
المثقف الى هذا الحد ، الذي كان في أعماق أعماقه متعصباً الى
هذا الحد •

ولعل هذا نفسه هو الذي دفعه في نهاية حياته الى العمل في
دار صحيفة كبرى كان يناصبها العداء ويهاجم أفكارها بشدة
ولعله نفس الموقف الذي دعاه في النهاية الى أن يكتب كلاماً
كان يرفضه ويحاربه من قبل •

والى جانب هؤلاء الاعلام كان يعمل عشرات الأرزفيه هم
في الاصل محاسبين بعض الشيوخ والنواب المحترفين وكان
يعمل أيضاً عشرات من الصحفيين المحترفين يكتبون ما يطلب
اليهم بالاجر ولم يكن لهؤلاء أدنى اهتمام بشيء ، وكان كل
همهم تحقيق مصالح شخصية على حساب المجلة •

وكان فيها أيضاً شباب يتفجرون بالحماس والنشاط • وفي
أدمغتهم تدور أفكار جديدة ، ولديهم طموح من نوع خاص •

كانت جريدة النداء اذن عالما خاصا مستقلا ، ولم يكن لها
تَظير بين دور الصحف الاخرى ، وكانت شيئا وسطا بين دار
الهلال ومسامرات الجيب . فهنا محررون محترفون يعملون
بالاجر وهنا أيضا صياغ وعلى باب الكريم ، وهنا أساتذة
وأصحاب رأى علموا الاجيال المتعاقبة ، وهنا كل شيء وأى شيء
يحتفظ بالشكل أما الجوهر فلا شيء . بهم .

الجريدة تظهر كل أسبوع كالمعتاد ، والمحررون يعملون كل
يوم كالمعتاد ، ومع ذلك فليس للمجلة قارئ واحد مواظب ،
وانما تقع فى أيدي القراء مصادفة وتمضى بهم ولا تؤثر فيهم .

ورغم أننى نشرت فيها عشرات المقالات خلال شهر واحد ،
الا أننى لم اسمع من احد على الاطلاق كلمة استحسان واحدة ،
أو كلمة استهجان واحدة . أغرب شيء أن المحررين انفسهم لم
يكونوا من قراء المجلة ، وكان يوم الصدور بالنسبة لهم يوم
عيد لا شيء الا لانه يوم الاجازة !

وكان أمام باب المجلة يقال نشيط كل بضاعته جينة وطرشى
وعيش بلدى ، وكانت مرتبات المحررين تذهب كلها الى هذا البقال
فقد كان أغلب المحررين عزاب ولم يكن لهم بيوت وكان كل
طعامهم من عند البقال ، ولما كانت الجينة والطرشى تقطع القلب
وتحتاج الى شاي ثقيل ليقتل سمها فقد توسع البقال فأصبح
بقالا وقهوجيا ، ولما كان الشاي بعد الجينة يحتاج الى تدخين
سجاير ، فقد توسع البقال فأصبح تاجر سجاير أيضا . .

من خلال الجينة والشاي والسجاير استطاع البقال ان يستولى
على مرتبات المحررين كل شهر ، واصبح التعامل بينه وبين
الادارة مباشرة بعد ان تكررت مماثلة المحررين وزوغانهم
أول الشهر ، واستطاع أن يصل الى اتفاق مع الادارة للحصول
على الديون بشرط ان يقدم أوراقا بامضاء المحرر .
ولقد تطورت تجارة السيد البقال تطورا خطيرا بعد ذلك
فأصبح يبيع الحشيش والافيون . واغلب الاوراق الممضاة من
المحررين التى قدمها البقال للادارة كانت ثمننا لهذه الاصناف
المنوعة .

ولكن أغرب شيء وقتها خلال الشهر الذى قضيته فى المجلة
هو ان محررا طيب القلب استطاع العثور على حجرة مهجورة

فوق سطوح المجلة ، واستطاع الحصول على سرير سفرى صغير واحتل الحجرة دون علم احد ، واصبح يبيت فى المجلة كل ليلة وكان يمكنه الاستمرار دون أن يدري احد ، لولا حادثة وقعت ذات مساء عندما حضر ذات ليلة الى المجلة ومعه فتاة كومبارس ، وسمح له البواب باصطحابها ، ثم اغلق البوابة وصعد هو الآخر الى السطح معللا النفس بقضاء سهرة لطيفة . غير أن المحرر رفض ان يشارك البواب فى قضاء السهرة ، ونهره بشدة وطرده شر طردة .

وفى الصباح كان خبر الحجرة التى فوق السطوح قد بلغ صاحب المجلة . وثار صاحب المجلة بشدة وهدد المحرر بالطرد ثم أنذره فى النهاية بأن يدفع أجر الحجرة وبأثر رجعى أو يستقيل فوراً من الجريدة .

وقبل المحرر الاقتراح الاول ودفع اجر الحجرة واستقام فيها بعد ذلك وأصبح ساكناً وله شأن وأصبح من حقه دعوة من يشاء الى الحجرة دون ان يكون للبواب حق مشاركتة السهرة أو الاقتراب من الحجرة فى أى وقت !

وفجأة وقبل نهاية الشهر بقليل جاء الى الجريدة رجل فلاح وموظف بالحكومة ، وعلى صدغة عصفورة ناصحة وتكاد تهم بالطيران ، جاء الرجل ليتولى منصب مدير عام المجلة ، واصلت الطوارىء فى الحال فقد أشيع أنه جاء ومعه مشروع كامل للتنظيم . وعندما جاء أول الشهر نزلت ووقفت أمام احمد عبد العزيز صراف المجلة ، وكان رجلاً بارداً كسمكة ميتة ، وراح الرجل يتفرسنى كأننى عجيبة من مخلوقات الرب انقرضت منذ زمن بعيد . وهز أحمد عبد العزيز رأسه عدة مرات واصل الخبر الذى لم اكن اتوقعه أبداً . اسمى ليس فى كشف المحررين ، بمعنى اخر انا لازلت على باب الكريم وبلا مرتب وحسبت الامر مجرد مزاح ، ولكنى تأكدت ان الامر جد كل الجد عندما التقيت بالمرحوم قاسم جودة وبدا قاسم بائساً وبائساً وغير ذى نفوذ .

وخرجت من مكتب قاسم لا اكاد ارى شبراً واحداً امامى ، ورغم أننى لم اكن قد تجاوزت العشرين من العمر ، الا اننى رحمت أجرة رجلى جراً كأننى قفزت الى سن المائة فجأة ، وأحسست بالدموع تنزلق من عيونى الى جوفى وباننى اختنق ، ورحت أمشى على غير هدى ولم انتبه الا وأنا على كوبرى قصر النيل

وهواء مارس البارد المنعش اللذيذ يضرب وجهي بقسوة . كانت المشكلة التي أواجهها أكبر من أن تحل . . . ففي خلال الشهر الذي مضى أحسست بزهو لم أحس به من قبل . ولأول مرة في حياتي اشعر بنوع من الاستقرار لم اشعر به في حياتي . كنت قد أصبحت محررا وبشرة جنيهاً في الشهر وفتح لي هذا المرتب الوهمي حرية أوسع في التعامل مع الناس . وعلى الطريق الموصل الى بيتي اقترضت من البقال ومن القهوجي ومن دكان السجائر . وكان الجميع في إنتظارى أول يوم في الشهر ، وكانوا على أحر من الجمر لعدة أسباب . . أولها - للحصول على مافى ذمتى من نقود .

والسبب الثانى - أن احدا منهم لم يكن يشق فى اننى قد استوظفت فعلا ، واننى يوما ما سأقبض بأصابع يدى الخمسة على عشرة جنيهاً مرة واحدة .

ولقد تحقق ظنهم فعلا ، اتضح أنهم كانوا أعلم منى بمهنة الصحافة ، وأدرى منى بالاحوال فى مجلة النداء .

ولا زلت أذكر ماحدث فى ذلك اليوم المهبب بالتفصيل . ذهبت كعابى الى حديقة الارومان واقتحمتها فجأة . رغم اننى لم اكن من هواة الحداثق ولم يسبق لى الذهاب الى أى حديقة الا لغرض سرقة البلح أو معاكسة فتيات المدارس . واخترت مكانا تحت شجرة وجلست كالعاشق الولهان احدى فى لا شىء وعقلى يعمل ولكن بلا انتظام كأنه ساعة روسكوف خسرانة ، واحسست فجأة بأننى أحمل عمارة الايموبيليا فوق رأسى ، وأن سيفاً ملتهباً يخرق عظام رأسى ويستقر فى مخى ، فى أكثر الاجزاء حساسية من مخى ، وشعرت بأننى أكاد اسقط مغشياً على . كانت الشمس قد مالت الى المغرب عندما استيقظت لأجد نفسى تحت الشجرة وحارس الحديقة يهزنى بعنف لكى انهض وأمضى ، فقد أغلقت الحديقة أبوابها منذ فترة .

والقى الرجل الطيب على مسامعى سؤالاً وأنا اتحرك نحو باب الخروج .

هوه انت غريب يابنى ؟

وهزرت رأسى فى فتور وانا ازحف كسلحفاة عجوزة نحو الخارج . ورحت اتسكع فى شارع مراد فترة قبل ان ازحف

من جديد نحو الجيزة • وعلى اقرب كرسي في قهوة محمد عبد
الله جلست وطلبت واحد شاى مطبوط للغاية وعندما حضر عم
عبد الله معه الشاى وقف أمامى وراح يتفرسنى وعلى فمه
ابتسامة ، وقال وهو يهز رأسه برفق :

الشاى ده هتدفعه راخر والا من حساب الشهر الجديد ؟

ووخزتنى كلمة « راخر » فهى تعنى ببساطة أن عم عبد الله قد
أصدر حكما لا يقبل النقض ان فلوس الشهر الماضى ستدفع
حتما وازعجنى شعور عم عبد الله الواثق من نفسه ، فهذه الثقة
الزائدة عن الحد ستدفعه حتما الى ارتكاب جريمة فى اللحظة التى
يكشف فيها أن ثقته لا مبرر لها ، واننى لا أملك نقودا من
أى نوع على الإطلاق •

وجلست أفكر فى وسيلة للهروب من عم عبد الله ، ثم الهروب
من البقال وبتاع السجاير ، فاذا لم أتمكن الا من الهروب من
عم عبد الله ، فمعنى ذلك أن على العبد لله أن يبحث لنفسه عن مأوى
ينام فيه تلك الليلة •

وفجأة قطع حبل تفكيرى يد هزت كفى بعنف • وارتعش
بدنى كله فقد ظننت أنه البقال ، وعندما التفت مذعورا وقد
رسمت على شفتى ابتسامة نفاق مريضة ، وجدت صديقى
الشاعر كمال النجمى أمامى • وكان كمال قد هجر العمل معنا
فى مجلة مسامرات الجيب ، ثم زهد الحياة فى المدينة وآثر
العودة الى مسقط رأسه فى الصعيد الجوانى ، ومضت عليه
سنوات لا نسمع عنه خبرا حتى فوجئت به تلك الليلة ، يقف
منتفشا كالديك الرومى ، عليه علامات سرور دفين ، وهو الذى
يبدو مكتئبا على الدوام •

وسألنى كمال عن الاحوال فحكيت ليه باختصار ، ومط شفتيه
فى ازدراء وقال بطريقته المشمزة : لسه الصحافة فيها الوساخات
دى ؟ هه •• شىء حقير قوى •

وسألته عن أحواله فقال وهو شديد الانبساط أنا كسبت
الجائزة الاولى من مجمع اللغة العربية ، ودون أن أسأله ، قال
على الفور •• الجائزة ثلثمائة جنيه ••
وسألته فى براعة : وهتقبض الجائزه امتى ؟
فقال على الفور : أنا قبضتها خلاص !

وهتفت بدون وعى : كذاب !

ولما مط شفتيه احتقارا ..

قلت متحديا : طيب ورينى ؟

وانتزع كمال رزمة أوراق مالية من فئه العشرة جنيهات :
ووقع قلبى فى قدمى ، هاهو شعاع عم سعد بياع العرقسوس
يتحقق « فرجه قريب » !

وهاهو الفرج يتحقق فعلا ومن حيث لا أحتسب ومن حيث
لم أكن أدري !

وقال كمال : انهض بنا نسهر ليلة من ليالى العمر .

وقلت لكمال : اعطنى عشرة جنيهه قبل كل شيء وعندئذ
أستطيع أن أتحرك .

وناولنى كمال المبلغ واستأذنت عدة دقائق دفعت خلالها
ديون البقال وبتاع السجائر ، وعدت مرة أخرى لادفع لعم
عبده . ثم انطلقت مع كمال النجمى لنقضى أياما من أحلى أيام
العمر ، فلقد كنا نملك الشيايب والامل والمستقبل كله ، ولأول
مرة كنا نملك مع كل هذه الاشياء المال . ولكن المال الذى كان
مع كمال النجمى لم يلبث أن تبخر . وعدنا من جديد نبعد
عن عمل ، ولازلت أذكر تلك الليلة المطرة الموحلة التى سبقت
رحيل كمال النجمى الى الصعيد . كان الوقت شتاء وعاصفة
رهيبة تصفع وجه القاهرة بشدة ، وعبثا حاولنا اللجوء الى مكان
يحمينا من البرد وبشرط ألا يكلفنا شيئا . ثم تذكرنا فجأة أن
زميلا من زملاء مسامرات الجيب قد فتح الله عليه فاشتغل فى
جريدة يومية مئة لم يكن يقرأها أحد على الاطلاق ، ولم تكن
تظهر فى السوق ، ولكنها كانت تطبع مائة نسخة لزوم استهلاك
اعضاء الحزب والسفارات الاجنبية ، وكان رئيس تحريرها
متخصصا فى وأد الجرائد المنتشرة ، وكان مغرورا ككل فاشل ،
فاستعان بزميلنا اياه مديرا لمكتبه ، مع أن البية رئيس التحرير
نفسه لم يكن فى مكتبه شيء أكثر من المقال الفاشل الذى ينشره
كل يوم .

ودخلنا على صديقنا فى الليل وفى البرد ، واستقبلنا فى
مكتب فاخر ، وأكثر من مدفأة تنفث الدفء فى أرجاء المكان ،
وعلى الباب فراش مستعد ، وطلب لنا الشاي ثم راح يشرح لنا
ماخفى من عبقريته ؟ وماهى العوامل اللازمة للنجاح ؟ ولماذا
تتوفر فيه هذه العوامل بينما لا تتوفر فى أحد سواه ؟

وقضينا الليل كله نسمع ولا نعلق • والحق أننا قضينا الليل بطوله نشرب الشاي وندخن السجاير ونستمع بالدفع •
وفى الفجر غادرت مكتبه الى الشارع ، وغادره كمال النجمي الى الصعيد •

كانت تلك هي آخر ليلة لكمال فى القاهرة قبل أن يغادرها لمدة عامين كاملين ثم يعود من جديد ولكن بعزم جديد وفكر جديد وثقة بالنفس لا حد لها •

فقد كان كمال قد حصل على جائزة الشعر ، وكان ديوانه اسمه « الانداء المحترقة » وقد استغرق الاسم ثلاث ساعات كاملة من وقت اللجنة لكي تتعقب الاصول النغوية لكلمة الانداء منذ فجر اللغة •

وفعلا ، عدت من جديد الى النداء ولكن بمرتبة حقيقتي ، ثمانية جنيهات كل شهر • ونصحني الرجل الفلاح أبو عصفورة الذى هو مدير الادارة أن أنتبه جيدا فى عملي وأن أحصل على مناشيت وهو جمع مكسر غير سالم لكلمة مانشيت !

ولقد وعدت بالحصول على مناشيت كثيرة ، وضحكت فى سرى من جهله العظيم • لانه لو كان قد اشتغل بالصحافة من قبل ولو لمدة يوم واحد لأدرك أن المنشيت يحصل عليه الصحفي المحترف المدرب مرة كل عدة شهور !

وكانت حرب فلسطين قد هدأت وتوقف صوت الرصاص ، وكفت صرخات الجرحى عندما أصبحت محررا وله مرتبة • •
ولقد بدأت العمل بسلسلة تحقيقات صحفية عن شهدائنا فى الميادين • رقدت أكثر هؤلاء الشهداء فى لحظاتهم الاخيرة ، وفى كثير من الميادين صفيحة كائنة وكان عملا صحفيا مجيدا رغم أن أحدا من الناس لم يشعر به • حتى أسر هؤلاء الشهداء أنفسهم لم ينسروا لحظه واحدة أن هناك مجلة سيارة تكتب قصص أبنائهم ومع ذلك منعت الحياة هيئة لأول مرة ، وشعرت لأول مرة فى حياتي بأننى فعلا قد أصبحت صحفيا • وشعرت أيضا بواجب القيام بدور الصحفي النشيط فى المجتمع !!
فأسهر حتى الصباح وأنام حتى الظهر ، وأكتب فى المساء ، ثم أنطلق فى الحياة بغير حدود !

وذات مساء هبط فى مطار القاهرة زعيم من زعماء العالم ، وعلم من أعلام الفكر والسياسة فى العصر الحديث ، وقائد لامة

من أكبر أمم آسيا والكرة الأرضية . . هبط مطار القاهرة الزعيم
نهر ، ولقد أتيح لي أن ألقاه مصادفة ، وأن احصل منه على
كلام هز مصر كلها هزا وأشعل نار معركة حامية الوطيس بين
القصر والوفد . ولكن كيف التقيت به وكيف دار الحديث بين
الزعيم الكبير والصحفي الشقي الذي كان منشوره يوحى لمن يراه
أنه تلميذ عابث أو صبي جرسون في كافتريا المطار . . !!

إنها قصة وقعت فعلا ، ولكنها أغرب من الخيال .
ولقد حدث لي خلال الأسابيع الأولى لعملى المستقر في الصحافة
عدة حوادث هامة للغاية ، سيكون لها أثر بعيد في نظري
للأمور عامة وللحياة السياسية في مصر على نحو خاص . .
وكانت الحادثة الأولى نتلخص في أن رجلا تركيا مبروش المنح
أبله لا يكاد يفرق بين لاعب الكرة وحمار الوحش ، وصل إلى
مصر فجأة في زورق شراعى في طريقه إلى رحلة بحرية حول
العالم . . وما أن وصل التركي الأبله إلى القاهرة ورسا بزورقه
على ضفة النيل الغربية بالقرب من كوبرى الجلاء حتى تارت
ضجة هائلة في المدينة حول الأمير الأشقر الوسيم صاحب
النظرات الحاملة والذقن المدبب . وتهافتت عليه بنات الطبقة
الراقية (!!) حتى أصبح الأمير التركي ولا أمير من أمراء
الماليك ، دعوات وسهرات وحفلات وحوادث طلاق كل يوم
رحوادث انتحار وحوادث هروب من بيت الزوجية . . ثم حظ
الأمير في النهاية على بيت الأمير محمد على رؤوف وأصبحت كل
جهوده في دنيا الغرام حكرا للأميرة نسل شاه أجمل وأشهى
بنات أسرة محمد على ! ولقد قدر لي أن أرى هذا الأمير ذات
ليلة من ليالى شهر يونية الحارة حينما دعا سموه إلى مؤتمر
صحفى على ظر زورقه ، ولم يكن فى المؤتمر الصحفى سوى
محررين آخر مثلى وعشرات من مندوبى الإعلانات جاء كل منهم
بسمي على زورقه . وبينما سكنت أنا وزميلي الصحفى ، راحت
الأسئلة تنهمر على رأس الأمير من مندوبى الإعلانات ، وسمو
الأمير أباه يجيب وقد رسم على شفثيه ضحكة عريضة بلياء
ليس لها مناسبة ، والحق أن الرجل كان تافها غاية التافهة ،
ولا غاية الجهل ، ولكنه كان فى الوقت نفسه وسيما غاية
الوسامة ، جميل الصورة كأنه يوسف الصديق ، مفتونا بنفسه
كأنه نجمة سينما عالمية مدللة وكان يتمتع بشارب دوجلاس ،
بدا من النظرة الأولى أنه محور حياة صاحبه ، وأنه أهم موهبة

يتمتع بها الامير . . ولقد كانت الأسئلة التي أخذت تنهمر على رأس الامير الهايف أكثر هيافة من سموه ، وكانت كلها من طراز ، هل تنوى سموك مقابلة ملوك العالم ؟ هل تنتهز هذه الفرصة لحل بعض المشاكل العالمية ؟ مارأى سموك في مشكلة فلسطين ؟ . ولقد أجاب سمو الامير على هذا السؤال بجواب يليق بحجم المشكلة ، قال سمو الامير ونفس الابتسامة البلهاء مرتسمة على وجهه : مشكلة فلسطين بعدين مش تمام ، بعدين لازم مشكله فلسطين لازم ! وقد أبدى أحد مندوبي الاعلانات إعجابه الشديد بالتصريح الخطير بأن صاح معجبا كأنه من سميرة أم كلثوم ، الله ، الله يا أمير ! في الوقت الذي انطلقت مني ضحكة مجلجلة رغم أنفي ، وقد انتهت الضحكة بشخرة غير متعمدة ، ولقد تأزم الموقف للغاية ولكن سمو الامير ضحك هو الآخر وشخر ، ثم قال وهو يهز رأسه . . فلسطين . . ها ها ها ! ولقد انتهى المؤتمر الصحفي بعد ساعة ، وانصرف مندوبو الاعلانات بعد أن وقع الامير على أذونات نشر تدفع بعد ذلك . . وانصرفت انا والصحفي الآخر ، ولكنه توقف عند الباب وأستأذن مني لدقائق ، ثم غاب عند الزورق وعاد والضيق يبدو عليه . وراح يزفر بشدة ونحن نتمشى على الشاطئ ، ثم فجأة قال في غيظ شديد . يلعن أبو الامرا الى بالشكل ده ! واستطرد دون أن أسأله ، قال أمير قال ، دا شحات ولا يسوا ، بدنا رجعت له بحسب عنده دم ، ولكن ولا حياة لمن تنادى . . أنا افكرته هيناولني ظرف لكن لافيه ظرف ولا حتى جواب ، وعندما سألته عن سر الظرف الذي ينتظره ، قال في براعة ، ظرف فيه فلوس ، ماهي دي العادة ، لما يكون راجل أمير زي ده لازم يفرق ظروف على الصحفيين ، لكن دا باين عليه شحات ! ولم يكن سموه يبدو عليه في الحقيقة أنه شحات ، ولكن كان يبدو عليه أنه نصاب . وانه ولد حننجي كما الشعبان ، وانه صبايع تركي مغامر ، استطاع أن يركب على اكتاف الطبقة المصرية الراقية (!) وأن يعيث بأجمل بنات تلك الطبقة وأن يتقاضى منهن الحساب ! ولقد كان يوم مغادرته مصر يوما صعب وقفاته كما يقول مطرب الارغول . خرجت مئات من البنات والنساء الى الشاطئ ومناديلهن مبللة بالدموع . . وأغلب الظن أن الامير الصبايع ركن الزورق في نرعة الحمودية واستقل أول سفينة الى اسطنبول ! بعد أن عاش في مصر عاما كأعوام هارون الرشيد ،

وخرج منها بثروة تكفيه بقية العمر . ولقد أدركت من خلال هذا الحادث البسيط أن الحياة في مصر عفنة الى الحد الذي سمح لنصاب تركي وسيم أن يبيع فيها الكذب والحب . ولست ادري حتى هذه اللحظة ما الذي أعجب ستات الزمالك في هذا التركي الابله ؟ ثقافته أم درايته أم فهمه الواسع العميق ؟ أم خفة دمه ؟ أم لعله الشارب الدوجلاس هو الذي جذب كل هذا العدد الهائل من الستات الراغبات في البهجة . . والبنات الساعيات الى الفرشة ، خصوصا اذا كان الرجل المفرفش يتمتع الى جانب موهبة الشنب بموهبة أخرى هي لقب الامير ! أما الحادثة الاخرى فكانت أعجب وأغرب فقد تلقيت دعوة من صديق صحفى كان لامعا تلك الايام بأن أتوجه معه الى حفلة شاي في الخامسة مساء في مكتب بشارع سليمان باشا ، وقال يشجعني على الحضور أن على ماهر باشا سيحضر الحفل . ولما كانت ملابسى لم تكن تسمح بحضور حفلة يحضرها رجل صاحب مقام رفيع فقد اعتذرت . . ولكن الصديق الح وأصر على أن أحضر . . وقال يغرينى على الحضور . . ستتعرف على الباشا في الحفلة وسيفيدك هذا في عملك الصحفى . وفعلنا ذهبت الى المكان ومعنى طوغان فقد كان معزوما هو الآخر . . ولم نجد هناك إلا سبعة أشخاص يبدو عليهم جميعا أنهم من الطلبة . . وثلاثة أشخاص فى المعاش ، علمنا بعد ذلك أن أحدهم عضو فى مجلس النواب عن دائرة فى الصعيد . ثم خمسة من محررى الصحف الغلابا أمثالنا . ورغم هذا العدد الضئيل من الحاضرين فقد كانت الموائد عامرة بكل أنواع التورته والجاتوه والفواكه . . وبدأ على الحاضرين جميعا عندما بدأوا فى شرب الشاي أنهم لم يتذوقوا طعاما على الاطلاق منذ أول أمس ! وراح بعضهم يرشف بصوت عال ، وبعضهم يمضغ بطريقة مقززة كأنه طاحونة دبش فوق جبل المقطم ، وفجأة قطع عليهم لذتهم دخول على ماهر فجأة وترك الجميع الاكل والرشف والزلط جانبا ووقفوا يصفقون للباشا الانيق الذى أرتسمت على محياه تعبيرات صارمة كأنه روميل على أبواب معركة العلمين ! وفجأة قال الباشا يخاطب الحاضرين يا شعب مصر ، لقد دقت ساعة البداية وحانت ساعة العمل ، وأنى أعلن عليكم قيام جبهة مصر ، لتعمل على تطهير البلاد ، ونموها السريع ، وقرار السلام والعدل فى ربوع العالم ! وعليكم (يقصدنا نحن) أن تمسكوا بمبادئ جبهتكم ، وأن

تناضلوا « برضه احنا » نضال الابطال من أجل تحقيق برنامجكم ، وسنتنصر باذن الله وبفضل تضحياتكم « احنا أيضا) ! ولما لم يكن لى أى برنامج ، ولما كنت لا أنوى التضحية بأى شىء ! ولأننى كنت أحب مصطفى النحاس ولا أحد سواه ولأننى كنت أرى أن على ماهر رجل مثل مدينة طنجة ، على الحياذ فى كل شىء ، فقد أدركت أننى لست المقصود بكلمة أنتم ، ولذلك نظرت خلفى ، فاذا بالخمسة عشر شخصا الآخرين ينظرون خلفهم بحثا عن هؤلاء الذين سيؤمنون أولا ثم يضحون بعد ذلك وخرجت دون أن أهتم بما جرى ، وحسبت الامر كله حفلة شاي وهزار ورجل وزير طيب أطعنا دون أن يريد منا جزاء ولا شكورا !

ولكن فى صباح اليوم التالى خرجت الصحف اليومية بعناوين بارزة للغاية وعلى عرض الصفحة ، على ماهر يعلن تأليف جبهة مصر ، الجماهير الغفيرة تحضر المؤتمر وتعاهد على ماهر على الالتفاف حول مبادئ الجبهة والتضحية من أجل النصر ! حشود غفيرة ! هل كان بين الخمسة عشر رجلا واحد اسمه حشود وأبوه اسمه غفيرة ! أين هذه الجماهير التى عاهدت والتى ضحت ؟ أغرب شىء أن بعض الجرائد نشرت صورة الباشا وهو يخطب ثم صور الخمسة عشر رجلا وهم يصفقون ، وعلى هذه الصورة قام حزب جبهة مصر بزعامة على ماهر بأشأ . ولكنه قام لينفض ! ولفظ الحزب أنفاسه قبل أن ينتهى على ماهر من ألقاء خطابه الخطير فى الحفل ! هكذا أذن تصور الجرايد مايجرى فى الحياة للناس . . . أمور كلها نصب واحتيال وأحسن من السرقة وكافة شىء يغضب الرحمن . أما الحادث الثالث فقد هزنى بعنف ، وقلب أمعائى من الداخل كأنه طعام فاسد . ولقد كان بطله صديق صحفى شاب طيب وساذج . وقد همس فى أذنى ذات صباح أنه أصبح مكافحا وطنيا وأنه أصبح عضوا فى منظمة شيوعية أسماها حدتو . . . ولقد كنت تلك الايام اسمع عن الشيوعيين فى مصر وانقر منهم ولكنى كنت معجبا بهم على نحو ما . . . وقال صديقى أنه سيتسلم هذا الصباح منشورات تدعو الى الثورة ضد النظام الملكى ، وأنه سيتولى قيادة منطقة فى وسط القاهرة ، وأنه سيكون مسئولاً عن أربع خلايا كل خلية مكونة من أربعة أفراد ، وراح يحكى لى عن هدف الثورة القادمة ، وبرنامج المنظمة ، وكفاحها وتاريخها الحافل الطويل ! ولقد

اندهشت لهذا التطور المفاجيء الذى طرأ على صديقى ، فلقد كنت اعرفه حق المعرفة ، وكنت أعلم أنه يؤمن فى السياسة بالظهور فى الصور الى جانب الزعماءدون أن يكون مؤمنا بمبادئ هؤلاء الزعماء . وكانت بوصلته تبدو دائما خربانة فى بحر السياسة المصرية الهائج المتقلب ، ولذلك كان فاقد الاتجاه الصحيح فى كل الاحيان . . ورغم هذا كله فقد صدقته ، وذهبت معه وانتظرنا أكثر من ساعة عند باب سينما مترو حتى أقبل فى النهاية شاب أصلع يضع نظارات طبية بشنبر سلك رفيع ويرتدى بدلة قديمة خفيفة رغم الشتاء القارس ، ويتأبط رزمة أوراق ملفوفة بعناية فى جريدة قديمة ، وعندما أصبح فى محاذاة صديقى غمزله بعينه فمضى هذا خلفه بحركة لا ارادية كأنه منوم مغناطيسيا . . وانحرفا معا داخل عطفة فى نهاية شارع سليمان باشا ، ثم سلمه الاوراق ولم يتبادلا كلمة واحدة واقتربا على الفور . وراح صديقى الذى أصبحت الاوراق فى عهده يمضى سريعا فى الشارع دون أن يخاطبني بكلمة . وبدت عليه أهمية مفاجئة كأنه عمرو بن العاص على أبواب مصر، وعندما حاولت التحدث اليه شخط شخطة عنترية وأمرني بالصمت . وراح يضرب على غير هدى حتى وصلنا الى ميدان باب اللوق . وركبنا الترام معا ولكن فى صمت وفى مقاعد متباعدة . . وكان صديقى ينظر باهتمام شديد الى كل راكب جديد يصعد الترام ثم يغمز لى بعينه مؤكدا لى عن طريق الإشارة أنه مخبر نشيط يتعقبه ! ورحنا نعبّر شوارع الجيزة وحواريها حتى وصلنا الى منزل صديقى ، وصعدنا فى حذر وأغلقنا الباب ، وتنهد الصديق بعمق وزفر زفرات حارة وبدا كأنه تخلص من كابوس شديد . . وعاد من جديد يحكى لى قصة كفاحه وجهاده ! ثم سألنى فى براءة منقطعة النظر . . مش لما الشيوعيين ياخذوا الحكم أنا أبقي رئيس تحرير ؟ ولم أجبه بشيء ، وسألته أنا الآخر عن مصدر المنشورات التى معه ، وفوجئت بأنه لا يدري ، وأنه يعانى من وجودها معه ، وأنه يخشى لو تركها فى البيت أن تضبط هناك ويكون مصيره السجن لا محالة . . ثم صمت طويلا قبل أن يقول ، أيه رأيك لو حرقتها ؟ ولم يكن ينتظر منى جوابا ، كما لو أن سؤاله هذا لم يكن سؤالاً ، ولكنه كان قراراً أصدره وانتهى الامر . وفلا نهض الصديق وأحضر علبة كبريت وراح يحرق الاوراق الخطيرة

أمامي .. وفجأة والدخان يعمي عيوننا انطلقت مني ضحكة
رغم أنفي ، ضحكة طويلة عميقة صافية ، كانت هي خير تعليق
على الرواية كلها . وسألني صديقي وهو يغالب الضحك ،
أنت بتضحك ليه ؟ وقلت في هدوء : أنت يظهر مش في منظمة
حدثو ، أنت في منظمة حرقو !

وضحك هو الآخر ، ثم ظل يحرق الأوراق في هــدوء
وبأعصاب قاتل محترف معتاد !
أما الحادث الأخير فقد كان أنكى وأمر !

أوفدتنا المجلة الوفدية التي نعمل بها الى المنصورة لنقوم
بعمل تحقيق صحفي عن أملاك ابراهيم عبد الهادي باشا
رئيس الوزراء السعدي ، وذهبت ومعى صديقي علوي الصحفي
أيام الذي كان معنا في دار الهلال والذي ترك العمل هناك
وتفرغ للعمل في مجلة النداء وبمرتب ثمانية جنيهاً كل
شهر . ولم أفهم السبب الذي دعا مدير التحرير الى الاصرار
على ضرورة سفره معى ، مع أن هذه الامور لم تكن ضمن
اهتماماته .. ثم اكتشفت بعد ذلك بزمان طويل أن مدير
التحرير أقتسم معه قيمة بدل السفر ، وأن علوي وعده بهدية
زبدة فلاحى عند عودته من المنصورة ! كانت الرحلة ناجحة
وموفقة لولا تصرفات الاخ علوي .. ففي أول لقاء لنا مع عمدة
طلخا وهو نائب وقدي متحمس أقسم الرجل أن نقضى الليل
في منزله ، ولكنى اعتذرت له بشدة . وأخيراً وافق الرجل على
أن يتركنا نمضى وشأننا ، وعند باب الدوار دس العمدة يده
في جيبه وأخرج أوراقاً مالية دسها في يد علوي : وتناولها علوي
على الفور ورفع يده نحو السماء وراح يدعو الله على طريقة
الشحاتين ، الهى مايجوعك كبد ولا يعريك جسد يا حضرة
العمدة ! وعندما عاتبته على هذا التصرف المعيب ، راح يلقي
على مسامعى محاضرة طويلة عن أسلوب التعامل مع الناس
والسلوك الطيب في الحياة ، وكانت خلاصة مفاهيمه ان الحياة
تعاون ، وان الناس في خير ماتعاونوا !

ولقد قضينا في المنصورة عشرة أيام كاملة .. ارتكبنا فيها
كل الجرائم واستعملنا كل الوسائل ، حتى حصلنا على كل
المستندات الدالة على استغلال الباشا لنفوذه كي يضمن لارضه
الرى المريح والحصب الدائم .

مستندات حكومية أشبه بالروايات الكوميدية ! مستندات تحمل توقيعات الباشا رئيس الوزراء ، والباشا وزير الاشغال والبيه مدير الري والافندى الملاحظ والولد الغفير ! وفي آخر ليلة لنا في المنصورة جاء الموظف الذى سرقنا الدوسيه من عهدته يبكى ويلطم فى اللوكاندة ولكننا ادعينا البراعة ، وأبلغناه أن الدوسيه أرسل الى القاهرة ، وطلبنا منه أن يصحبنا الى المجلة ووعدناه برد الدوسيه وبمكافأة كبيرة ! وفي تلك الليلة الاخيرة أيضا حدث للعبد لله حادث غريب للغاية ، فقد كان يسكن فى الحجرة المجاورة لحجرتنا فى اللوكاندة رجل فى حوالى الستين من عمره ، يرتدى جلبابا وبالطو أصفر وطربوشا ويضع تحت الطربوش منديلا محلاويا عريضا ، ويمسك فى يده بمظلة . وكانت معه زوجته وهى فى السادسة والثلاثين من عمرها ، شابة مليحة ممتلئة عفيه ، جمالها متوحش ، نظراتها وحركاتها كأنها لبؤة تبحث لها عن أسد جامد وقوى وخطير . . . وكان صديقى علوى الذى تجذبه رائحة النساء من على بعد ألف ميل قد لضم معها فى كلام ليس له مدلول !

وجلست أنا ليلتها مصمتعا ، وكنت لم أزل صبيا فى الثانية والعشرين من العمر . وقد لفت نظرى ليلتها أن المرأة العفية المستوية كانت تختلس النظر نحوى بين الحين والحين ، وكان لوقع نظراتها تأثير عجيب على نفسى فقد كانت عيناها واسعتين عميقتين سوداوين ولامعتين كأنهما من الزيت المغلى ! المهم أننى فى تلك الليلة الاخيرة التقيت بالمرأة فى بهو الفندق المتواضع وكان الزوج فى الخارج وكان من عادته أن يخرج كل صباح ليعود فى المساء ، ويظل يسعل حتى تنقطع انفاسه ويسقط مغمى عليه من شدة السعال ! وتغاهمنا بسرعة أخذت تشكو ونضج بالشكوى من التهاب فى الاعصاب ، وراحت تحكى للعبد لله وهى تبكى كيف أرهاقها المرض الى حد أن الزوج اصطحبها معه الى المنصورة لتشم الزواء وتسرى عن نفسها قليلا ، ولكنه جاء بها الى البندر وتركها فى اللوكاندة وانشغل عنها بأصدقائه فى المنصورة . وفرحت الست لهذا الوضع وسرحت هى على كيفها ، وكانت ليلة ليلاء انتهت بزغردة طويلة من الست المشتاقة الى ذكر يروى عطشها الشديد الى لحنان والحب والمتعة ! وأدركت سر انشغال زوجها عنها فى

المنصورة .. لعلها حركة ذكاء من جانبه .. ولعل كل شيء يدور من خلف ظهره وهو يدري ! .. المهم أننا عدنا في الصباح الى القاهرة . وقابلنا صاحب المجلة الوفدى وسلمناه فضيحة رئيس الوزراء السعدى . ولكن هذا الموضوع أختفى الى الآن فلم يكتب له أن ينشر قط ! يبدو أن الفساد كان سمة العصر ، وما يحدث في جانب حزب السعديين يحدث مثله في جانب حزب الوفد ! ولقد علمت بعد ذلك بسنوات أن الموضوع كله سلمه صاحب المجلة لرئيس الوزراء وقد تمت الصفقة بين الطرفين وانتهى الامر .. وضاع الموظف المسكين ففصلوه بعد ذلك ، وضاع نشاطنا الصحفى الرهيب فلم يسفر الا عن خيبة الأمل والفشل والهم ! وعدت من جديد أدور فى نفس الساقية التى أنا مربوط اليها ! عدت أكتب أى كلام وانشر أى شيء وذات يوم فوجئت بأننى فى المحكمة فقد قاضانى أحد المقرئين المشاهير الكبار .. وكنت قد كتبت عنه كلمة ساخرة وقصيرة وقلت بالحرف الواحد ، والشيخ فلان يشرب الكوكولا .. و .. و يدخن السجاير و .. هل أقول ؟ لا ، فانا شخصيا من عشاق الشيخ ! وكانت هذه أول قضية صحفية فى حياتى ، ولقد علمتنى الكثير وزودتنى بتجارب غنية ولكن يوم نظر القضية لم يغمض لى جفن ، وظللت طول الليل أفكر فى المصير الاسود الرهيب الذى سأنتهى اليه !

وذات مساء هبط مطار القاهرة المرحوم نهرو . ولم يكن فى استقباله سوى حكمدار القاهرة مندوبا عن رئيس الوزراء ، وعدد من الصحفيين وموظفى السفارة الهندية ، ورجل اسمه فخر الدين كان يمثل اندونيسيا فى القاهرة ، وكانت بلاده فى ثورة ولا ثورة فيتنام هذه الأيام !

و كنت أقف فى المطار الى جانب فخر الدين وطوغان ، وكان منظرى لايسر عدوا ولاحبيبا ، بدلتى شتوى رغم أننا كنا فى عز الصيف ، وجيوبى منتفخة بأوراق ليس لها لزوم ، وفى يدي أوراق وأقلام لزوم الصحافة . وتقدمت نحو المرحوم نهرو وصافحته وسألته باللغة الهندية عن الصحة والاحوال فابتسم نهرو وربت على كتفى وشدنى من يدي معه الى استراحة العظماء . واتخذ الحكمدار فظننى مسئولا كبيرا فى سفارة الهند ، أو لعله ظن أننى عميد الجالية الهندية فى

القاهرة ، وأننى ممصوص وممقوت من أثر الجهد البالغ أيام الكفاح . المهم أن الحكمدار الطيب رفع يده تعظيم سلام للعبد لله . وأغرب شئ أن نهرو هو الآخر انخدع مثل الحكمدار . فقد ظن أننى أحد كبار المسئولين المصريين بدليل أن الحكمدار مندوب رئيس الوزراء قد رفع يده للعبد لله بالتحية والاحلال . وجلست فى استراحة العظماء بين نهرو والحكمدار ساعة زمان ، ونهرو يتكلم فى السياسة ويتكلم فى امور الحياة . وكانت فى مصر معركة حامية الوطيس على الضمان الجماعى العربى وقال نهرو كلاما ضد هذا الضمان ثم نهض ووقف الى جانب الطائرة وقال كلاما شاعريا لم أفهمه . وصافحنا جميعا ثم ركب الطائرة وانصرف فى سلام !

وقضيت ساعة مع فخر الدين فى المطار أسأله عن الكلام الذى قاله نهرو فى استراحة العظماء ، ونقلت الحديث كما ذكره فخر الدين ، ثم قضيت الليل بأكمله فى بوفيه بمحطة السكة الحديد . ثم توجهت ومعى الحديث الى جريدة صباحية كبرى . وعندما اطلع مدير التحرير على الحديث رحب بى بشدة . . . ولكنه رفض نشر الحديث الا اذا حصلت على توقيع من السفارة الهندية بأن الحديث صحيح وأنهم لا يمانعون فى نشره !

وأخذت بعضى وتوجهت الى دار السفارة الهندية واكتشفت أنه لا يوجد بالسفارة سوى موظف هندى فعلا لا يعرف من العربية حرفا ! ولما أوضحت له المسألة برمتها ، وشرحت له الموقف بصراحة ، وافق على الفور على نشر الحديث ووصع خاتم السفارة على الاوراق كلها .

وهكذا نشر الحديث فعلا فى أكبر صحيفة يومية فى مصر ولكن بلا توقيع ، وقد أحزننى هذا الموقف بشدة ، ومع أنهم منحونى عشرة جنيهات فى الحديث ، الا أننى تمنيت أن أدفع عشرة جنيهات أخرى وأضع توقيعى أسفل الحديث !

فلقد كان هذا العمل هو أول خبطة صحفية فى حياتى . ولقد أقام الدنيا وأقعدھا بعد ذلك ، وهاجم صدقى باشا السراى واستشهد بالحديث ، وهاجم جلاد باشا صدقى باشا فى جريدة الزمان ، ولم يكتف بهذا بل هاجم نهرو أيضا . . وأصبحت أزمة دولية كبرى ، واضطر نهرو بعد أسبوعين من

نشر الحديث الى تكذيبه وهو فى باريس ، وقال للصحفيين
الفرنسيين ، لاأذكر أننى التقيت بصحفى مصرى فى مطنار
القاهرة .

وكان نهرو على حق ، فهو لم يعرف لحظة واحدة أننى
صحفى . . ولا الحكمدار المصرى مندوب رئيس الوزراء كان
يعلم صفتى .

ولكن الجريدة اليومية الكبرى التقطت القفاز كما يقولون .
وتحدث نهرو ونشرت الحديث مختوما بخاتم السفارة ،
واضطرت السفارة الى السكوت فلم تعلق على الموضوع بشئ !

ولقد خيل الى أن حديث نهرو فرصة للعمل فى الجريدة . .
ولكنهم رفضوا بشدة ، واقترحوا أن أعمل معهم بالقطعة . .
وهو نظام كان يجعل من الصحفى شيئا أشبه بالشىال فى محطة
مصر . فأنت عليك كل الواجبات نحو الجريدة . . ولكن ليس
على الجريدة أى واجب نحوك . . وبينما لا تستطيع تمثيلها
أو التحدث باسمها فى أى مكان فانك تستطيع أن تنشر فيها
انتاجك ، وضع مقلوب رفضته بشدة أنا الآخر وعدت للعمل
فى هدوء فى مجلة النداء . .

وذات يوم تلقيت دعوة من صديقى فخر الدين لحضور حفلة
استقبال كبرى فى فندق سميراميس احتفالا بإعلان استقلال
اندونيسيا وكانت أول مرة أدخل فيها سميراميس ، وأول مرة
أيضا أحضر فيها حفلة استقبال من هذا النوع ، ولذلك دخلت
الحفل أتلفت خلفى كأننى فلاح يدخل بيت العمدة لأول مرة .
وأحسست بخجل شديد عندما رأيت كل الرجال فى ملابس
أنيقة ، وكل النساء فى رشاقة الطاووس . ولمحنى فخر الدين
فأقبل نحوى وسحبني من يدي ووقف يتكلم معى عدة دقائق
ولكنها كانت كافية لاعادة الثقة الى نفسى !

ووقفت فى الحفل وحيدا بعد ذلك حتى أفتتح البوفيه . .
فاتجهت نحوه فى خوف شديد كأننى ذاهب الى مدرس اللغة
العربية . . وعندما رأيت ادجار جلاد باشا استأنست ووقفت
الى جواره . . ولم أكن أعرف جلاد باشا ولم يحدث أى لقاء
بيننا من قبل . . ولكنها الجيبة العريضة أوحى الى أنه مادام
جلاد باشا صحفى ، ومادام وجهه مألوف لدى ، فهو أهون من

الآخرين الذين يملئون الحفل .. ورحلت أزحف خلفه ألتقط من البوفيه نفس الاشياء التى يأكلها ، واكتشفت أن كل شيء التقطه كان مملحا ، ومع ذلك لم أجروا على أن أتناول شيئا آخر .. وعندما جاء دور الشاي طلب الباشا فنجال شاي بدون سكر .. وكذلك فعلت أنا الآخر .. ووقفت أتجرع فنجال الشاي كأنه سم أزرق .

واكتشفت بعد ذلك بسنوات أن جلاد باشا مريض بالسكر بينما كنت أنا أشكو من مرض الملح !
وعندما خرجت من الحفل الفاخر توجهت الى أقرب مقهى فى ميدان التحرير وطلبت واحد شاي بسكر ثقيل لكى أكسر سم الشاي الآخر الذى شربته هناك .. ولعلها كانت أول حفلة وربما الاخيرة ولسنوات قادمة .

وفى هذا العام تألفت وزارة جديدة برئاسة حسين سري باشا لاجراء انتخابات جديدة ، وخاض الوفد الانتخابات بكل قواه .. وتقدم للترشيح عدد من كبار الصحفيين كان أحدهم رئيس تحرير الجريدة اليومية الكبرى اياها التى نشرت بها حديث نهر . وأصدرت المجلة ملحقا يوميا عن الدائرة وتولى الاشراف على تحريره زكريا الحجاوى ثم تطور الملحق خلال المعركة الى ملحق للجريدة وعهدوا بالاشراف عليه الى محرر آخر . وقبلت العمل فى الملحق الجديد بالقطعة ، وسافرت الى الاسماعيلية مع محرر آخر اسمه هلال كان أشقر مثل عساكر الاحتلال ، طويلا وطيبا وساذجا على نحو ما . وكان يعمل بالصحافة بدون حماس وبلا طموح وكان كل آماله أن يزيد دخله عدة جنيهات تعينه على الحياة فى مستوى أفضل ! وكان يعمل مدرسا للغة الفرنسية فى إحدى المدارس الثانوية وكان يبدو فخورا ومتعاليا بمهنته الاخرى ، وكنا اذا دعونا للسهر معنا اعتذر عن القبول لانه على حد تعبيره « مانا مش زيكوا برضه ، أنا مدرس ثانوى » ! وكانت عبارة أنا مدرس ثانوى هذه يرددها فى كل مناسبة ، وأحيانا كان يرددها فقط دون مناسبة على الاطلاق .

المهم انا ذهبت مع هلال الى الاسماعيلية لنكتب موضوعا عن المدينة المصرية التى يدخلها المصرى بجواز سفر ويحكمها انجليز وكانت الاسماعيلية فى ذلك الزمان نسيج وحدها بين مدن

مصر . كان الانجليز يسكنون اغلب عماراتها وكانت الحياة تسير داخل المدينة على نحو انجليزى . وحتى المارة فى الشوارع جميعا انجليز ! وفى الليل كانت الاسماعيلية تنقلب الى كباريه ، العساكر يرقصون فى الشارع ، والضباط الانجليز يرقصون فى البارات ، الغناء انجليزى والصراخ انجليزى ، كأننا فى مدينة مارجيت على شاطئ بحر الشمال ! وقضينا الليل فى بار اسمه بيكاديللى وفجأة وقع بصر هلال على ولد استرالى كما فحل الجاموس المعتبر جالس وقد فتح صدره وبان الشعر الكثيف يغطى جسمه ! ويداه المفتولتان القويتان تندليان بجواره وقد غطى الذراعين وشم أخضر شديد الاخضرار ، نبات أشجار ونخيل . وقد تدلى رأسه الكبير على صدره وراح فى نوم عميق ومع الولد الاسترالى الفحل ، تجلس بنت سنيورة جاويش فى الجيش ، ما احلاها وما اطعمها ! ونهض هلال كالضبع ، وتوجه نحو البنت الجاويشة ، وجلس على المقعد المجاور ، وسأل البنت كام سؤال ، والبنت تسمع وتجب ، ثم سأله بعد فترة : لماذا هذه الاسئلة ، وقال هلال : ابا صحفى فى القاهرة وسأشر حديثك ! واعترضت البنت لانها مجرد جاويش فى الجيش وطلبت منه ان يذهب الى القائد البريطانى ويبدوأن البنت كانت ساذجة وكانت صديقة ، وحسبها هلال بنت عايقه ولثيمة وشقية ، فأقسم لها بدون مناسبة انه لا يجرى حديثا الا معها ، لأنها فى الواقع وبالنسبة لهلال أعظم من كل ملوك انجلترا !

واستيقظ الولد الاسترالى على صوت هلال المسرع ، فنظر نحوه بنصف عين ثم اشار له برأسه بأن ينصرف ، ثم لم يلبث ان نام من جديد .

ولم يهتم هلال بالولد الاسترالى وعاد الى مناقشة البنت الحلوة . ولكن الاسترالى استيقظ مرة اخرى ونهر هلال وامره بالانصراف ثم نام وارتفع شخيره فى الفضاء . ولكن هلال مضى فى طريقه مع البنت . غير أن البنت أبدت نفورا من هلال فسره هو لخيبته بأنه مجرد دلال وعندما استيقظ الفحل الاسترالى للمرة الثالثة ، كانت البنت يبدو عليها الضيق الشديد ولم يتكلم الاسترالى هذه المرة ولم يحتج ، فقد اعتر من انفر ، رفع يده الغليظة وطاح بهلال فأذا به مع المقعد خارج بكاديللى ، واذا بهلال حمامة فى الطريق الى محطة الاسماعيلية

والواد الاسترالى خلفه وانا خلف الجميع وصوت هلال للجو ،
وصوتى انا الآخر یرن حتى أبو صویر • ولسوء حظى انتبه
الواد الاسترالى الى أننى أجرى خلفه ، فظن أننى أريد به سوءا
فأنحرف نحوى فجريت فى الظلام نحو منتصف الشارع ، ولم
الخط أن بالشارع حديقة وانها محاطة بسياج ، لهذا انكسرت
رجلى على هذا السياج ، ولكنه كان قدرا أخف من قدر كما تقول
أمى ، فقد انكسرت رجلى ولكنى انقذت من الموت بأعجوبة !
اذ أننى عندما سقطت على الارض ، لم یرنى الواد الاسترالى
فأستأنف سعيه خلف هلال !

ولقد قمت بعد ذلك احجل كالغراب الى لوكاندة بسطا •
وعندما التقيت بهلال ضحكت حتى كدت اموت بالاختناق •
فقد كان منظره يضحك الارمل •• وجهه شوارع ، وبدلته
نحولت الى هرايبه والدم يغطى كل جزء فى جسمه • ثم ياللهول
هلال افندى المدرس الثانوى يبكى !! وقضينا الليل فى قسم
البوليس ، ورغم اننا ذهبنا الى البيكاديللى فى صحبة احد
الضباط الا ان الولد الاسترالى رفض ان يذهب معنا الى القسم
وفى النهاية كاد يعتدى على ضابط البوليس نفسه !

ولم أر هلال منذ تلك اللحظة لاعرف اين ذهب ولا ادرى
اين ذهبت به الايام ! ولذلك كتبت انا موضوع الاسماعيلية
ونشر الموضوع بأسمى وفى تلك الليلة التى علمت فيها ان
اسمى سيكتب فى الجريدة الكبرى ظلمت ساهرا حتى الفجر
فى محطة السكة الحديد

انتظر الجرائد حتى تصدر • وعندما حصلت على نسخة من
الجريدة • توقفت تحت عامود نور اقرأ المقال واقرأ اسمى ،
ورغم ان اسمى كان أسفل المقال وبالبنت ٩ الذى لا يرى الا
بصعوبة ، فقد احسست بلذة لم اشعر بها فى حياتى ، لا قبل
ذلك ولا بعد ذلك • ورحت اقرأ المقال عدة مرات ، فاحسست
بأننى أكاد أهم بالطيران واحلق فى الجو • ثم رحلت اتمشى نحو
الجيزة واثناء المشى رحت التهم المقال ! وجفا النوم عيونى تماما
فظلمت ساهرا حتى سقطت فى المساء مغمى على • رغم اننى
تقاضيت على المقال ثلاثة جنيهات ، الا اننى اعتبرت نفسى من
كبار الصحفيين ! ورحلت اتردد على نادى العوالم فى آخر الليل
حيث كان يسهر هناك بعض الفتوات وبعض الصحفيين وبعض
الفنانين !

وكانت الانتخابات فى عنفوانها ، واخبار اليوم نشن حملة صحفية على حزب الوفد أفقدت حزب الوفد نفسه الثقة فى نفسه ! واتهمت الحزب بالفساد والرشوة واتهمت رئيسه بكل ما يشين الرجال .. وانتهت الى أن الجماهير قد انصرفت عن الوفد الى أحزاب الملك والاقليية .. ولكن نتيجة الانتخابات كانت مذهلة .. فقد اكتسح الوفد جميع الدوائر ، وانضم الشعب بجميع طوائفه الى حزب الوفد ، وعاد النحاس الى الحكم ، وأصبحت الجريدة اليومية الكبرى منتدى لرجال السياسة والحكم والفن !

وأصبحت سهرتى كل مساء فى حديقة دار الجريدة .. ومن خلال هذه السهرات تعرفت على فنان مصرى متشرد وأصيل ، ونموذج لن يتكرر ، حياته تكاد تكون متشابهة مع حياتى مع فارق واحد هو أن حياته أعرض وأخصب ، ولقد توثقت الصلة بينى وبينه بسرعة .. ومن لحظتها ونحن أصدقاء ، ولقد صاحبته أحيانا وخاصمته أحيانا ولكننى أحببته دوما . ولقد أحببت فيه شجاعته وانفعاله الدائم وقدرته الفنية على مواجهة المشاكل وطاقته التى بلا حدود ، واقتحامه لأصعب المسائل ببساطة المقامر الفنان .. وكان الرجل وقتئذ صاحب ألمع الاسماء فى الحقل الادبى ، وكانت برامجـه فى الاذاعة سريعة الانتشار وكان صاحب صيت يدوى كالطبل فى أنحاء مصر والعالم العربى .. وفى أول ليلة سهرت فيها معه أنفق أكثر من عشرة جنيهات .. ثم اقترض منى عشرة قروش ليدفع أجر التاكسى ! وربما لهذا السبب أحببت عبد الرحمن الحميسى وصادقته . ولأنه كان متفائلا رغم ظروفه السيئة .. لا يبالي بما سوف يحدث غدا رغم أعبائه المالية الضخمة .. وفى تلك الايام كان الحميسى غارقا لشوشته فى حب شجرة ، ثم تحول عنها الى حب طالبة فى الجامعة ، وكان يبكى كلما تذكرها ، ثم يعكف وحده أحيانا لتأليف قصائد غزل فى الحبيب الذى يتبغدد ! ولقد اهتم الحميسى بكتاباتى وأسدى لى النصيحة باخلاص . واقترح على مرة أن أكتب قصة .. ولكننى زعمت له أننى لست من هواة القصة ، وأخفيت عنه أننى أكتب القصة فعلا ولكنى لا أنشرها .. ثم فجأة تحول الحميسى عن مجراه لسبب لا أدريه وتغلى عن أسلوبه الرومانسى

وراح يكتب بطريقة تعليمية أقرب الى الخطابة منها الى الفن الذى كان طابعة القديم .. ولم أشعر بالارتياح تجاه أسلوبه الجديد .. ولكنه عندما دخل معركة صحفية مع محمد التابعى حول الفن والعمال .. ارتحت لرأى الحميسى وان كنت قد أعجبت بأسلوب محمد التابعى .. ثم اختفى الحميسى بعد ذلك فلم نعد نراه ثم علمنا أنه تزوج .. ولكنه قبل أن يفارقنا الى بيت الزوجية كنت قد تعرفت من خلاله على أعداد وفيرة من المثقفين والصحفيين والفنانين .. فقد كان واسع الاتصال بالناس ، على صلة صداقة متينة بألوف من جميع الاوساط والطبقات .. مولعا بالموسيقى والغناء .. ولكن أغرب أصدقائه على الإطلاق كانوا من الذين ضيعتهم الايام .. هؤلاء الذين حلموا يوما بالمجد والنجاح والشهرة ثم انكسروا أمام التحديات وكان يبيت فى هذا النوع من الناس الامل ، ويجدد فيهم الثقة رغم تأكده من أنهم لا يصلحون لشيء .. ولكنه كان يسعى دائما لكى يوجد لهم أعمالا مستقرة .. ولكن أحدهم رفض كل الاعمال التى عرضت عليه ، وفضل أن يبقى الى جانب الحميسى ولا يزال يتبعه كظله حتى الآن ! ولعل هذه الميزة هى أبرز ميزة فى الحميسى . ميزة المسح بعطف على جراح الفاشلين والساقطين فى الحياة .

ولكن أبرز رجل عرفته من خلال الحميسى ، كان صحفيا وشاعرا وكاتبا وفنانا وظريفا ، وكان رجلا ولا كل الرجال ، وكان امرأة متحركة لمصر تلك الايام ، وكان بعضا من تاريخها وقبسا من روح مصر الذكية القلقة العابثة على نحو ما .. وأدركت أن الحميسى ، يحب كامل الشناوى لنفس الاسباب التى أحب من أجلها الحميسى ، ثم علمت بعد ذلك ومن الحميسى نفسه ، أن لكامل الشناوى أفضالا كثيرة عليه .. وعند أول لقاء لى مع كامل الشناوى عاملنى بازدياء شديد . وأهملنى بشكل يكاد يكون متعمدا ، وفى اللقاء الثالث سألتنى عن مسقط رأسى فلما أجبته .. المنوفية .. قال مندهشا : أنت أول فنان تنجبه المنوفية ! وعندما استنكرت ذلك بشدة ، وعددت له أسماء عشرات الفنانين المشاهير وكلهم من المنوفية ، نظرنحوى فى احتقار ممزوج بالطيبة .. وقال وهو يهز رأسه .. أنا باقولك فنان .. فنان .. فاهم ، الى انت ذكرتهم دول كلهم

شعراء ، وكتاب ، لكن مش فنانين .. فاهم .. وعندما لم
أتكلم ، قال بصوت خفيض : أنت مش فاهم حاجه أبدا !
لم تكذ تمضى أسابيع على عملي فى الجريدة الكبرى حتى
صدمت صدمة كبرى فى أحلامى . فلقد كانت الجريدة مجرد
بناء أجوف ، وهرم من الرمال الناعمة . وكانت الاوضاع
فيها أكثر اعوجاجا منها فى أى مكان آخر . وتعرفت خلال العمل
على عشرات من أصحاب الاسماء الالامعة حياتهم أكثر بؤسا
من حياتى ، ومرتباتهم لا تكاد تكفيهم ثمن الدخان والشاى .
وعشرات من الموهوبين الاصلاء لا يجدون حتى هذا الاجر التافه .

ولكن فى الناحية الاخرى كان هناك عشرات من الهلافت
التافهين كل مواهبهم أنهم أصدقاء صاحب الجريدة وأنهم
يسهرون أحيانا معه يقصون عليه أحدث النكت
وآخر أنباء المجتمع . ويتقاضون مقابل ذلك مئات الجنيهات
باعتبارهم محررين وليس باعتبارهم ندماء ، وأدركت خطر
الجريدة التى تستطيع أن تخلق أصناما يعبدها الناس ،
وتستطيع أن تخلق من الفسيخ شربات ! وتعجبت أكثر لهذا
الجهاز الخطير الذى اكتشفه البشر والذى اسمه الإدارة ، والذى
يستطيع تحويل الموهوبين الى متسولين ، بينما يجزل العطاء
وبسخاء لكل من يستطيع الحصول على اعلان من مدير شركة .
ولكن من يستطيع أن يعقد صلة صداقة متينة مع نائب أو
محموب أو شيخ يملك مئات الافدنة وألوف الناحيين تحت
أمره !

وكانت هذه الفشرة الالامعة من الصحفيين تسهر كل مساء
حتى الصباح فى نادى نقابة الصحفيين تلعب الشمار وتخسر
عشرات الجنيهات كل ليلة . وكان أبرزهم رجل من الاقاليم
يملك جريدة أسبوعية تصدر فى الصعيد بينما كان هو متيما
على الدوام فى القاهرة .. وكان الرجل خفيف الدم كريما الى
درجة السوء .. وكان مشهورا بألوان معينة عن الاطعمسة
المفضلة .. وكان صاحب نفوذ كبير فى نقابة الصحفيين ..
فقد كان على علاقة وثيقة بسكرتير عام النقابة وكبار الصحفيين
وجميع المسئولين فى الصحف . وكان غنى استطاعة هذا الرجل
السمين الذكى أن يجعل من أى انسان فى مصر عضوا فى نقابة
الصحفيين ، وكان دائما على استعداد ليمنح أى انسان شهادة

بأنه محرر في المجلة الاقليمية التي يملكها في الصعيد ..
وكان سكرتير عام النقابة على استعداد لاعتماد الشهادة ، وبعد
أيام يصبح هذا المخلوق - أي مخلوق - عضواً بنقابة الصحفيين
له كافة الحقوق وليس عليه الا واجب السهرة في النقابة ولعب
القمار حتى الفجر ! والى جانب هذه الشلة المقامرة من أعضاء
النقابة كانت هناك شلل أخرى كثيرة أبرزها على الاطلاق شلة
أصحاب الصحف الميته . وكان كل واحد من أفراد الشلة
يملك امتيازاً باصدار صحيفة ، غير أن هذه الصحف وقفت عند
هذه المرحلة فقط ولم تصدر قط .. وبالرغم من ذلك كان
أصحاب هذه الصحف يتقاضون مصاريف سرية كل شهر من
الحكومة ، ويتقاضون أيضاً اعانات شهرية من النقابة ! وكان
هؤلاء الصحفيون رغم تفاهة دورهم الصحفي يتمتعون بنفوذ
واسع داخل النقابة وكانوا يستطيعون فرض أي مرشح ..
ولذلك كانوا يشعرون حقاً بالسعادة كلما حدثت انتخابات
جديدة ، فقد كانت الانتخابات فرصة للتلهيب ، كما كانت
أيضاً فرصة للعمل ، والسبب أن حضرات المرشحين وكانوا
جميعاً من أصحاب الصحف وكبار المسئولين فيها ، يقومون
بتعيين عشرات من العاطلين قبل كل انتخابات تجري لضمان
أصواتهم في المعركة .. وكانت خطابات الفصل تصل الى
هؤلاء المحررين فور ظهور النتيجة ليعودوا عاطلين مرة أخرى
في انتظار انتخابات أخرى تفتح أمامهم أبواب الرزق .. ولقد
كان أبرز أعضاء هذه الشلة ثلاثة .. أحدهم كان مستشاراً
صحفياً للخديوي توفيق ، وكان الصحفي الوحيد الذي حضر
مذبحة دنشواي .. وقد وصف ذلك اليوم الاغبر بأسلوب ينم
عن جهل صاحبه بحقيقة المأساة .. فقد وصف الوكب الرسمي
وعساكر الانجليز ، وسعادة قاضي التنفيذ ، ووصف الجلاد
أيضاً ، وفي النهاية كتب عدة أسطر عن الفلاحين الاشقياء
الذين أعلنوا العصيان ضد السلطة الشرعية وضد الحاكم
الشرعي للبلاد ! ..

وعندما تعرفت اليه أول مرة كان في الثمانين من عمره ..
وكان حريصاً على أن يبدو متصائباً وشاباً .. وإذا صافح
انساناً نعد أن يضغط على يده بشدة استعراضاً لقوته التي
يتغنى بها على الدوام .

وكان عبد الفتاح الخطيب هو الرجل الثانى فى النشلة ..
وكان فى الخمسين من عمره .. قضى منها فى مهنة الصحافة
عشرين عاما ، ولكنه لم يمارس العمل حقا سوى شهر واحد
وتفرغ بعد ذلك للجلوس فى نادى النقابة مع شلة المعاشات .
وكان عبد الفتاح يبدو مروراً غاية المرارة ، حزينا غاية الحزن
شديد السخط على كل شىء .. على الحكومة وعلى الشعب وعلى
الصحافة وعلى الفول المدمس وعلى قطار السكة الحديد ..
ولكنه لم يتحرك حركة واحدة فى حياته بعد الشعور بالسخط
.. وكان يتكلم ويتحرك كأنه زعيم من زعماء الشعب المصرى
أجبرته الظروف على الانزواء فى ركن .. وأحيانا عندما كان
يلتقى بعشرات من الشبان المترددين على نادى النقابة ، كان
يجلس معهم منقوشا كالديك ويقضى الساعات الطويلة يسرد
على مسامعهم كفاحه الطويل فى عالم السياسة ، وتجارب
الحافلة فى دنيا الصحافة . وكان دائما على حق بينما كل
الآخرين دائما على خطأ .. وكان اذا انطلق فى تلك اللحظات
القليلة السعيدة فى حياته فلا أحد فى الوجود يستطيع وقفه !
خصوصا اذا صادق نفوسا بريئة وآذانا صاغية .

وذات مرة حكى لنا كيف نصبح رئيس الوزراء سرى باشا
بكذا وكيت ولكنه لم يستمع لنصحه .. ومع ذلك فقد أسدى
نفس النصيحة لصدقى باشا .. ولكنه لسوء حظه - حظ
صدقى - لم يستمع لنصحه .. وظل يتكلم عن موقفه من الوزراء
والبشوات ونصائحه المتكررة لهم دون جدوى . وعندما انتصف
الليل كان قد وجه نصائحه لجميع البشوات فى مصر حتى لم
يبق منهم باشا واحد لم ينصحه ! ولكنه استطاع أن يخرج
من المأزق ببراعة وبعد لحظة صمت وتفكير عميق ، قال
عبد الفتاح فجأة لقطيع الشبان البائسين الملتفين حوله :
« وعلى كل حال أنا نصحت جلالة الملك ، وان شاء الله هيعمل
بالنصيحة » !

ولم أتمالك نفسى فضحكت !! ولكنه كان ذكيا الى الدرجة
التي لم يجعله يلتفت الى هذه الضحكة الساخرة الشاخرة من
ولد عابت مثلى !

تجاهل الامر كله ومر عليه مرور الكرام .. وعندما نهضنا
للاصراف كانت وكسة ولا وكسة دنكر ك .. انتهى عبد الفتاح

بالجرسون ركنا وراحا يتها مسان ، ولكن الهمس لم يستمر طويلا ، سرعان ما ارتفع الهمس فأصبح ضجيجا ثم عراكا ثم ضربا بالركبة وبالرأس .. وترنج عبد الفتاح فى أول لحظات الصدام وتمدد على الارض يصرخ ويتوجع . وانتشى الجرسون بخمرة النصر السريع على عبد الفتاح ، وانتابته حالة جنون مريعة ، فهجم علينا يريد أن يتقاضى الحساب منا ويعلم الله لم يكن معاشى على الاطلاق ، ولولا الفلس الاغبر لما احتملنا اكاذيب عبد الفتاح !

ولقد انقطعت صلتى به بعد ذلك حتى التقينا مرة أخرى فى مجلة الصريح ، وقد تغير عبد الفتاح فأصبح أكبر سنا وأكثر هما ! ولقد حضر معه مقال يريد نشره .. ونشرناه فعلا ليس لانه يستحق النشر ، ولكن لان انتخابات نقابة الصحفيين كانت على أشدها ، وكان رئيس تحرير المجلة على رأس قائمة المرشحين ..

ولقد احترنا فى المبلغ الذى يجب أن نعطيه لعبد الفتاح ثمنا للمقال ، وقدرت أنا أن خمسة عشر جنيها كافية لمثل هذا العمل التافه ولكن عبد الفتاح رفض بشدة واستنكر هذه الفعلة كأننى أتيت ذنبا لا يغفره الله .. وعندما سألته عن المبلغ الذى يطمع فيه قال بهدوء ، مائة جنيه !!

وتصورت أنه جن ، لان الدكتور طه حسين بجلالة قدره قد يفكر عدة مرات قبل أن يطلب مبلغا مثل هذا ثمنا لمقال واحد .. ووعدته خيرا وانصرف على أن يعود فى يوم آخر !

وعندما أبلغت رئيس التحرير بالامر على أنه نكتة ، فوجئت بأنه موافق على المبلغ المطلوب ! وأدركت أن المائة جنيه ليست ثمنا للمقال ولكنها ثمن لسكوت عبد الفتاح خلال المعركة ! وأدركت أيضا أن عبد الفتاح يستخدم ذكائه بذكاء ! وأنه يعلم أن الانتخابات هى فرصته الوحيدة !! وأنه خلال كل انتخابات يسعى كثعبان الغابة ليلتهم خنزيرا برياً أو غزالة ثم ينام يجترها فى هدوء ولمدة شهور حتى تسنح فرصة أخرى ! وكان ثالثهم رجل شديد اللطف خفيف الدم صاحب موهبة حقيقية .. ولو أنه اتجه الى التمثيل مثلا لكان نجما ولا نجيب الريحانى ، وكان كريما ظريفا ساحر الحديث ، سريع النكتة

بارع القفشة ، صاحب ضحكة مميزة ترن كأنها أجراس كنيسة
صباح يوم عيد ..

كان على السائس قصيرا ونحيفا ويرتدى « بابيون » ويضع
على رأسه طربوشا ويدخن سجائر توسكاني خبيثة الرائحة
الى درجة لا تطاق ! وكان يعمل فى جريدة مسائية ويتقاضى
مبلغا لا يكاد يكفى ثمن السجائر التوسكاني !

وعندما تصدر الجريدة يبدأ رحلته الابدية مترددا على جميع
البارات الفقيرة فى العاصمة .. وكان يطلق على شلته « شله
المشائين » .. وكان شعاره الذى يرفعه من كل بستان زهرة !
اذ كان ممنوعا فى مذهبه أن يتناول أكثر من كأس واحدة فى
البار الواحد ! وآخر الليل كان يحضر الى نادى النقابة سكرانا
للفاية مبسوطا تماما الانبساط يدندن بأغاني شعبية قديمة .
وفى الفجر كان يستقل عربة حنطور وكان يصر على أن يركب
الى جوار العربجي ، وأحيانا كان يتولى هو قيادة الحنطور حتى
بيته ! فاذا وصل الى البيت كان من عادته أن يقف وسط
الشارع وبشائر الصبح تطل من خلف الافق ليقضى حاجته فى
الطريق العام !

ولكم سببت له هذه العادة الغريبة مشاكل شتى ! وبسببها
نام فى أقسام البوليس عدة أيام وتحررت ضده عدة محاضر
.. وأحيانا كان العسكرى الجلف يعتدى بالضرب على الفنان
الضائع ..

وعقب كل خناقة من هذا النوع كان يلزم البيت عدة أيام
حتى يشفى من جراحه !!

وعندما أغلقت الجريدة أبوابها لم يتخل عن عادته أبدا ،
الطواف طول الليل على البارات ، ثم السهر فى نادى النقابة .
ولكنه حرم نفسه من لذته الكبرى وهى ركوب الحنطور ، اذ لم
يكن يملك فى أيامه الاخير أجر الحنطور من النسادى فى قلب
القاهرة الى منزله فى مصر القديمة ! وكان يقطع المشوار على
قدميه ، ثم يقف وسط الشارع أمام منزله ليقضى حاجته
كالعادة ..

وذات مساء ، وكان المساء الاخير الذى شاهد فيه الناس
الرجل الفنان فى نادى النقابة .. فقد حضر عم على وكان

سكرانا الى درجة الترنج ، وفي النقابة حفلة ساهرة تضم
أصحاب الصحف الاثرياء وكبار الصحفيين المترشحين وعددا
من البشوات والوزراء وأصحاب الطين .. وجلس على في
التراس يشرب قهوة سادة ، وبعد أن انتهى من شرب القهوة
هم بدخول القاعة التي تشهد الحفاة الانيقة ، ولكن الرجل
الطويل العريض الذي يحرس باب القاعة منعه من الدخول لان
الدخول بالملابس الرسمية وعاد على الى التراس وجلس يفكر
لحظات ، ثم نهض فجأة وخلع ملابسه كلها ، واقتحم الحفل
عاريا تماما كما ولدته أمه . وارتاع الوزراء والبشوات وأصحاب
الطين وصرخت نساؤهم بشدة لمنظر الرجل المسلوع الذي اقتحم
المكان عاريا تماما الا من حدائه وطربوشه . وباظت الحفلة
وخرج عم على الى منزله ولم يعد أبدا .

ومات عم على بعد ذلك بأيام ، بعد حياة قصيرة عريضة ذاق
فيها كل الوان البؤس والفقر . ولكنه رغم كل شيء كان أحد
أبناء الجيل الذي اقتحم غابة الصحافة في عهدها الاول ، وتعرض
لكل أخطارها وذاق كل مرها ، وشرها وبذل دمه نقطة وراء
نقطة ، لكي يشيد أصحاب الصحف دورا جديدة ويكسوا
ثرووات هائلة ..





كانت مصر فى بداية الخمسينات قد صادفت عهدا من الهدوء والاستقرار لم تألفه منذ بداية الحرب العالمية الاخيرة . وكانت حكومة الوفد فى الحكم ، ومن عجب أن صحف الوفد انهارت كلها فجأة ، وتحول اكبر الكتاب فيها الى نواب وشيوخ ، وتحول صغار المحررين فيها الى أصدقاء للشيوخ والنواب الذين كانوا ينتشرون كل مساء فى مقاهى الاوبرا وشارع عماد الدين .

ولقد كانت هذه هى أول مرة أدخل فيها مثل هذه المقاهى الانيقة ، بزبائنها الاثرياء جدا ، بجرسوناتها الخواجات ، بسهراتها التى يخسر فيها عمد الارياف مئات الجنيهات كل ليلة فى لعب الطاولة . ولقد كنت أظن حتى هذه اللحظة ان رواد المقاهى كلهم من الصيغ ، وكلهم من المقاطيع . حكمة أزلية استقرت فى نفسى ، ربما من خلال رأى أمى فى المقاهى وروادها وفى أول جلسة اكتشفت كم كانت أمى ساذجة وكم كانت عديمة الخبرة هاهم ذوات البلد جميعا ينفقون وقتهم فى المقهى يلعبون الطاولة ويشترون أغلى وأندر الاشياء دون أن يتحرك الواحد منهم خطوة . ولقد استرعى انتباهى هذا العدد الهائل من باعة

المانجو والفستق والبطارخ والبطيخ الشليان الذين يفتحون
المقهى كل لحظة . وكانوا أصحاب قطنة فرغم جلوسنا الى جوار
هؤلاء البهوات فان احدا من هؤلاء الباعة لم يعرض علينا بضاعته
وكان البائع الفطن يتجه مباشرة الى البية الذى معنا وكان البية يكتفى
باختلاس نظرة الى البضاعة فاذا اعجبته غمز له بعينه . وكان
البائع يفهم الغمزة فيضع البضاعة جانبا ويحاسب الجرسون .
ويمضى !

ولقد احببت هؤلاء البهوات فى اول لقاء وتمنيت ان اعيش
معهم ، وفى آخر لقاء علمت ان امى من فلاسفة العصر ، وان هؤلاء
البهوات مجرد صياح مثل رواد قهوة امين فى الجيزة مع فارق
واحد ، هو ان هؤلاء الصياح أغنى !

ولقد كان موسم القطن ناجحا وحركة انتعاش كبرى شملت
كل شىء فى البلاد ، وانتشرت البذل الشار كسكين البيضاء ،
وكثر عدد مدخنى السيجار وانتشرت نوادى القمار ، وانتعشت
البارات وأصبح شارع عماد الدين مثل الحريقة الوالعة . وكل
الناس سكارى بالفلوس والفن والانبساط الذى ليس بعنه
مطلب .

وكان ملك البلاد قد خرج من مصر باسم مستعار يلف شواطئ
اوروبا ويستدعى الوزراء ليقسموا اليمين بين يديه السمينتين
وقانون أخبار القصر يلقي معارضة شديدة ، والامة تغلى بالغضب
وليس بالثورة ، وعشرات الصحف خرجت فجأة كلها تلعن
وتسبب فى النظام الذى كان قائما تلك اللحظة ولكن الاحوال
رغم ذلك كانت عال والاشيا كانت معدن والناس كانت عايشة
وفجأة ، وقف مصطفى النحاس فى البرلمان ليعلن على الشعب
نبأ هز مصر كلها هزا ، وتحكم فى مصيرها لسنوات طويلة
قادمة . . . وقلب كل شىء فى البلد رأسا على عقب ، وهز كل
ركن حتى المقاهى المنتشرة فى شارع عماد الدين وفى الاوبرا .
وكان الخبر . . . الغاء معاهدة ١٩٣٦ ، ولم تكد تمر الحظا على
بيان النحاس حتى خرجت المظاهرات فى الشارع . . . واصطدمت
مظاهرة بدورية بريطانية فى الاسماعيلية ، وسرعان ما انطلقت
الرصاصات ، واشتعلت النيران ، وسقط الشهداء واصبحت
مصر فى ثورة .

وذاذ مساء قدر لى ان استقل اخر قطار غادر محطة مصر الى
السويس فى رحلة صحفية . ولكن لم أعد من السويس الا بعد

ذلك بأربعة شهور كاملة . . . ولقد كان وقتا قصيرا كالحلم ، ولكنه كان كافيا لان أرى بوضوح شكل الماساة بلا رتوش . وقبح الاحوال بـلاتزويق وان أشم رائحة العفن بلا كمامة ، وان أضع يدي على الجرح المفتوح الذي راح ينزف بلا انقطاع حتى تقطعت أنفاس مصر ليلة ٢٦ يناير المشهور .

ولكن هذه الرحلة الغريبة التي قطعتها في قطار يزحف كالذودة في الصحراء ذات مساء ملتهب من شتاء ١٩٥١ الى السويس ستكون هي رحلة العمر كله . هأنذا صحفي محترم في طريقى الى عمل خطير المسئولية في رحلة خطيرة الاهمية ذات وضع خاص بين كل فترات التاريخ . وفي القطار ضباط بوليس في طريقهم لقيادة المعارك ، وعساكر بلوكات نظام لا تدرى من الامر شيئا ولكنها تنفذ أمرا صدر اليها بالتحرك الى السويس . عساكر بطاسات صفيح وعصى خشبية وبلا سجاير ولا نفود وفجأة توقف القطار بعنف واهتز بشدة ، وانكفأنا جميعا على وجوهنا ثم قفز البعض ينظر من النافذة يستطلع الامر . وقبل ان نلتقط أنفاسنا صعد الى القطار فصيلة عساكر انجليز بمدافع وأوامر واستسلمنا جميعا للامر الصادر الينا . رفعنا ايدينا فوق رؤسنا وبدأ التفتيش في حقائبنا وفي جيوبنا ، ولو استطاعوا لفتشوا في عقولنا .

لم يكن التفتيش جادا بالنسبة لنا نحن ركاب الدرجة الاولى وبدأ واضحا أن الانجليز لا يقصدون الا اهانتنا وجرح كبريائنا ، أما أمتعتنا وحقائبنا فلم تمتد اليها يد !

ولكن الوضع تغير تماما عندما اقتحم العساكر الانجليز عربات الدرجة الثالثة ، قضوا فيها ساعات طويلة يفتشون كل شبر وكل ركن وحتى الاجسام فتشوها وأجبروا الصعايدة على خلع ملابسهم ، وعندما رفض أحدهم تنفيذ هذا الامر ، ضربه عسكري انجليزى طويل كالنخلة بمؤخرة البندقية على رأسه فسقط مغشيا عليه . وبعد ساعات طويلة مريرة ، سمح الانجليز للقطار بالتحرك الى السويس .

كانت المدينة هادئة تماما ، لا صوت ولا حتى همس ، وكل شئ يبدو مكانه كما كان منذ عشرة أعوام عندما اخترقت شارع النمسا في ذلك الوقت المتأخر من الليل في طريقى الى لوكاندة فؤاد . ولم يكن فى لوكاندة فؤاد الا سرير واحد فى حجرة مشتركة ينزل فيها « رجل عجوز » على حد تعبير حارس اللوكاندة

ولم أستطع رؤية الرجل العجوز شريكى فى الحجرة لانه كان لحظة اقتحامى الغرفة يغط فى نوم عميق ولانى كنت حديث العهد بالنزول فى اللوكاندات ، ولانها كانت أول مرة فى حياتى أسافر فيها الى بلد بعيد لاقيم فيه فترة طويلة، فقد أطفأت النور ونمت دون ضجة . ولكننى لم أستطع أن أغمض عيني الا عندما لاحت تباشير الصباح ، وتضاعفت أصوات الديكة من أسطح البيوت القريبة !

وعندما فتحت عيني كانت الشمس تتوسط السماء ، والجو بديع للغاية وحركة المرور فى الشارع تحدث ضجة شديدة ، وأصوات الباعة والزبائن تختلط وتتشابك ، ولم يكن يبدو على الشارع أن حركة غير عادية تجري حول المدينة . وارتديت ملابسى على عجل ونزلت الى المحافظة لاسأل عن حقيقة الاحوال ، وأدهشنى أن كل شىء هادىء وعادى ، واستقبلنى المحافظ فى مكتبه الفاخر وراح يتحدث عن التدابير التى اتخذها لمواجهة الموقف ، ثم تحدث عن تكهناته بالنسبة للمستقبل ، ومع ذلك لم أخرج من حديثه بشىء .

وعندما أستأذنت فى الانصراف سألنى وأنا عند الباب . . انشاء الله الحديث بتاعى هينشر امتى ؟

ولم يكن فى نيتى نشر حديثه لانه كان غير ذى موضوع ومع ذلك طمأنت سيادة المحافظ الى أن حديثه سينشر فى القريب . عندما عدت الى حجرتى فى اللوكاندة بعد جولة سريعة فى المدينة ، وجدت الرجل العجوز فى الحجرة منهمكا فى الكتابة . وكانت فرحتى عظيمة عندما عرفت أنه صحفى ، وأنه موفد من جريدة الاهرام لمتابعة الاحوال فى المدينة . وكان هذا أول لقاء لى مع حامد عبد العزيز وتوطدت الصداقة بينى وبينه بعد ذلك . وقضينا معا وفى غرفة واحدة أربعة أشهر كاملة كانت أخصب وأعظم فترة فى حياتى . واكتشفت أن حامد عبد العزيز فنان هجر الفن الى الصحافة ، وأنه بدأ حياته عاشقا للمسرح ، وكتب عدة روايات مثلت على مسارح القاهرة ، وأنه دارس للأساطير الشعبية وأنه قارئ ممتاز وذو ذوقه للادب والفن ، ولكن الحياة جرفته ، ومهنة الصحافة أكلت مواهبه كما تأكل الدودة لوز القطن . وأنه رغم كل شىء سعيد وغير نادم ، وإن هدفه الوحيد فى الحياة هو رعاية ابنائه فقد كان يحبهم الى حد الجنون ! كان قد مضى على وجودى خمسة أيام عندما طرق الفراش

حجرة اللوكاندة فى الساعة الثالثة بعد الظهر ليبلغنى أن
شخصاً ما يبحث عني ويريد مقابلتي ولم يكد الفراش ينتهى من
كلامه حتى اقتحم الحجرة رجل فى الخامسة والثلاثين من عمره
يرتدى جلباباً فاخراً ويلف لاسه حريرية حول عنقه ويضع
عمامة على رأسه ، ويدس يديه فى جيوب الجلباب .

وألقى علينا التحية وصافحنا فى ثقة زائدة وضغط على يدي
حتى كدت أصرخ ألماً ، وقال وهو يقدم نفسه .. محسوبكم
عبوده .

كان عبوده متين البنيان ، عيناه واسعتان حادثان كعيني
صقر ، ولونهما فى لون العسل المخلوط بالطحينة ، وله شارب
نافس ومرفوع من الناحيتين وفى وجهه آثار كدمات قديمة
وجرح حديث العهد ، وبعد أن مسح يده على شاربه ، قال فى
هدوء : أنت السعداوى لامؤاخذه .. صححت له الاسم واندذهشت
لكلمة لامؤاخذه التى أرفقها بسؤاله ، وهل اسمى فيه عيب
يستوجب الا يؤاخذ الانسان من ينطقه ؟!

وقال عبوده وهو يتفحصنى وقد بدا عليه الازدراء لضالة
حجمي ، هو انت بتاع الصحافة ؟
ولما أجبت بالإيجاب ، قال على الفور كأنه أمر يصدره ولا
يقبل المناقشة . طيب قوم معايا .

مر عبودة وأنا خلفه بجوار حلقة السمك ثم تعداها وعبر
خرابة مهجورة تنضح بالقذارة ثم اقتحم بوابة من الصفيح
الصدئ واجتاز باحة تنشع من باطنها المياه القذرة ، ثم ضرق
على باب عشة وصرخ بأعلى صوته عدة مرات .. ثم سحب
مقعدا وجلس أمام العشة ودعاني للجلوس ، وعلى الفور
خرج عدة رجال من العشة الصفيح وضربوا تعظيم سلام لعبودة
وصافحوني جميعاً ، ثم التفت عبودة نحوهم فى لهجة أمرة ..
البسوا وامسكوا سلاحكم عشان اللفندى هيكذب عنكم !

ودخل الرجال الى العشة ثم عادوا وقد ارتدوا ملابس حربية
واصطفوا فى هيئة طابور عسكري ومعهم مدافع سريعة الطلقات
.. ادوا التحية العسكرية للقائد الذى هو عبودة ، ثم هتفوا
هتافاً عالياً لم اتبين معناه .. وبعد أن انتهوا من جميع المواسيم
نظرة عبودة نحوى فى خيلاء وأشار نحو رجاله وقال .. دول
وحوش الجبال .. اكتب بقم على كيفك من غير مؤاخذه !
وابتسمت لعبودة ولم اتكلم ، وعلى الفور ضرب عبودة يده

فى جيبه واخرج ورقة بنصر جنيه وناولها لواحد من وحوش
الجبـال وقال فى حزم شديد : هات لنا سمك حفار علشان نتغدى
وقبل ان يهم الرجل بالانطلاق قال : بس خد معاك مدفع .

وراح عبودة يوزع المسئوليات على رجاله ، روح انت هات
عيش وفجل .. وانت هات لون ، وانت هات جبنه اسطمبولى
وكان يأمر كل واحد منهم .. بس خد معاك مدفع . وعندما
انصرف الرجال سألت عبودة .. همه الرجاله رايعين جنب
المعسكرات ؟ ولما اجاب بالنفى سألته .. طيب وليه يأخذوا
معاهم مدفع ؟ وقال وهو يغمز لى بعينه .. عشان يتوصوا ،
اصل دى عالم تخاف متختشيش وفجأة صفق عبودة بيديه
وحضر رجل عجوز محنى الظهر ، وسرعان ما غاب داخل العشة
عندما طلب منه عبودة أن يجهز المسائل ، ثم عاد ومعه جوزه
ومنقد وورقة معسل من أفخر الاصناف ، وضرب عبودة أصابعه
الحمسة فى العمامة وأخرج لفافة من الورق السوليفان وقضها
بسرعة ثم أخرج من الورق قطعة حشيش قضمها بأسنانه
وشمها بمزاج وقال وهو يمصمص بشفتيه .. أحسن صنف
والى خلق الخلق .. دلوقت هتشرب حاجة نضيفة !

وراح عبودة يحكى وهو يسوى قطع الفحم المشـتـt

وقلت له وأنا أتفرس المكان كله .. امال امتى هتطلعوا ؟
وأجاب فى هدوء أشد : لما القمر يغيب .

ونظر الى نظرة فاحصة وقال وعيناه مصوبتان فى عيني .
أنا تشوفنى طول ما القمر طالع .. لما القمر يروح ،
ما تشوفنيش ، هابقى فى الجبل من غير مؤاخنة .. وهاشيب
الانجليز والى خلق الخلق ، على الحرام من بيتى ما هاسيب
انجليزى واحد فى بلدى .. ياخبر اسود يا جدعان ، ثم مسح
عبودة مسدسا ضخما كان يخفيه فى طيات ملابسه وأطلق
عدة طلقات فى الفضاء !

جاء الرجال من الخارج وأكلنا حتى شبعنا ، وكانت الكميات
المطروحة أمامنا تؤكد بعد نظر عبودة .

فقد بذل الباعة بسخاء من أجل خاطر المدفع الذى حمله كل

رجل وهو فى رحلة البيع والشراء ! •

ولقد مضت أيام طويلة بعد ذلك ، وغاب القمر وطلع القمر أكثر من مرة ، ومع ذلك لم يختف عبودة ، ولم يلجأ للجبال ! ظل مكانه فى الخرابة الى جانب عشة الصفيح يدخن الحشيش ويأكل السمك الحفار ويستعرض جيشه داخل الخرابة ، ولم يكن فى السويس أى نوع من أنواع الحركة ضد جيش الاحتلال ، وكانت الحياة تدور داخل المدينة بشكلى عادى دون أى تغيير ! الرجال يشربون الشيشة على المقاهى • والانجليز يطلقون النار على الناس حول السويس •

وذات جلسة مع حامد عبد العزيز فى اللوكاندة اتفقنا على أنه ما دامت المعركة لم تنشب بعد فى المدينة فلا أقل من أن تنشب على صفحات الجرايد ، وفعلا بدأت المعركة الصحفية عن أعمال وهمية للفدائيين داخل السويس ، وهجوم مسلح فى الخيال على معسكرات الانجليز فى الصحراء ، وارتفع التوزيع فأغرى عددا كبيرا من الصحف الى سلوك نفس الطريق ، وبدأت المعركة تأخذ طريقها على صفحات الصحف حتى بلغ عدد القتلى الانجليز عدة ألوف يزيدون قليلا عن عدد الجنود الموجودين فعلا فى منطقة القناة !

ونشطت الصحف فى هذا الاتجاه وتطورت الى شىء مضحك ، عربة كرنب تنسف معسكرا ! قطط مشتعلة بالنيران تقتحم معسكر الطيران فى الشلوفة وتحرق جميع الطائرات ! • وفجأة دخل علينا فى الليل رجل يبدو عليه الادب الشديد يرتدى بنطلون أصفر وقميصا من نفس اللون ويرتدى نظارات شبنبر •• ودعانا الرجل فى أدب جم لمقابلة الصاغ عبد الجبار قائد كتيبة أحمد عبد العزيز وكدت أرقص من شدة الفرح هاهى الكتائب بدأت تفد على السويس ، كتائب محترمة وقادمة من القاهرة من أجل الكفاح ! سنسمع طلقات الرصاص أذن ، وسيسقط العشرات قتلى من جنود الاحتلال !

كان الصاغ عبد الجبار يجلس فى بهو فندق بلير ، ولم يكن يرتدى زيا عسكريا ، ولكنه كان يبدو فى بنطلونه وقميصه والبلوفر الأزرق كأنه طالب جامعى على وشك التخرج ! وخلال الحديث الذى امتد ساعات اكتشفنا ان حضرة الصاغ لم يدخل الجيش فى حياته ولكنه كان متطوعا فى حرب فلسطين وانه انعم على نفسه بهذه الرتبة وهو فى طريقه الى السويس ، وان معه

مجموعة من الرجال أغلبهم كان متطوعا فى حرب فلسطين وانهم جميعا على دراية بحرب العصابات ، وقبل ان ننهض عند منتصف الليل كان عبد الجبار . . بس انا عاوز الصحافة تساعدنى بشأن تجمع شوية فلوس ! ولم تفهم العلاقة بين الكتيبة والفلوس . . ولكن عبد الجبار تولى توضيح المسألة بنفسه . . عاوزين تشتري سلاح ومهمات !

اثار حضور كتيبة أحمد عبد العزيز غيظا شديدا لدى عبودة ورجاله . . وحضر عبودة فى اليوم التالى وهدد باتخاذ اجراءات عنيفة ضد كتيبة أحمد عبد العزيز . . وقال وهو يلوح لنا بقبضة يده . . ايه الحكاية ؟ هيه السويس مافيهاش رجاله ، والا ايه . . . على الحرام ماخذ يكافح الا احنا ، وبداء لى عبودة يائسا ومنهارا ومتغاضا ولاشئ بعد ذلك ، هذا الفحل الرهيب الذى بدأ حياته حارس مرمى فى احد نوادى السويس ثم عسكرى مطافى ثم مقاول لم يلبث أن فشل عند اول عملية قام بها لبناء عمارة ، ثم قائدا لكتيبة وحوش الجبال . . . وقف حائرا وسط الغرفة وبصره يتسكع على وجوهنا يريد ان يستشف حقيقة موقفنا من الكتيبة الجديدة ، وفجأة صرخ فى وجهى . . لازم تكتبوا حاجه عن الكتيبة بتاعتنا من غير مؤاخذه احنا هننصف خط سكة حديد الليلاى !

احتدمت المنافسة بين الكتيبتين فى السويس على جمع المال والتقرب من نائب سابق كان أقوى وأهم رجل فى السويس تلك الأيام وكان نائب السويس الوفدى تاجرا طيبا ومنهارا أغلق باب بيته على نفسه وترك الامور تسير كما تشاء وانفرد النائب السابق بالأمر ، وراح يجتمع كل مساء بالفدائيين فى فندق بلير ثم يسهر مع اصداقائه يلعب القمار داخل الفندق حتى الصباح . . وكان النائب اياه لونا فريدا من الرجال . . كان يسهر كل ليلة حتى الصباح قبل ان تتطور الامور الى ما انتهت اليه مع ضباط الجيش الانجليزى وكبار المسئولين فى المحافظة وكان يربح الألوف وينفق الألوف ، وكان شجاعه اشترى الرجال بالمال . . ولم يحدث ان فشل قط فى تطبيق هذا الشعار وكانت اعماله مرتبطة ببقاء الانجليز فى المنطقة وعندما تطورت الامور الى الثورة المسلحة القى بنفسه فى احضان الفدائيين ، مداهم بالمال والسلاح ولكن بشرط ان يتفستوا تعليماته وان ياتمروا بأوامره ! واصبح زكى وليس هذا اسمه هو محوز

الكفاح والنضال في السويس ولقد كان لقائى به أول مرة ، ذات مساء في فندق بلير . عندما هجم علينا الجرسون يحمل ثلاثة أقداح ويسكى على حساب زكى بك الذى أقسم أن نشرب على حسابه حتى الصباح . ولم يلبث أن انتقل بنفسه الينا ، وجلس معنا يتحدث طول الليل عن موقفه من المعركة ثم رأيه فيما ينبغي أن تكون عليه الاحوال وكان رأيه أن الانجليز أساتذة فى السياسة ، وعلى من يريد أن يحاربهم أن يستخدم هذا السلاح . وان الثورة المسلحة ضد الانجليز لن تؤدي الى شيء الا الفوضى والحراب ، وغمز حكومة الوفد القائمة وقتذاك ولمح بالفساد والرشوة المتفشية فى أنحاء البلاد ، وحول المسألة من حرب تحرير الى كفاح ضد الفساد . وقبل أن ننهض لننام قال كأنه يتوسل . . خدوا بالكوم الواد عبودة ، دا عبوده زعلان قوى ، لازم تكتبوا عنه كلمتين ! وكانت هذه أول اشارة الى أن هناك علاقة ما بين عبودة وزكى بك ولكن ماهى حقيقة العلاقة علم ذلك عند علام الغيوب .

ولقد أصبحت منطقة القناة مسرحا لنشاط الغالبية العظمى من الصحفيين بعضهم اجتذبتهم المعركة ليفوز بزجاجات الويسكى الرخيصة ، وخراطيش السجائر الارخص . وبعضهم جاء ليحقق على الورق بطولات وهمية ، وكانت حصيلة المعركة فى النهاية ٨٠٠ قتيل وعدة ألوف من الجرحى ولم يخدش صحفى واحد مع انهم جميعا كانوا على مقربة من المعارك وكانوا مع الفدائيين وسط الحديد والنار . .

ولكن قبل أن تحترق القاهرة وقعت فتنة فى السويس كادت تؤدي الى كوارث رهيبة . واتفق الصحفيون جميعا على عدم نشر أى شيء حول الموضوع . ولكن المصور نقضت الاتفاق ونشرت الموضوع كاملا بالصور . هل كان الامر مصادفة . أنا أقول لا ، بل كان الامر متفقا عليه . ولعبت مجلة المصور هذا الدور الغريب ، ولكن الامور لحسن الحظ سبغت فى هدوء . وصحيفة أخبار اليوم ايضا نشرت قبل ان تنتهى المعركة بأيام قصة جلالة الملك المفدى الذى كان يتمنى أن يهب المعركة بعض أبنائه ، ولما كان لا يملك أبناء يقدمهم للمعركة ، فقد اكتفى بتقديم عدة الاف من الجنهات . ووزعت أخبار اليوم المبلغ على عبودة وكتيبة أحمد عبد العزيز وبعض اللصوص وتجار الحشيش فى القناة . ثم احترقت القاهرة : وتوقفت المعركة فى السويس

واضطرت الى الابحار من السويس على ظهر المركب تالودى ولم
اغادرها الا فى الاسكندرية . والسبب ان زكى بك وعصابته
اتفقوا مع ضابط كبير بسلاح الحدود على قتلى فى الطريق
الصحراوى ، وفى ليلة ١٨ فبراير عام ١٩٥٢ صعدت على ظهر
المركب تالودى القادمة من عدن . وكان معى كامل سالم مأمور
السويس والصاغ زكى جبران واليوزباشى محمد عسل قائد
بلوكات النظام . ولم يغادروا المركب الا بعد ان تحركت ودخلت
قناة السويس واطمأنوا الى اننى قد أصبحت بعيدا عن قبضة
زكى بك وعصابته .

عندما عدت الى القاهرة قادما من السويس كانت أغلب
الصحف الوطنية قد توقفت عن الصدور . وكان أغلب كتاب
هذه الصحف فى السجن والبعض الآخر يطارده البوليس

السياسى ، ومصر كلها تنام من المغرب بالامر ، والرصاص
الشارد يدور فى سماء المدينة حتى الفجر ، وحصل الصحفيون
وأنا منهم على تصاريح بالتجول فى الليل . وكانت فرصة ليجتمع
أصحاب التصاريح فى دار النقابة ليلعبوا القمار للفجر . .
وبالرغم من ذلك فلا بد أن نذكر للحقيقة والتاريخ . أن الصحف
رغم ضعفها ، قد استطاعت خلال عامى ١٩٥٠ و ١٩٥١ أن تدق
آخر مسمار فى نعش العهد الملكى ، فقد تقدم عدة أفراد يحملون
المعاول وهات ياهدم فى النظام القائم . فتحى رضوان واحمد حسين
واحسان عبد القدوس واحمد أبو الفتوح وأبو الخير نجيب و ابراهيم
شكرى وحلمى سلام . وخلال تلك الفترة أيضا نشر مأمون
الشناوى زجله الشهير :

يا ترسملونا يا تبلشفونا

يا تموتونا وتخلصونا

ملعون أبوكو على أبونا

احنا اللى نشقى

ونبص تلقى

خراب وسرقة

من عند برقة

لحد سيننا

وفى تلك الفترة أيضا نشرت كلمة قصيرة فى مجلة الملايين
عن حيدر باشا قائد عام الجيش المصرى وقلت فيها بالحرف الواحد
« ويضعه الخبراء العسكريون على رأس جنرالات الحرب فى العالم

وعلى رأسهم جنرال مونتور وجنرال اليكتريك ،
ولكن ذلك العهد الذهبي للصحافة كان قد انتهى الى الابد ،
وأصبحت الصحف تحت الاحكام العرفية حافلة بالكلام الفارغ ،
وانتعشت دار الهلال لانها لا تنتعش الا في ظل الرقابة والحكم
العرفي ، وانتعشت الاهرام أيضا لانها كانت دائما على الحياد
بين الشعب والحكومة . وبدا واضحا أن أخبار اليوم على صلة
وثيقة بالحكم الجديد وهي التي رفعت شعار التطهير ، وهو الشعار
الذي جاء بالهلالى باشا الى لاطوغلى . . مقرر رئيس الوزراء .

هكذا كانت الحياة تغلي في البلاد بينما مجلة النداء تنام في
واد آخر بعيد . المرتبات أصبحت تقتثر كأنها سيارة تمضي
على طريق صعب مليء بالحفر والمطبات ، ثم راحت تتضاءل كأنها غيظ
قطن نزلت عليه الدودة . وتولى منصب مدير التحرير فيها
صحفي داعر اقترح ضمانا للسلامة وحتى تنكشف الامور اصدار
اعداد خاصة عن المدن الهامة في مصر ، لتكون وسيلة للحصول
على أكبر عدد ممكن من الاعلانات ووقع الاختيار على العبد لله
للسفر الى بورسعيد مع مندوب اعلانات اسمه عبد البصير .
وكانت مهمتي هي تحرير موضوعات عن الميناء وقناة السويس
ومراكب الصيد وشاطئ بورسعيد بينما راح عبد البصير يشرح في
المدينة لجلب أكبر عدد ممكن من الاعلانات والفلوس . . وبدلا
من ان نقضى عشرة أيام كما اتفقنا قضينا شهرا كاملا على
الشاطئ نأكل الكابوريا والسمك المشوى ، ونستحم في البحر
وننفق عن سعة كأننا من أفراد عائلة المرحوم أغا خان .
كان عبد البصير هو المسئول المالي عن الرحلة ، الحق أنه كان
كريما الى حد السفاهة ، وكان ينفق بجنون كأنها آخر
رحلة لنا في العمر . . ولم أسأله أنا عن مصدر الفلوس
ولم أهتم بهذا الموضوع على أي نحو ! وكان عبد البصير نموذجا
غريبا في دنيا الصحافة . كان مدرسا الزاميا في إحدى قرى
المنوفية قبل أن يهجر قريته ويلتحق بوظيفة مندوب اعلانات
بمجلة النداء ، وكانت واسطته نائب وقدي طيب اسمه أبو العنين
جعفر ، رحمه الله ، وكان عبد البصير يدق عصفورة على صدغه
الأيمن ، واشجارا ونخيلا على كف يده وكان شديد الذكاء يعرف
كيف يتفادى قلب العميل ببساطة . وكان يدعى امام زبائنه
من التجار والبقالين أنه عليم ببواطن الامور ، وأنه وثيق الصلة
بقواد باشا وأن زكى العرابى باشا لا يأوى لفراشه قبل ان

يتحدث معه بالتليفون .

ولقد تعرفت من خلال عبد البصير الى رجل ثرى فى
بور سعيد اسمه الايوبى ، كان سميئا وطيبا وجاهلا بدرجة
ليس لها مثيل .

وعندما جلسنا مع الايوبى على رصيف عمارته الجديدة ، زف
الىنا بشرى ترشيح نفسه فى الانتخابات القادمة ، ولما زف اليه
عبد البصير التهانى بالنجاح والفلاح والنصر المبين ان شاء الله
قال الايوبى حزينا ، بس النحاس باشا مش راضى ، غضبان
على .. أنا قلت أنا مستعد أدفع خمسة الاف جنيه بس يسيبونى
أترشح ! وصدق عبد البصير فى الايوبى ولم يتكلم ، رفع يديه
الى أعلى وقرأ الفاتحة وكذلك فعل الايوبى بدون مناقشة ..
وعندما انتهت الفاتحة قال عبد البصير للرجل ، الحكاية دى
خليها على ، النحاس باشا مش هيمانع ، بس ماتجيش
سيرة لحد !

وعقب الايوبى الطيب : ايه .. هو أنا عبيط أجيب سيرة لحد .
ونفض على الفور ونادى على أحد الخدم وامره بأن
يحضر الحروف والجزار فى الحال ، وأقسم أيضا يمينا أنه لا بد
أن يذبح الحروف من أجل خاطر عبد البصير .. وجلسنا فى المساء
حول وليمة فاخرة وزجاجات الويسكى بلا حساب رغم أن الايوبى
لم يكن يشرب ، ولكن ولد خلبوص كان يعمل مستشارا عنده
اسمه جودة هو الذى همس فى أذنه بأن البهوات - عبد البصير
وأنا - لا بد نشرب الويسكى مع الطعام .

وفى نهاية السهرة كان عبد البصير قد حصل على إعلان بألف
جنيه .. ومائة جنيه فكة لعبد البصير شخصيا عربون المساعي
الحميدة التى سيقوم بها لدى رفعة الباشا لتذليل كل الصعاب
التى تعترض ترشيحه .

ولكن خلال هذه الفترة التى قضيتها فى بور سعيد وقع بصرى
على شىء غريب ورهيب ، مراكب ضخمة تعبر قناة السويس
من ناحية الشرق ، وعليها عساكر فرنسيين جرحى وفى حالة
يرثى لها قادمين من الهند الصينية .. ومع هؤلاء العساكر ..
عساكر عرب من المغرب والجزائر وتونس ، أحيانا يهربون من
المراكب ويلجئون للسلطات . ولكن السلطات تسلمهم مرة
اخرى للمراكب .. باعتبارهم جنودا فرنسيين هاربين من
الخدمة ، مع أنهم عرب أولاد عرب ، أحفاد عرب ، ومن دين

محمد عليه الصلاة والسلام ، ولقد هرب احدهم وأنا هناك
واسمه عبد الرحمن ، كان قبل تجنيده أستاذا في جامعة
باريس ، وعندما نشرت قصته رفضت حكومة مصر تسليمه
واشتغل أستاذا في جامعة القاهرة . . وأرجو أن يكون في
مكانه حتى الآن .

وعدت الى القاهرة بعد شهر حافل بالمتعة والراحة ، وعكفت
بعيدا مشغولا ومطهوما بكتابة الموضوعات عن بور سعيد . .
وفجأة ، علمت ان الرجل الطيب عاد من الهند ، وأنه عاد
مريضا وحزينا ومقلسا وقلقا على مستقبله كصحفى ابتعد عن
الجو عدة أعوام . .

وعندما زرته في بيت بعض أقاربه وكان قد لجأ اليه حتى يتقرر
مصيره ، راح يحدثني كالمسحور عن عالم الهند الغامض الساحر
الفقر العجيب ، مصر بمشاكلها وفقرها لا تساوى قطرة في
محيط المشاكل التى تزخر بها الهند ، وعلى من يريد ان يكتشف
روح الانسانية وان يقف بنفسه على مأساة العصر ان يذهب الى
الهند ويتفرج بنفسه على مايدور هناك ، وسحرنى حديثه عن
الهند وتمنيت أن أذهب مثله الى هناك . ثم حدثنى عن الفن
وعن الادب وعن السياسة ، معركة القناة هى أشرف نقطة فى
تاريخ مصر الحديث ! العالم كله كان يتابع أنباء المعركة لحظة
بلحظة .

كم كان الرجل فخورا كمصرى ورماس الفدائين يخترق
سماء الشرقية والسويس .

هكذا كانت الصورة فى الخارج أذن . . يبدو ان الصورة
فى ذهنى كانت باهتة لاننى كنت داخل البرواز ، لاننى رأيت
عبودة والاسرى الثلاثة وافراد كتيبة وحوش الجبال .

هكذا الاشياء لا تبدو قيمتها الا من بعيد ، أو يبدو اننى
لا أدرك قيمة الشيء اذا بدا أى نقص فيه ، وقلت للرجل الطيب
كل شيء ، تفاصيل الاحداث وتفاصيل المعارك والجهود الشريفة
لعساكر البوليس وبغض اللصوص وبعض الرجال الطيبين
مثل سعد زغلول فؤاد الصحفى ومدحت عاصم الفنان ووجيه
أباطة الطيار وبعض الطلبة الجدعان الذين حملوا السلاح ومضوا
الى خط النار وهمست للرجل الطيب بأن فى نيتى ان اكتب كل
شيء ، ولكنه نصحنى ألا أفعل .

مستسكب حبرا على الورقة البيضاء ، وستضع حفنة تراب
فى اناء اللبن .

هكذا قال الرجال الطيب ، سيأتى الوقت الذى يجب فيه
عليك أن تكشف الستار عن كل شيء ، ولكن عليك أن تكشف
متى يأتى هذا الوقت المناسب . . فاذا أخطأت التقدير فسوف
تخدم بكتاباتك قضية الرجعية والاستعمار .

لقد استمعت الى نصيحته فلم أكتب حرفا الا بعد أن جاء
الوقت المناسب ، ولقد جاء الوقت المناسب أسرع مما توقعت .
كنت فى المجلة فى المساء وعبد البصير يحثنى على الاسراع فى
الكتابة لان العدد الخاص على وشك الصدور . .

وظلمت أكتب حتى أغمى على وخرجت من المجلة فى منتصف
الليل الى البيت فى الجيزة سيرا على القدمين .

وعندما استيقظت من النوم كانت الساعة الحادية عشرة صباحا
وعلمت ان الراديو مقطوع ولا يذيع شيئا منذ الصباح الباكر
وان اشاعة منتشرة فى المدينة أن انقلابا عسكريا قد حدث .

وارتديت ملابسى على عجل وخرجت مهرولا الى بيت طوغان ،
وكان عند طوغان عدة أصدقاء . . لاذكر منهم الان الا شقيقه
صلاح والدكتور عبد المنعم عثمان المدرس بكلية الهندسة جامعة
القاهرة الآن .

واكد طوغان الخبر ولكن بلا تفاصيل .
وفتحنا الراديو الميت على محطة القاهرة وجلسنا ننتظر ،
كانت الساعة الثانية عشرة ظهرا واليوم ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢
وكان طوغان فى السادسة والعشرين من عمره وكنت فى الخامسة
والعشرين الا بضعة شهور ، وكان الدكتور عبد المنعم عثمان
فى الرابعة والعشرين وعدة شهور وكان صلاح طوغان فى مثل
سنه .

مجموعة شباب فى عمر الورد ، حيارى وسط أنواء السياسة
المصرية ، ضعاف بلا حول فى مجتمع يدوس بقسوة على الضعفاء
. . غير مؤمنين بما هو كائن . . ولكن ليس لدينا خطة بما ينبغى
ان يكون ، خلاصة القول ، أننا مجموعة من الوطنيين نحب الوطن
المريض ولكن ليس لدينا وجهة نظر بشأن علاج هذا الوطن الذى
أشرف على الهلاك المبين !

وفجأة . . . عادت الحياة الى الراديو الميت . وانطلق صوت
أنور السادات يعلن للناس قيام الثورة ، وصرخت من أعماق

كالمجنون ، وخلعت فردة حذائي وقبلتها من شدة السرور والحبور
لماذا ؟ وكيف ؟ والى أين ؟ أسئلة لم يكن لها جواب فى رأسى ..
ولم يكن الجواب عنها مهما على الاطلاق ، المهم أن الاحوال قد
أنقلبت رأسا على عقب ، وهذا كل ما كنت أتمناه .

أهم من هذا ان أنور السادات هو الذى يذيع البيان ، هذا
الرجل الذى نعرفه ! فقد كان يتردد على كازينو شهريار فى
الجيزة يشرب فنجانا من القهوة مع صديق أسمه حسن عزت
كان طيارا فى تلك الايام .

وذات مساء حضر فى ملابس مدنية وجلس مع طوغان ثم
انضمت اليهم ، وراح يتحدث عن الاوضاع فى البلد ، والجنون
الذى يتخبط فيه النظام . ثم نهض وانصرف ونهضنا معه حتى
ودعناه عند الباب ، وسألت طوغان ونحن نجلس حول المائدة .

مش دا ضابط فى الجيش ؟ وأجاب طوغان بالاجاب ، فسألته
.. طيب آمال ليه بيقول الكلام ده ؟ وكان غريبا فعلا ان يجاهر
ضابط جيش بعدائه للنظام ، وقال طوغان بطريقته وهو يضرب
راحة يده الشمال بقبضة يده اليمين .. يابنى لو حصل حاجة
فى البلد دى يبقى الراجل ده فيها .. وضغط على « الراجل ده »
بشدة ! ، ولم أهتم بكلمات طوغان كالعادة .. ولكنى عدت
فتذكرتها تلك الساعة ، وقمنا يعانق بعضنا بعضنا ، ثم هرولنا
جميعا نحو الشارع .

وهكذا أصبحت مندوبا للمجلة فى القيادة العامة ، فقد
استقبل أصحاب المجلات الرجعية الحركة الجديدة بقليل من
الترحيب وكثير من الحذر . وأرسلوا أقل المحررين شأنا
ليتفاهموا مع .. حركة الضباط .. ولما كان هذا الوصف ..
أقل المحررين شأنا .. ينطبق على العبد لله ، فقد أصبحت
واحدا من طقم مندوبى القيادة ! ولما كانت مجلة النداء ليست
فى حاجة الى اخبار ، ولما كنت أنا الآخر لأهتم بهذا اللون من
العمل الصحفي على الاطلاق .. فقد اكتفيت بالجلوس على باب
القيادة أفرج على الزوار والمترددین على مقر السلطة الجديدة
ولم يكن جهلى بما يجرى فى داخل القيادة أقل من عدم اهتمامي
بهذا العمل الجديد .. فلقد كان محمد نجيب يبدو فى الصورة
على أنه زعيم الثورة ، بينما كانت الشفاه تهمس بأسماء أخرى
وتؤكد أن أصحاب هذه الاسماء هم القادة الحقيقيون للثورة ..
ولكن أنا شخصيا كنت قد وصلت الى قرار فى هذا الشأن وهو

ان أنور السادات هو زعيم الثورة ، هو الذى اذاع البيان وهو الذى
رأيته بعيني وأبى يجلس فى كازينو شهر يار يلغن سنسفيل
جدود العهد البائد !

ويوم خروج الملك فاروق من مصر خلعت قناع الوقار الذى
ارتديه أحيانا كصحفى ووقفت أرقص عشرة بلدى فى ميدان
عابدين وسط الجموع الحاشدة بينما كانت الدبابات تحيط
بالقصر الملكى من كل ناحية . ولأول مرة أشعر أننى لا أخشى
الدبابه . لقد كان منظرها دائما ييبث الرعب فى نفسى ، حتى
يوم قيام الثورة شعرت بنفس الخوف وأنا أتجول فى شارع
قصر النيل لان الراديو كان قد حذر من التجمع فى الشوارع .
وعندما نسينا هذا الانذار فى غمرة الفرحة ووفقنا أكثر من
عشرين شابا تحت عمارة الايموبيليا نتكلم بصوت عال للغاية ،
اقتربت منا عربة مصفحة وأمرنا الضابط بالانصراف .
وانصرفنا فى سكون حتى انصرفت العربة المصفحة ، ثم عدنا
الى التجمع من جديد وفى نفس المكان . ولكن عسكرى الدورية
الطيب أقرب منا وقال فى لهجة ناصحة « ياللا يافندى أنت وهو
ممنوع الجمهورية » !

كانت الثورة فرصة للعبد لله لكى يشرع قلمه من جديد
ليكشف كل شئ دار فى السويس خلال معركة القناة . وعندما
تعرضت لرجل هناك يدعى سيد السائيس وهو ثرى أمثل بدأ
حياته سائسا فى جراج ثم انتهى صاحب جراج ودار سينما
ومتعهد للجيش البريطانى . . وفى حرب التحرير عام ١٩٥١
اشترك فى المعركة ووضع جميع سياراته فى خدمة الفدائيين ،
وكانت السيارات تدخل المدينة كل يوم تحمل شحنات الاسلحة
المهربة ، هكذا كان سيد السائيس يزعم ، غير أن الحقيقة كانت
عكس ذلك ، فقد كانت سيارات السائيس لا تحمل فى الواقع
الا شحنات الحشيش ! وفوجئت فى العدد التالى لنشر الموضوع
بخبر صغير فى الصفحة الاولى « فصل محمود أفندى السعدنى
من وظيفته بالمجلة » هكذا تحولت بخبر من سطرين الى أفندى
مفصول من وظيفتى بالمجلة ! وعلمت بعد ذلك ان سيد السائيس
حضر من السويس ودفع ألف جنيه مقابل نشر إعلان وبشرط
فصلى من المجلة .

وما كان أسهل الفصل فى تلك الايام . وبينما كان يلعب على
سطح الحياة الصحفية عدة افراد من الكتاب كان يعانى المئات

من المخبرين والمحورين الصغار القلق والعذاب والطرد الى
الشارع وبلا مكافأة على الاطلاق . حتى مرتب الشهر الذى
اشتغلته لم أقبضه !

وهكذا عدت والثورة لم يمر عليها سوى شهر واحد الى
الشارع عاطلا مفلسا ولكن بأمل جديد . . أن الامور لن تلبث
طويلا حتى تعود الى الوضع الطبيعى الذى ينبغى أن تكون عليه!
ولم لا ؟ وأنا من جيل الثورة . . هؤلاء الكتاب الكبار تعفنون
تماما وتورطوا فى النظام الملكى حتى أصبحوا جزءا لا يتجزأ من
النظام . . الصحفى الكبير الذى كان كل مجده فى الحياة أنه
يرافق جلالة الملك فى رحلاته للخارج ، والذى تلوك الالسنه
سيرته على أنه كان يوما ما عشيقا لجلالة الملكة الام ! والصحفى
الكبير الآخر الذى كان يجلس على مائدة الملك ليضحكه حتى
يستلقى الملك على قفاه . . والصحفى الكبير الثالث الذى أراد
الملك أن يمزح معه فدفعه الى حوض السباحة وهو فى كامل
ملابسه . . ثم خرج من حمام السباحة يشكر جلالة الملك (!)
على هذه اللقطة الكريمة التى خص بها صاحبة الجلالة الصحافة
دون سواها من الهيئات . هؤلاء السادة أصبحوا جميعا بهوات
وباشوات وبغضهم يحمل نيشان محمد على ! لابد أن الثورة
ستنحيهم عن الطريق لتفسح لجيل العبد لله طريقه فى الصحافة .
والاقلام التى سبحت فى بحر النفاق لجلالة الهلفوت التى يتربع على
العرش لابد ستتوارى الآن خزيا عن أعين الشعب !

ولكن . . ما أغرب الحياة . . نفس الاقلام هبت تقاتل من مواقع
الثورة وكأنها هى التى صنعت كل شئ . وراحت هذه الاقلام
تكتب بشراة عن مجنون الملك وجنون الملك . والملك على الشاطئ
الاخر من البحر الابيض المتومنت .



أخيرا تأكد أصحاب هذه الأقلام أن كل شيء قد انتهى بالفعل فتحولوا الى دودياكلون من الجثة التي تحولت الى جيفة وطاف بنفسى المدعورة خاطر كتيب . وهو ان كل شيء سيبقى فى غابة الصحافة على ما هو عليه . . . الوحوش فى الصدارة والموهوبون يتخبطون فى الظلام . . . الى اين اذهب الان وانا مفلس وعاطل وضائع ويبدو انه لم يعد لدى امل فى العودة مرة أخرى الى عالم الصحافة . . . وانا رجل فى اعماقى متشائم وحزين رغم ما يبدو على من سعادة ليس لها نظير . . . وعدت من جديد الى مكائى على باب القيادة رغم أننى لم اعد امثل احدا الا نفسى وفوجئت بزميل آخر جاء يمثل المجلة فى دار القيادة ، ولذلك اكتفيت بالجلوس دون ان أسال أحدا او أتكلم مع أحد !

أذن لماذا جلست عند الباب ؟ لا أدرى . . . سوى اننى لم اكن أعرف شيئا آخر أصنعه . على الاقل أنا من هذا المكان اتفرج على عشرات من الاشخاص الذين يصنعون التاريخ فى تلك اللحظات من عمر الوطن . ولكن انا لست من هذا الطراز من الناس الذى يستطيع ان يجلس فى مكان ولا يلفت إليه الانتظار.

ولكنى من طراز آخر يلفت الانظار رغم انفه ، وأيضا يجر على نفسه المصائب فلقد رجحت أكلد محمد نجيب وهو يخطب في حركات كاريكاتيرية . وكان الصحفيون يلتقون حولي وأنا أخطب للجماهير الوهمية المحتشدة امامي ، وجذبت الضجة الوانا أخرى من الناس خارج دائرة الصحافة . . عساكر وضباط وبعض الزوار ولكنى لم اتوقف . وعيبي الكبير اننى لأجيد تقدير الاشياء تقديرا حقيقيا . احيانا ابالغ في تضخيم الشيء وحيانا ابالغ في تحقيره والناس فى نظرى نوعان ، عدو حتى الموت او صديق حتى النهاية .

ولقد كان لى رأى فى بعض مندوبى الصحف فى القيادة ، ورحت اجهر بهذا الرأى فى كل مكان . أحدهم وكان مندوب جريدة كبرى كان مرتشيا ومغامرا وافاقا . وكان له موقف مريب خلال معركة القناة . . وكان وثيق الصلة بضباط القسم المخصوص وبوليس السراى . وكان يقوم بخدمات فى الظلام لجميع الاجهزة التى كانت تحكم مصر فى العهد البائد وعندما قامت الثورة هرع الى القيادة العامة ، وكان انشط الجميع واعلاهم صوتا . وكان يقف على باب القيادة يرحب بالقادمين كأنه صاحب الفرح ، ويتحدث عن قادة الثورة ، باعتبارهم رفاق الصبا واصدقاء الطفولة ولقد حوكم هذا الصحفي بعد ذلك أمام محكمة الثورة وادين وذهب الى اللومان لينقضى مدة العقوبة .

وصحفى آخر بدأ حياته فى حانات شارع عماد الدين ولما انتقل نبض الحياة الثرية الطرية فى مصر من صالات شارع عماد الدين الى صالات الاحزاب السياسية ، انضم الى الحزب السعدى واصبح فتوة للمرحوم حامد جودة رئيس مجلس النواب فلما غربت شمس الحزب السعدى وتولى الوفد مقاليد السلطة انتقل هو الآخر الى حزب الوفد واصبح فتوة لأحد الوزراء . فلما قامت الثورة انتقل على الفور ليعمل فتوة لصاحب مجلة كانت وقتئذ مشهورة بعداثها لكل الاحزاب ولم يجد صاحب المجلة من يرسله مندوبا عنه الى القيادة سوى الفتوة الخاص وكان الزميل أياه يتصرف هناك على أنه عليم ببواطن الامور . وكان حديثه كله يجرى ويدور حول حضرة الصاغ الذى لا احد منا يعرفه على الاطلاق والذى كان زميلنا ايام حريصا على اخفاء اسمه . . أصل حضرة الصاغ قال كيت . حضرة الصاغ كلمنى النهارده فى التليفون وقال كذا . . وكنا اذا سألناه عن الوقت

أجاب . . الساعة كذا لكن ساعة حضرة الصاغ مقدمة شوية .
أما الزميل الذي حل محل فقد كان شأنه أعجب من العجب
كان صاحب صالون حلقة في سالف الزمان وكانت كل بضاعته
في الحياة وسامة وأناقة كأنه مطرب مشهور . ولم يكن في رأسه
أى شىء ولم يكن قد قرأ أى شىء حتى كتب المطالعه . وكان
ضعيفا فى الاملاء ، يرسم الحروف والكلمات ولا يكتبها . وكان
يقسم خلال حديثه بالنهار العظيم ، وحياة دا النهار العظيم
والا ينكسر وسطى . . وكان يطلق على دور المسحف وصف
مخلات . . وكان يسأل كل زميل يقابله . . أنت بتشتغل فى
أى محل ؟ يقصد جرنال .

وكان دائما يردد عبارة مشهورة . . انا كل ماروح محل
الاقية عاكس زى ما يكون حد عامل لى عمل . . وكان من عادته
كل اسبوع كتابة تحليل للموقف السياسى الراهن . ويوم
تحرير المقال يذهب الى كازينو أوبرا ويجلس فى التراس ومعه
زميل غلبان يطلب له كباب وسلطة طحينة وواحدشاي ويشترى
له علبة سجائر ، ثم يجلس هو فى هدوء يدخن الشيشة حتى
ينتهى الزميل من عشائه . وعندئذ يطلب اليه ان يكتب له مقالا
لانه مرهق وهو السبب الذى كان يسوقه كل اسبوع . أو
مرهك على حد تعبيره هو نفسه . ولقد اخذنى ذات ليلة حارة
الى كازينو أوبرا وبعد ان تعشيت وشربت الشاي واشعلت
سيجارة وحملت الله ، جذب نفسا من الشيشة ، وناولنى قلم
حبر باركر لم اكن قد استعملت مثله فى حياتى ، وقال هيه . .
اسمع بقى انا اصلى مرهك ومش عارف اكتب . . انا حقواك
على الافكار وانت بسر تعمل شوية انشا بس وحياة والدك
تكتبهم كويس . ثم راح على الفور يشرح لى الخطوط العريضة
فى السياسة المصرية لكى اصبوغها أنا فى مقالى : اسمع . شوف
بقى ، هيه المسألة ايه السفارة الانجليزية زعلانة ، أى كده وحياة
دا النهار العظيم . وهيحصل كده شوية نكد . لكن ربنا يسلم
انشاء الله ، واخذ بالك ، اكتب بقى . وحدثت فى هذا الرجل
الغلبان الذى لو استمر فى صالون الحلقة فلربما صادف نجاحا
لامزيد عليه . ما الذى جعله يهجر مهنته الأولى ويقتحم غابة
الصحافة ؟ ما الذى دفعه الى احتلال هذا المكان الذى يوجد
فيه الان وما هى مقاييس النجاح اذن وما قيمة الجهد الذى بذله
هؤلاء المؤلفون السذج فى تأليف الكتب الضخمة عن دليل الرجل

الناجح فى المجتمع وابتسم تبتسم لك الحياة الى آخر هذا الكلام الفارغ وما قيمة هذه العبارات المنمقة الجميلة التى تحتل أغلفة كرايس وزارة المعارف والتى تنصح ، أسهر الليالى فى طلب المعالى والتى تؤكد ان من يطلب العلايلى : هذا الصحفي الجالس أمامى يكذب كل النصائح وكل الكتب وكل القيم وكل المقاييس التى تعارف عليها الناس . لم يسهر الليالى ولم يطلب العلا ولم يسمع للمكان الذى يشغله الان ، ومع ذلك فقد وجد نفسه فيه . وهو كاتب سياسى يحرر الموقف السياسى فى مجلة ذائعة الصيت ، او الموقف كما كان يسميه .

هل المسألة حظوظ ؟

أم أنه ليس بالكفاءة وحدها ينجح الانسان وانما بالصدفة أحيانا وبالفلوس و . . . بأشياء أخرى أغلب الأحيان . . .

لقد قرأت مرة لجوركى عبارة على لسان احد ابطاله يقول فيها اذهب الى الميناء واشتر لنفسك بنطلونا جديدا

انك يبنطلون جديد ترتفع فى أعين الناس ، فاذا سقطت عنك البنطلون ، سقطت انت الآخر . اذن بالبنطلون الجديد تستطيع أن ترتفع فى أعين الناس ، وبالشقق و تستطيع ان ترتفع فى الوظائف . ولكن حتى فى مهنة الكتابة ؟

يجوز أن يرتفع كاتب ردىء بهذه الوسائل الى مكانة الكتاب العظام . ولكن ان يرتفع رجل جهول يحتاج الى وقت طويل فى فصول محو الامية . فهذا هو الشيء الذى لا يزال فى حاجة الى تفسير .

ولقد كان الرجل طيبا الى حد انه نصحنى مرة بالا أشغل نفسى كثيرا بالكتابة . . . أرحم نفسك شوية ، مانتش شايف طه حسين جراه ايه ، اهو فضل يكتب لحد ماعمى .

و ذات صباح من شهر اغسطس سلخت الاستاذ اياه فى القيادة العامة وسخرت منه بشدة ويبدو أنه وشى بى عند احد الحراس ، لان احدهم جاءنى بعد فترة يسألنى لماذا اتواجد فى هذا المكان ، وفى أى الجرائد اعمل ؟

ولم استطع ان افسر وجودى بالفعل ، ولم استطع اثبات اننى اعمل فى أى مكان . ولكن رجل الحراسة كان طيبا رغم كل شيء فنهرنى بشدة وامرنى بالذهاب على الفور وعدم العودة الى هذا

المكان • وحمدت الله على ان المسألة انتهت عند حد الزجر والطرود
ولا شيء آخر •

وخرجت أجرى من القيادة وقلبي يدق بسرعة وبدني كله يرتعش
أنا ابن الجيل الذي كان يحلم بهذا اليوم •• يوم ٢٣ يوليو
والذي ساهم بجهد متواضع فيه ، والذي كان ينتظر ان ينفتح
أمامه الطريق لكي يمضي على طريق الثورة الى حيث تلتقي
ارادتها وارادته ، أنا الذي تحولت الى عاطل ومفلس ومطرود
أيضا من داخل القيادة ، لانني فعلا بلا عمل ، ووجودي هنا
مريب •

وعند الباب فوجئت بعربة سوداء كبيرة تقف ، وينزل منها
الاستاذ الكبير محمد التابعي ، فقد كان على موعد مع محمد نجيب
وانا كنت أعرف محمد التابعي معرفة جيدة ، رغم اننا لم
نلتق الامر واحد ولعدة دقائق لا تزيد •

فلقد كنت مدمنا على قراءة مقالاته • واعترف انني تعلمت
منه الكثير • وانه الوحيد من بين كتاب الصحف الذي بهرني
بشدة وخلق لبي وجعلني اتبعه كالمجنون ! ياله من اسلوب
رشيق وانيق ولاذع كان يكتب به التابعي تلك الايام • وعندما
رأيت اول مرة في عام ١٩٤٨ حين جاء يزور معرض طوغان ،
صافحته بحب وهممت ان أقبل يده • هذه اليد التي تكتب
مثل هذا الكلام بمثل هذا الاسلوب لا بد ان تكون يدا من نوع
آخر مختلف • وعندما طلبت منه ان اراه دعاني لزيارته في اي
وقت أشاء !

وصدقت أنا وقبلت الدعوة وذهبت بعد ذلك بأيام الى بيته
في الزمالك ، وصعدت السلام وثبا فقد رفض البواب ان أصعد
في الاسانسير بحجة أنه معطل !

وعندما وصلت الى باب الشقة كنت قد نزفت آخر انفاسي
وطرقت الباب بخوف وبأدب شديد • وخرج لي عملاق اسمر
من الداخل وسأله عن الاستاذ فقال : موجود •• مين انت ؟

وقلت على الفور وبزهو شديد للغاية: محمود السعدني •• ونطقها
كأنني أقول نابليون بونابرت أو الجنرال ديغول أو المستر
تشرشل !

وغاب الرجل دقيقة وعاد ليقول الاستاذ : مش موجود ..
واغلق الباب ونزلت مجروحا اناد أبكى وأنا أزحف على السلم
ثم توفعت فجأة وأخرجت قلما وانتزعت ورقة من جيبى، وكتبت
عليها بالحرف الواحد : « تابعى » ان لى قلما كقلمك ولكنه أروع
وأرفع ، وعندما يحن الوقت المناسب سأنشر على الناس قصه
الذين يسكنون الزمالك ويكتبون عن الناس فى زينهم وحوش
بردق .. وصعدت السلالم من جديد وهممت بطرق الباب لاعطى
الورقة للخادم .. ولكن لم افعل .. خشيت أن يضربنى الرجل
العملاق ويسلمنى للبوليس فتنزمت من جديد أزحف على السلم
والورقة فى جيبى . ولعنت نفسى لأننى صدقت الاستاذ وزرته
وهاهو التابعى امامى بلحمه ودمه على باب القيادة وانا أيضا
على بابنا . ولكن ما أبعد الفارق . رجل الحراسة الذى طردنى
جاء مسرعا وضرب تعظيم سلام للتابعى . بينما رحت انا ازحف
فى شارع الجيش الى حيث لا أدري .

عشرة اسابيع وانا قعيد البيت كالولية الحايبة أكاد أتمزق
غیظا بينما مصر تموج بالحياة والحركة . وكانت أمى لا تكف
عن النقار والشجار وقد غرقت فى بحر من الغم لان ابنها
الكبير قد أصبح عاطلا . وعاد معظم أقربائى يلحون على فى ان
استوظف فى الحكومة لاضمن دخلا ثابتا ثم أهوى الصحافة
بعد ذلك كما أشاء وفعلا رحت اكتب طلبات لمديرى المصالح
استرحم سعادتهم ان يلحقونى بعمل مناسب حيث أنى أعول
عائلة كبيرة .. وبالطبع لم تجد هذه الطلبات شيئا فقررت السفر
الى زفتى حيث كان يعمل احد أصدقائى هناك ملاحظ مبانى .
ولا أدري كيف اقتنعت بان ملاحظ المبانى سوف يستطيع الحاقى
بوظيفة مناسبة . وفعلا سافرت فى قطار الصباح الى زفتى
وعندما رآنى صديقى الملاحظ لم يبد ترحيبا كبيرا بى وعندما
انتهى من عمله سحبنى الى حيث يقيم . واكتشفت أنه يقيم
مع ثلاثة من زملائه فى حجرة رطبة عارية من الاثاث . وجلسنا
حمدا نحمد الخمسة فى صمت كئيب . ثم سحبت احدى حلة
وواو! بور جاز ثم حدثت حركة مريبة فقد خرج احدى من الحجرة
ثم نادى على صديقى الملاحظ ثم خرج الجميع بعد ذلك وتركونى
وحيدا فى الحجرة واستمعت وانا جالس فى الظلام والصمت
نقاشا عاليا فهتت من خلال الكلمات المتناثرة ان الخناقة كلها
حولى : ومن الذى سوف يدفع ثمن عشائى هذه الليلة ولقد

اجتدم النقاش بينهم بينما أصر صديقي الملاحظ على ان يتحمل الجميع ثمن عشائي لانه سبق له ان دفع نصيبه في عشاء صديق أحدهم مرة من قبل واحسست اننى اذوب من شدة الخجل ، وتمنيت لو انشقت الارض وابتلعتنى كى اتخلص من هذا الموقف الرهيب الذى وقعت فيه . ولا أدري ما الذى اتفقوا عليه ؟ ولكنهم عندما عادوا استأذنت منهم لحظة بحجة شراء علبة سجائر . وخرجت من الحجرة هائما على وجهى فى حوارى زفتى وفى المحطة اكتشفت ان ما معى من النقود لا يكفى لعودتى الى القاهرة بالقطار وفى الدرجة الثالثة !

وعدت الى القاهرة فى الفجر فى عربة نقل محملة بالفواكه ولم تكد تمضى أيام على عودتى حتى مر على فى البيت الصديق الطيب يوسف فكرى ودعانى للعمل معهم فى جريدة الجمهور المصرى . . . وكان هناك محمد حمدى أول صحفى محترم صادفني فى أول حياتى الصحفية ، وكان هناك أيضا فتحى الرملى وكمال النجمى وطوغان وسعد زغلول فؤاد وابراهيم البعثى والامير المليجى وكان هؤلاء الصحفيون الوطنيون يعماون مع مجموعة من الصحفيين القدامى أحدهم كان ينتحل لقب دكتور . وكان يزعم أنه وثيق الصلة بالحركات السياسية فى مصر ، فى الوقت الذى كان يعمل فيه سكرتيرا شخصيا للنشيل عباس حليم . وكان على صلة فى الوقت نفسه بعدد من رجال السفارات الاجنبية وكأ يحمل مسدسا فى جيبه وكان يروح به دائما اذا اجتدم النقاش بينه وبين صاحب المجلة !

ومحور آخر عجوز كان يعمل بالصحافة منذ عام ١٩٢٥ وكان على صلة بالنوليس السياسى وسبق له تزوير وثائق سياسية هزت مصر هذا خلال حكم الملك فؤاد ، وكان صابر - وهذا اسمه خنزيرا بكل ما فى الكلمة من معنى ورغم اشتغاله بالصحافة كل هذا الوقت الطويل الا انه لم يكن قد قرأ فى حياته حرفا فى جريدة او كتاب .

وكان الى جانب عمله الصحفى يحترف عدة مهن اخرى ، مستشارا صحفيا لاحد ابناء الدول الشقيقة . . مديرا لاعلانات إحدى المؤسسات الوهمية ، وكان صامتا دائما ، يبدو فى احسن صحة على الدوام . . لا يناقش اى أمر صادر اليه . . ويتقبل اى اهانة توجه له ويقبل العمل بأى مرتب يعرض عليه .

ولقد زاملته مرة واحدة في حياتي في تحقيق صحفي عن رجل يدعى ابو المعاطي الفقى كان اكبر تاجر للحشيش في مصر ويوم الافراج عنه ذهبت مع صابر الى باب ليان طره وانتظرناه حتى خرج . . . وجلس الزجل معنا على قهوة أمام باب السجن يحكى كلاما يصلح مادة لتحقيق صحفي خطير عن تجارة المخدرات .

ثم نهض معنا الى قهوة ايزافتش في ميدان التحرير وطلبنا افطارا ، ومن عادتي الا اتناول طعام الافطار قط ولذلك اعتذرت ولكن صابر غمزني في وركي ثم طلب سجاير رغم انه لا يدخن وارسل الرجل المهرب احد اعوانه فاشترى له خرطوشة سجاير كرافن ثم انتحى به جانبا وهمس في أذنه بكلام ثم اخرج الرجل شيئا من جيبه ودسه في يد صابر . . . ثم انصرفنا لكي نكتب التحقيق الصحفي الخطير وفعلا كتبت تحقيقا من واقع كلام الرجل المهرب وسلمته لرئيس التحرير ولكن هذا التحقيق لم ير النور قط ونشر بدلا منه تحقيق آخر بقلم صابر كله تمجيد في الرجل المهرب واشادة به ونصائح منه موجهة للشعب المصري الكريم وكأنه الجنرال نابليون وقد فر هاربا من جزيرة كورسيكا .

ثم علمت بعد ذلك ان هذا التحقيق نشر كاعلان ، وان صابر تعهد بالحصول على مائة جنيه اجرا للنشر ولكن عندما طالبتة المجلة بالدفع اعتذر المهرب لانه دفع عشرة جنيهات للاستاذ صابر وهو كل ما يستطيع دفعه مقابل نشر هذا الكلام . واضطر رئيس التحرير الى نشر مقال آخر بدون توقيع كله هجوم على المهرب وتحريض للبوليس ضده . . . وختم مرتب شهر كامل من صابرومع ذلك لم يعترض ولم يحتج فقد كان يحصل على اضعاف مرتبه عن طريق التهديد والنصب .

محرر ثالث كان شابا وخريج جامعة ولكنه كان طموحا بلا موهبة متطلعا بلا مبادئ وكان يبدو دائما نافشا كالديك ، يحكم من طراطيف انفه بينما السيجارة ملك مصر ترتعش دائما بين شفتيه ويفتى في اخطر المسائل باعتباره عليما ببواطن الامور .

وكان دائم التهديد لزملائه باعتباره وثيق الصلة بكبار المسئولين في المخابرات وكان صاحب المجلة يكرهه ويطمع في رضاه .

ولقد انتهى هذا الشاب المغرور نهاية مفاجئة وقاده عدم ايمانه
بأى شىء الى كثير من المواقف المشينة ثم ضبط فى النهاية
متلبسا بجريمة خلقية تشين الرجل . وقد ترك الصحافة بعد
ذلك الى الابد .

الى جانب هذه المجموعة المتنافرة المتباينة كان يعمل
الصحفى اياه صاحب صالون الحلاقة . والاخر الذى كان
فتوة فى صالات شارع عماد الدين .

وعندما ظهر أول أعداد المجلة طرد محمد حمدى يرحمه الله بلا
شفقة ، وتم تخفيض جميع المرتبات . . . وتناقص مرتب العبد لله
من ثلاثة عشر جنيها الى عشرة جنيها . . . وجاء سكرتير
تحرير جديد أفتى بأن عصر المقالات قد انتهى ، وان الصحفى
الجيد هو المخبر الجيد . . . وان الشهر القادم سيكون امتحانا لكل
العاملين بالمجلة . . . فالذى يحصل على أخبار جيدة سيبقى ،
والذى يفشل سيتوكل على باب الله ! ولقد وفقت بطريق الصدفة
فى الحصول على أخبار غاية فى الخطورة والاهمية ، وأصل الحكاية
أننى كنت فى زيارة لمجلة الدعوة التى كان يصدرها صالح
عشماوى أحد أقطاب الاخوان المسلمين الذى كان فى خلاف مع
الجماعة !

وبينما كنت أجلس فى الحجرة فى انتظار طوغان الذى كان
ينشر رسوما هناك ، دخل الحجرة افندى منظره يوحى بأنه
خوaja وانه غلبان وانه لم يخلع هذه البدلة منذ عشرة أعوام
على الاقل !

وجلس الرجل مترددا كأنه يدخل المكان أول مرة ، وعندما
سألتة عما اذا كان يريد احدا ، ابتسم فى هدوء وقال أنا محرر
هنا !

وبدا من لهجته أنه خوaja فعلا . . . وازدادت دهشتى أكثر
عندما علمت أنه يهودى أيضا وانه فعلا يعمل محررا فى مجلة
تنطق من بعيد بأسم الاخوان المسلمين !

وقال الرجل الخوaja وهو يبرر لى هذا الموقف ، أنه كان على
صلة بالمخابرات البريطانية وأنه يعرف اسرارها جيدا ، وانه
يعلم كل حركات وتحركات الجيش البريطانى فى القنساء ،
وتأكيدا لكلامه أطلعنى على الاخبار التى حصل عليها لتنتشر فى
أول عدد من الدعوة .

وكانت الاخبار - لو صحت - هامة فعلاً وخطيرة ، تنقلات بين كبار رجال المخابرات البريطانية في مصر ، تأجير عشرين شقة في القاهرة لعملاء المخابرات البريطانية . . . وصول طائرة شحن ضخمة الى قاعدة أبو صنوير البريطانية وعليها شحنة من الاسلحة الذرية ، هل هذه حقائق أو أوهام أم اخبار مدسوسة ؟ أنا شخصياً لم أفكر طويلاً في هذا الامر ، حفظت الاخبار عن ظهر قلب ، وعندما خرجت من مجلة الدعوة أعدت صياغتها من جديد ، وقدمتها لسكرتير التحرير النشيط فقرح بها كثيراً وخرجت مجلة الجمهور المصري وكل عناوينها الضخمة من انتاج القيد لله ، ومع ذلك لم تشفع لي هذه الهمة في سرقة الاخبار ، فقد فصلت في نهاية الشهر بحجة اننى غير منتج . . . والسبب الحقيقى اننى لم أكن مؤمناً بعبقريه الاستاذ سكرتير التحرير ! ولكنى عدت بعد ذلك بشهر واحد الى المجلة وبثلاثة عشر جنيهاً كل شهر ، وكان فى المجلة مخبر بوليس من قسم الموسيقى عين لحراسة رئيس التحرير بعد ان تلقى عدة خطابات تهديد من القراء . . . ولان التهديد لم يكن جدياً ، فقد تحول المخبر بعد فترة الى فراش ، ثم تحول الى تاجر مخدرات يبيع لمن يرغب وعلى الحساب ، ولما كانت الرقابة مفروضة وقتئذ على الصحف ، فقد عهد الى المخبر بحراسة الرقيب أيضاً ، فاصبح حارساً للرقيب ولرئيس التحرير فى الوقت نفسه !

وكان رقيب المجلة شيخاً معماً معمولاً ثائر الاعصاب على الدوام ، ينتفض اذا تكلم ، ويرتعش اذا صمت ، وكان مدرساً فى الجامعة الازهرية وصحفياً فى الوقت نفسه . . . فلما فشل فى الصحافة أصبح رقيباً على الصحفيين ، وكانت الرقابة فرصة ليفرز عقده النفسية وليضطهد زملاءه السابقين ليس خدمة للحكومة ولكن خدمة لاغراضه الشخصية ، وكنت أنا أكثر المناوئين له واقدرهم على اثارته ، وذات مرة سافرت الى القناة وعدت بتحقيق صحفى عن القوات البريطانية هناك .

وراح الشيخ الرقيب يقرأ ويشطب حتى شطب المقال كله الا عدة سطور ، ولم تكن هناك تعليمات بالشطب ، ولكن الشيخ عثر على فرصة ليفيظنى ، وعندما وصل الى امضائى اسفل المقال قام بشطبه أيضاً ، وعندما سألته هل لديه تعليمات بشطب الاسم أيضاً باعتباره من المنوعات ، صاح بأعلى صوته

ونادى على المخبر ، وامره بان يطردنى فورا ليس من الحجرة فقط ، ولكن من دار المجلة .

ووقف المخبر حائرا لا يدري ماذا يفعل ، فهو صحيح معين لحراسة الرقيب ولكنه فى الوقت نفسه صديق ، ثم بعد فترة ، انسحب المخبر من الحجرة فى هدوء ، وكانت فرصة لا بدى رأى للرقيب عمليا . . واضطر فى النهاية الى الخروج جريا الى الشارع والدم ينزف من أنفه وامتنانه . . واقسم ألف يمين اننى لا بد ذاهب الى السجن وأننى لن أعمل بعد اليوم فى الصحافة ، ولقد جرى تحقيق معى أمام محمد أمين حماد مدير الرقابة وقتئذ ، ولكن التحقيق انتهى بنقل الشيخ الرقيب نفسه .

أولا لانه شطب اسمى ، وثانيا لانه شطب مقالا ضد قوات الاحتلال والتعليمات التى لديه عكس ذلك تماما ، وثالثا لانه شطب فى نفس اليوم خبرا عن ملكة القطن . . لانه كان يحمل

تعليمات بعدم نشر أى شىء عن سوق التطن فى الاسكندرية ! ولم أعمل بعد ذلك طويلا فى المجلة ، فقد تركتها بعد هذه الواقعة بخمسة شهور . . وبالتحديد فى مارس عام ١٩٥٣ ، فقد اتصل بى استاذى المرجوم أحمد قاسم جودة وطلب منى ان أقابله فى بار الانجلو .

وبعد دقيقة واحدة من اللقاء كان قد عرض على عملا فى جريدة يومية كبرى أسمها القاهرة ومرتب خمسين جنيها فى الشهر ؟ وخرجت من بار الانجلو لاتكاد ساقاى تقويان على حملى .

هأنذا أصبحت محررا مطلوبا وفى جريدة كبرى وبخمسين جنيها كل شهر ! لا بد انه حلم من الاحلام . . أو لا بد ان قاسم جودة كان يهذى ! ولكن قاسم جودة عودنى دائما الصديق وكان دائما مثالا للرجل الجاد ، أذن المسألة حقيقية ؟ واذن سيصبح فى مقدورى الان ان أحقق الحلم الذى راودنى طويلا ، وهو أن أصبح مالكا لشقة خاصة ومكتبة وربما سيارة أيضا ، ولم لا ؟ وأنا الان سأقتضى خمسين جنيها كل شهر ، ولم استطع النوم عدة ليالى متتالية ، واصبح حديثى المفضل هو العرض الذى قدمه لى قاسم جودة والمرتب الذى حددته !

وكنت أحيانا أسرح أكثر من اللازم فأسأل محدثى . . أيه رأيك ؟ أقبل العرض ؟ هه ، نكته طريفة . كأننى كنت فعلا مترددا فى قبول العرض ! ولقد تمنيت على الله ان يحفظ قاسم

جودة من كل مكروه ، فقد خشيت أن يناله سوء قبل أن تتم الصفقة ، فى نفس الوقت كانت جريدة الجمهورية قد بدأت فى الاستعداد للظهور ، وانتقل للعمل فيها عدد من الكتاب والمحربين من دور الصحف الاخرى .

وكنت على صلة وثيقة بأحد المسئولين عن التحرير فيها ، ومع ذلك لم يعرض على العمل معه وبأى أجر ، وقد حزن الموقف فى نفسى كثيرا لأننى كنت أنا الوحيد الذى وقف الى جانبه من بين كل اصدقائه وعندما طردوه من جريدة الجمهورية قبل أن تصدر بأيام، وفقت فى الحاقة بعمل فى جريدة القاهرة، ثم اشتد على مرض مزمن دخلت من أجله المستشفى . . وانتهر الرجل فرصة وجودى فى المستشفى فاقترح فصلى من الجريدة . . ولكن اقتراحه لم ينفذ ، لانه فصل بعد ذلك بأيام !

المهم أن قاسم جودة استدعانى ذات مساء لمقابلة مدير جريدة القاهرة ، واكتشفت ان الرجل صحفى فلسطينى قديم ، وانه عديم الخبرة بالصحافة ، وانه استشار عددا من كبار الصحفيين فى القاهرة . . فرشح له كل منهم عددا من الصحفيين ، ولم يرشح قاسم جودة الا اثنين فقط ، أنا وعلى جمال الدين رئيس تحرير وكالة اورنيت فوتو فى بيروت الان .

واكتشفت أيضا أن جميع أعضاء نقابة الصحفيين قد رشحوا للعمل فى الجريدة وبمرتبات خيالية . . أحدهم وكان فى سن الثمانين رشح للعمل بمائة وخمسين جنيها فى الشهر ، وذلك لخبرته فى دنيا الصحافة ! مع أن الرجل العجوز كان قد اعتزل الصحافة منذ ربع قرن !

وبعد ربع ساعة خرجت من مكتب مدير الجريدة بعد أن وقعت عقدا للعمل ولمدة عام ، وبمرتب سبعة وثلاثين جنيها ونصفا ! ولا ادرى ما الذى أنقص المبلغ من خمسين جنيها الى هذا الرقم، يبدو أن منظرى وقلة حجمى لم تقنع المدير بأننى سأكون على مستوى المسئولية !

ويبدو أنه فعل نفس الشئ مع الجميع ، المهم اننى خرجت من مكتبه وأنا أسعد أهل الأرض . . وكانت جريدة القاهرة فرصة العمر بالنسبة لى ، وعلى صفحاتها نشرت أول قصة فى حياتى ، ثم نشرت مجموعة قصص كاملة أصدرتها بعد ذلك فى كتاب ،

ونشرت أيضا دراسة عن الظرفاء ، ونشرت دراسة أخرى عن مقرئ القرآن في مصر وأتاحت لي الفرصة السفر الى مختلف أقاليم مصر ، وعن طريقها تعرفت الى عدد كبير من الوزراء وكبار الموظفين .

فقد كان من مهام عملي في الجريدة الى جانب نشر القصص والمقالات ، الحصول على اخبار وزارة الشؤون الاجتماعية . وكان أول الوزراء الذين تعرفت اليهم هو المرحوم فؤاد جلال ، وكنت قبل ذلك أعتقد أن الوزراء من طينة أخرى غير طينة البشر . . . وكنت أتصورهم مطهومين دائما عصبيين دائما أصحاب سلطة بلا حدود ، وأنهم لا يأكلون الا صنف الملابس ولا يرتدون الا الحرير ولا ينامون الا على ريش النعام .

صورة ساذجة بددتها زيارة واحدة لمنزل المرحوم فؤاد جلال في الروضة ، وكنت أجن عندما اكتشفت أنه يعيش مثل أي فرد وان في صالة المنزل ينام بعض أقاربه الذين جاءوا لزيارته من الريف .





آه من الصحفي الشقي لم يعد شقيا ، العمل الآن مضمون .
والفلوس تجرى من بين أصابعه كما القلة . والحسارة التي
يسكن فيها لم يعد يطيق منظرها : أى هوة عميقة تفصل بين الجو
الخارجي والجو الداخلي لحياته . حارتنا مظلمة كقلب الكافر ،
قنرة كأنها مقلب زبالة ! مصيبتى الكبرى أننى أصبحت مثل
المجتمع المصرى ، مجتمع مثل العملة له وجهان ، ومثل البيوت
له واجهة وله خلفية .

الان أنا أسهر فى الفنادق الكبرى وأقضى بقية الليل فى
حديقة كوبرى الجلاء ، وأتنزه فى الفجر فى قارب يتأرجح
على صفحة النيل . وأنا من بين معارفى وأصدقائى وزراء
ومديرين بشوارب وموظفين بمكاتب وأدباء وشعراء ولكن عندما
أنفض كل هذه المظاهر وأعود الى البيت فى الصباح أشعر
كأننى أختنق ، ميدان الجيزة الراكد ، ثم شارع عباس الملىء
بالحفر ثم حارتنا التى تفوح رائحتها كأنها جثة ملقاة على الطريق
منذ ألف عام ! وتمنيت أن أخرج من الحارة الى شارع أوسع
والى بيت أحدث . وحاولت اقناع أمى ولكن المحاولة فشلت .

قالت لى أمى وهى تحاورنى • « أسيب بيتى واروح فين
يابنى ؟ دا اللى مالوش بيت مالوش أصل !! وهوه بيتنا ماله ؟
دامافيش أحسن منه • • ، ولم أعد الى محاولة اقناعها مرة
أخرى •

وزحت أعيش حياتى بالمقلوب ، أنام النهار فى البيت •
وأسهر الليل فى الشارع • وهجرت قهوة محمد عبد الله فى
ميدان الجيزة ولم أعد أتردد عليها الا مرة كل اسبوع • فقد
كان يجلس عليها صديقان أثرا فى نفسى تأثيرا عظيما • أولهما
هو أنور المعداوى والاخر هو الدكتور عبد القادر القط • ولقد
كان أنور المعداوى رجلا من طراز فريد • كان معتدا بنفسه • •
وقورا الى درجة التزمت وكان ابن عائلة ريفية مبسوطه من
أقاصى الدلتا ، واشتهر فى الوسط الأدبى وهو لم يزل طالبافى
كلية الاداب • وهو أول من سلط الضوء على عبقرية نجيب
محفوظ فى الوقت الذى انكره فيه كل النقاد وتجاهله كل محررى
الصحف الادبية • وعندما قامت الثورة كان أنور المعداوى
أسعد الناس بها وكان يود من أعماقه أن يشترك فى عمل
أدبى كبير ، مجلة ، موسوعة ، قاموس • • أى شىء فى ظل
الثورة وفى اتجاهها •

ولكن الشلل منعت أنور من تحقيق أحلامه • ولأنه أيضا
كان قليل السعى شديد الأنفة والكبرياء والصلف • ولكنه
كان من عادته أن يحضر الى المقهى فى الرابعة تماما بعد الظهر
فيجلس قليلا قبل أن يطلب الشاى ، ثم ينادى على حميدو ليمسح له
الحذاء ، ثم يبدأ الاصدقاء فى الحضور ويبدأ النقاش والحديث •

وفى الثامنة تماما كان ينهض متجها الى فرن افرنجى فيشتري
رغيف عيش فيتنو طويل للغاية وجبنة رومى ، ثم يجلس يأكل
ويطلب الشاى ، ثم يعود الى حلقة المناقشة حتى الحادية عشرة
مساء ثم ينهض لينصرف ولا يعود الا فى الرابعة من بعد ظهر
اليوم التالى • ولقد كان من الممكن أن تسير حياته على هذا
النحو حتى يموت ، لولا أن الجهلاء الذين تولوا أمر ادارة الثقافة
بوزارة التربية والتعليم أمروا بنقله مدرسا بمدرسة السلحدار •
وجن جنون أنور المعداوى فلم يكن يتوقع أن يحدث له شىء كهذا
واختفى لأول مرة من المقهى ثم عاد وقد تهلتت أساريره لأنه
طلب تفرغا من وزارة الثقافة وقد أجيب الى طلبه بشرط أن

يستقيل من وزارة التربية والتعليم • وفعلًا استقال أنور من وظيفته ، ولكن طلب التفرغ لم يقبل على الإطلاق • ولقد اراد ان يكون موظفًا بالمجلس الأعلى للفنون والآداب ولكنه لم يستطع • بينما كان المجلس يعج بالعشرات من الجهلاء والكونستابلات ونصابين الأدب ! وأسقط في يد أنور وضاعت الدنيا به •

وترك قهوة عبد الله والجيزة كلها الى الدقى ، ووقف بعض الاصدقاء الى جانبه فى محنته حتى عاد الى وظيفته الاولى فى وزارة التربية ، ولكن المحنة الشديدة التى مر بها كانت قد تركت آثارها السيئة فى نفسه فسقط مريضاً ولم تقم له قائمة بعدها ومات •

ولو أن أنور المعداوى استطاع أن يأخذ مكانه الطبيعى فى مجلة « الرسالة الجديدة » مثلاً ، فلربما صارت المجلة الى مصير غير الذى انتهت اليه •

ولكن أنور المعداوى فشل فى الحصول على عمل فيها بينما وثب على المجلة رجل اسمه عبد العليم كانت كل مهمته فى الحياة قص الصور وتلزيق الورق ونفاق رئيس التحرير ، وعلى هذا الجسر عبر عبد العليم طريقه الى منصب مدير التحرير فى المجلة • ولعل ذلك هو السبب فى اغلاق ابوابها بالضربة والمفتاح •

وأغرب شئ أن عبد العليم كوفىء على هذا الفشل بان أسند اليه رئاسة تحرير احدى المجلات • ولم تلبث هى الاخرى أن أغلقت أبوابها • ولعله اقتنع بعد هذا أنه لا يصلح للصحافة فهجر العمل الصحفى وعاد الى وظيفته الاولى موظفًا فى احدى الشركات !

ولقد كانت قهوة محمد عبد الله من القهاوى الشهيرة التى لعبت دوراً هاماً فى الحياة الادبية فى مصر • وكان صاحبها رجلاً عصامياً جاء الى الجيزة من الصعيد ليقف الى جوار محطة السكة الحديد بعربة يد عليها بعض الجوز ووابور جاز وعدة اكواب وبراد شاي وكنكة قهوة • واستطاع بالاصرار والمثابرة ان يجمع بعض المال ، وبهذا القليل استطاع ان يفتح هذه القهوه ، وصارت فى الصباح مقراً لتجار القطن واثرياء الريف الذين

يأتون الى الجيزة لمسائل قضائية أو طبية ، وفي المساء تتحول الى مكان يجتمع فيه كبار الموظفين والادباء والصحفيين .

ولقد ظلت عشرات السنين كما هي لم تتغير . حتى المقاعد التي اُهترأت من كثرة الاستعمال لم يكلف عم محمد عبد الله خاطره ليعيد اصلاحها . والحيطان التي تاكل دهانها وتركت التشققات آثارا عميقة على شكل رسوم راحت تتسع يوما بعد يوم حتى صارت كأنها مقصودة وكأنها للزينة . . ولكن القهوة ظلت تضيق بزبائنها يوما بعد يوم . ومكاسيها تزيد ساعة بعد اخرى . كل ذلك وعم محمد عبد الله رابض كالأسد العجوز خلف الكيس يتسلم الماركات ويقيّد الحساب ويراجع المنصرف من كميات الشاي والسكر والجاز .

وكان للرجل خمسة ابناء رجال لا عمل لهم الا القهوة . أحمد وكان اكبرهم . قصير وبدين ومهمته الوحيدة هي الطواف على الزبائن وتحية الجميع والسؤال عن المريض ومعرفة مصير الغائب .

وحسن وكان طويلا وعريضا وفي قوة سباع الغاب . كان يحضر كل يوم في القهوة ساعة العصارى ، فيفرش بجوار النصبه وينام حتى التاسعة مساء ويقوم من النوم فيشرب الشاي ويدخن الشيشة وهو جالس على الرصيف في التراويح الحلوة دون ان يفتح فمه بكلمة حتى تغلق أبواب المقهى فينصرف !

ومحمد كان أصغرهم ، ولم يكن يصنع شيئا الا الهنكرة ومشاغبة باعة الموز الذين يحتلون الرصيف المقابل ، والحناق مع ماسحى الاحذية والمسولين الذين يقتحمون المقهى كل ساعة بالعشرات .

اما الشقيقان الآخران فكانا لا يترددان الا نادرا ولكي يحصلوا على شيء من النقود . ولم يكن أحد منهم يعرف القراءة والكتابة . ولم يكن لأحد منهم مورد رزق ولا عمل يجيده . وكانوا اذا رأوا أباهم قادمًا وقفوا جميعا وضربوا تعظيم سلام كأنهم عساكر بوليس رأوا الأمور في طريقهم . وكان الرجل يشتمهم امام الزبائن ويلعن جدودهم ويتهمهم بالخيبه والبلاهة . وكان يؤكد لكل رواد القهوة انه لو مات فان كل شيء سينهار وستباع المقهى في المزاد .

ولقد صحت نظرتة البعيدة فما ان مرض حتى بدأت القهوة
تميل للكساد . وقبل ان يموت بأيام كانت القهوة قد
بيعت فى المزاد . وعاد أولاد الرجل العصامى الطيب الى أول
الطريق الذى بدأه الوالد العصامى العظيم . راحوا يسرحون
بعربة شاي فى الجيزة ، ثم استقروا اخيرا بالعربة عند محطة
السكة الحديد !

ولقد تعرفت فى هذه القهوة على عدد من الادباء والصحفيين
فى بداية حياتى .

الدكتور عبد القادر القط الطيب المسالم الذى يشق لنفسه
طريقا وسطا فى الحياة لكى يجنب نفسه المتاعب . ولكن المتاعب
تسعى اليه لانه رغم طيبته صاحب نظرة موضوعية وفكر حر
وعلاقات انسانية اساسها الاحترام المتبادل وليس على أساس
النظرية المعروفة يابخت من نفع واستنفع !

وشاعر عظيم الشهرة عظيم القدر كان يجلس فى القهوة أغلب
الوقت يستحلب قطع الافيون فى هدوء ، وصارت بينه وبين
صاحب القهوة صداقة متينة بسبب الهواية المشتركة بينهما .
وكان اذا جاء المساء جلس الشاعر الكبير المشهور على كرسى
فوق الرصيف ينظر الى الميدان فى ذهول ويظل ساهما حتى

منتصف الليل ثم ينهض لينصرف ، وكان المارة الذين يعرفون
الشاعر يؤكدون أنه جالس فى حالة تفكير دائم لكى يؤلف
شعرا عن الحياة والناس . لم يكن أحد منهم يعرف ان الافيون
هو الذى التقى عليه هذا الرداء من الهدوء والذهول ، وان تحليق
الشاعر لم يكن فى سماء الشعر ولكن فى سماء المخدر !

وأديب آخر كانت كل مؤهلاته ان صحته جيدة . وبهذه
الصحة الجيدة استطاع ان يطور نفسه من موظف صغير الى
موظف محترم . فقد جلس فى القهوة يلتهم دروس ثانوى ، ثم
راح يلتهم دروس كلية الحقوق حتى انتهى منها . وربما ظن
الاديب الجيد الصحة ان كل شئ فى الحياة يتحقق بالصحة
والعافية والعضل القوى ، فقد جلس فى القهوة بعد ذلك يكتب
مسرحيات وقصص وسيناريوهات ثم تزوج بعد ذلك من اديبة
فاشلة ومتجبرة ثم انفصل عنها فجأة ووقع فى مشاكل الطلاق

وماجره عليه من حجوزات ومطاردات واستدعاءات لاقيسام البوليس .

وفي هذا المقهى أيضا تعرفت الى نعمان عاشور . ولقد كنت أعرفه وأنا طفل فقد كنت صديقا لشقيقه الاصغر . وكان نعمان عندما تعرفت عليه في القهوة يكتب المقالات والقصص القصيرة . ثم كتب رواية ناجحة للمسرح اسمها «المغمطيس» . وبدأ عليه الانبساط للنجاح الذي حققه ، وقرر عدم العودة الى القصص القصيرة أو المقالات والتفرغ لهذا الميدان الجديد . . المسرح !

ولقد التقيت بنعمان بعد ذلك في وزارة الشؤون الاجتماعية . وكان يعمل سكرتيرا صحفيا للوزير ، وكنت أنا مندوب الجريدة في الوزارة . ورغم ان نعمان كان هو الطريق الرسمي الوحيد لمقابلة الوزير الا انني لم أقابل الوزير قط عن طريقه . فقد كان يجلس في مكتبه قلقا ومزعورا كان شيئا مجهولا يطارده . وكان لا يستقر على مقعده لحظة ، دائم التساؤل عن اشياء غريبة وعجيبة وليس لها أي معنى .

وكنت اذا طلبت منه مقابلة الوزير نهض ونظر من الكوة الباب ثم عاد واعتذر بحجة ان الوزير مشغول . ثم لا يلبث طويلا حتى ينهض مرة أخرى لينظر من الكوة ثم يعود الى الجلوس ثم ينظر مرة أخرى من خلال باب الوزير ، ثم يقف في النافذة ينظر الى الشارع ، ثم يغادر المكتب كله الى الخارج .

وكان من عاداته اذا رآنا نحن الصحفيين ندخل حجراته اسرع باغلاق مكتبه حتى لا نسطو على الاخبار الهامة التي في الدرج . ولكن رغم كل هذه الاحتياطات الشديدة أستطعت أن أسرق من مكتبه مشروع تعديل قانون العمل الفردي .

ولقد أحدث نشره في الجريدة هزة كبرى في جميع الاوساط ، واضطر نعمان الى الاعتكاف في بيته عدة أسابيع حتى هدأت الضجة .

وذات صباح جاء الى الوزارة وزير جديد ومعه صول مهمته الاشراف على سيارة الوزير والسعاة والفراشين . وجاء الصول ليجلس على مكتب صغير في مواجهة نعمان . ورغم ان نعمان هو رئيس المكتب فقد أصيب بذعر شديد من وجود الصول .

وكان لا يناديه الا بلقب سيادة الصول . فاذا وقف الصول وقف
نعمان ، واذا جلس ظل نعمان واقفا من قرط الادب والاحترام !
وشيئا فشيئا راح الصول يزحف الى الامام ، واخيرا احتل
مكتب نعمان بعد ان تنازل عنه بمزيد من القبول والرضى .
وقنع نعمان بالجلوس على مكتب الصول ، لا يبرم امرا الا بعد
ان يستشير سيادة الصول ، ولا يوقع على ورقة الا بعد اخذ اذن
سيادة الصول ، ولم يلبث طويلا حتى ترك الوزارة الى عمل
آخر .

وأديب آخر اسمه على عصفور . كان انيقا ورشيقا ومعجبا
بنفسه على نحو ما ! وكان شديد السخط على الاتجاهات الادبية
الحديثة ، شديد الكفر بالادباء القدامى والذين جفوا على حد
تعبيره !

وكان يزفر بشدة أحيانا حتى كأن الذي يخرج من صدره
نار محرقة ، ويقول في اسى بالغ : بس لما تيجى الفرصة
وأكتب ، كل الناس دى مش هتلاقى تاكل عيش !

وعندما جاءت له الفرصة كتب كلاما هايفا للغاية . . ثم تحول
الى مؤلف أغاني ، ثم فشل أيضا ففنع بتأليف اغنيات غاية في
السوء يبيعها لمطربات الدرجة الرابعة ، ولصالات شارع الهرم
وكازينو صفية حلمي !

ولكن أغرب ادباء قهوة محمد عبد الله ، لم يكن أديبا ولا
صحفيا ولا حتى افنديا ، ولكنه كان بائع يانصيب . وكان
اسمه عباده وله لحية لم تحلق قط على طريقة قيس . . وشعر
رأسه يتدلى على قفاه كأنه شمشون الجيسار ، ويرتدى جلبابا
لا لون له ، ويضع على كتفه اكثر من جلباب ، حتى أنه ليبدو من
بعيد كأنه أحد شغراء الرومان المشاهير ، وكان يصفو أحيانا
فيتكلم كلاما كله فلسفة وعقل ، ويجن أحيانا اخرى فيتحول الى
مخبول . وكان يهزأ من كل شيء ، ويسخر بكل شيء ، ويعلن
رفضه لكل شيء ، ويقفز وسط ميدان الجيزة حرا طليقا من كل
قيد ، ويصرخ ويصفق ثم يهدأ فجأة ، ويقبع في ركن بعيد يبكي
بحرقة وينبج كأنه كلب عجره اتوبيس في الميدان .

ولقد كان صديقا لأنور المعداوي يسأل عنه اذا غاب ، ويجلس

معه بالساعات يناقشه فى التاريخ والادب • وكان انور يقول عنه « عباده هو أعقل العقلاء » •

ولما أغلقت قهوة محمد عبد الله اختفى عباده هو الآخر وكنت أحيانا أراه فى الطريق وقد ازداد قذارة وتهدم وأصبح شيخا فلما مات أنور المعداوى ، لقيته فى الميدان وأبلغته النبأ .. فقال بلا مبالاة .. مانا كنت عارف انه هيموت !

ولقد تفرقت الشلة بعد ان انهدمت القهوة وقامت على ارضها عمارة شامخة بلا طعم • وكان أنور المعداوى كان معها على ميعاد ، تدهور حال أنور المعداوى أيضا • فلما انهدمت القهوة مات أنور المعداوى الى رحمة الله •

ولقد كانت وفاته خسارة جسيمة للفكر والادب ، فقد كان طرازا من الرجال يبيع ملابسه ولا يبيع كرامته ، ويجوع ولا يسأل اللئيم !

ولقد احببت أنور المعداوى واحترمته ، وما اكثر الذين احببتهم وما أقل هؤلاء الذين يستحقون الاحترام •

وبعد موته بزمان طويل ذهبت مع أحد الاصدقاء الى قبره البعيد وجلست أبكى وأنا الذى لم تذق عيناى الا نادرا طعم البكاء •

ولقد ودعت انا الآخر قهوة محمد عبد الله الى حديقة كازينو الجلاء • وكنت قد حققت لنفسي بعض الشهرة بين الصحفيين • واصبح لى اصدقاء يمكن الاعتماد عليهم وقت الازمات • واصبحت أعمل فى مجلة اسبوعية اسمها « صوت الشرق » الى جانب عملى الرئيسى فى جريدة القاهرة • ولكن ظل حلمى القديم يراودنى ، ان اصبح يوما مالكا لشقة خاصة تطل على شارع عريض ومضى ، وان اصبح عضوا بنقابة الصحفيين ولقد خيل الى ان تحقيق حلم النقابة أسهل بكثير من تحقيق حلم الشقة •

ولم لا وأنا صحفى وأعمل فى المهنة منذ زمن طويل • ولى كتابات منشورة ، ولى اجر محترم ، ومعنى شهادات من الصحف تثبت اننى أعمل بالمهنة منذ أكثر من عشر سنوات •

منطق الحق والحقيقة !

ولكن ، من قال ان الحق والحقيقة وحدهما هما الطريق الوحيد الى نقابة الصحفيين .

كانت جريدة القاهرة تجربة مفيدة تثبت بالدليل القاطع أن الصحافة ليست بالعافية وأنها مهنة صعبة لا يجيد صنعها الا أبناءها . فلقد خرجت الجريدة الى الوجود وعلى صدر صفحتها الاولى أسماء أربعة رؤساء تحرير ليس من بينهم واحد من أبناء المهنة . أحدهم كان قائدا للجيش المصرى فى حملة فلسطين عام ١٩٤٨ . والآخر كان رئيسا للمجمع اللغوى . والثالث كان من كبار المجاهدين وهكذا ! وكتب رئيس المجمع اللغوى افتتاحية العدد الاول تحت عنوان « غبوق الصباح » ولم يفهم أحد من القراء ولا من المحررين حرفا واحدا من مقال رئيس التحرير . ولذلك راحت الجريدة تتدحرج حتى وصلت فى خلال شهر واحد الى الحضيض !

ولقد كانت الجريدة فوق كونها تجربة مفيدة ، تجربة فريدة أيضا . فلقد تجمع فيها اليمين بدرجة مكثفة وبينما كانت الصحف الاخرى التى عملت فيها من قبل تعج باليساريين والوطنيين والمعارضين ، كانت جريدة القاهرة لا تضم بين جدرانها الا اليمين وقلول الاحزاب القديمة ، والمتطلعين الى مناصب أكبر وفلوس أكثر وبعض أصحاب الهيافة الذين ليس لهم فى الطور ولا فى الطحين ! وكانت سكرتارية التحرير تضم ثلاثة من أغرب وأعجب من عرفت ورأيت خلال عملى فى الصحافة . أحدهم كان يتناول العمل الصحفى بأسلوب الموظف . يحضر فى الثامنة صباحا كل يوم ، وينصرف فى الثانية ظهرا .

وكان اذا حضر سارع الى خلع الجاكتة وعلقها على شماعة خلف المكتب ، ثم شمر أكمام قميصه فشر ست فلاحه تستعد للعجين ! ثم يطلب شايًا ويشعل لنفسه سيجارة قبل أن يبدأ فى فرز أخبار المحررين . وكان هذا الفرز لا يستغرق من وقته أكثر من خمس دقائق . بعدها يتفرغ لنفاق رئيس التحرير ! ثم يتعرض لزميليه بكلام لا يليق من رجل فى مثله مركزه وكان شديد الحرص على استعراض ثقافته أمام الحاضرين وكانت هذه الثقافة لاتعدى دائرة : هل الضوء ينقض لو حمل المرء قرية فساء على ظهره ؟

وهل تدخين السجائر مكروه أم ممنوع ثم ماذا دار بالضبط بين سيدنا الهراس وسيدنا بعجر بن شمروخ !
وكان الآخر على عكسه تماما . يحضر في مواعيد منتظمة . وأكثر خبرة وفهما لعمله الصحفي ، ولم يكن يهتم من الثقافة الا بماله اتصال بالعمل الصحفي ، وكان يرى أن كل الصحفيين فاشلون وكلهم يستحقون الطرد . وكان دائما يردد أن باستطاعته اصدار الجريدة وحده ، بشرط طرد جميع المحررين . . . وكان يخاف رئيس التحرير ويدس له من وراء ظهره وكان له فم واسع وأسنان حادة ومدببة . فاذا ضحك أو تكلم بدا كأنه ذئب جائع مسعور .

واستطاع بعد فترة من العمل الصحفي في الجريدة أن يسيطر على عقل إحدى المحررات وأن يتزوجها . وسرعان ما سقط صريع الذبحة الصدرية ولما أنقذ بأعجوبة كان قد فقد منصبه في الجريدة فاكتفى بالجلوس في نقابة الصحفيين وسب جميع الآخرين .

أما الثالث فكان دلدولا بكل ما في الكلمة من معنى ، وللاسف استطاع هذا الدلدول أن يشق طريقه الى الامام بسهولة ، وظل محتفظا بمنصبه في الجريدة الى أن أغلقت أبوابها .
أغرب شيء أنه تحول بعد ذلك الى كاتب ، وأصبحت له كتب ومؤلفات ، شخصية غريبة ثبت أنه لا يبقى في النهاية الا الذبول .

ولكن أعجب وأغرب الشخصيات في جريدة القاهرة لم تكن من بين المحررين . ولكنها شخصيات كانت تلعب دورا رئيسيا من وراء ستار وتتحكم في الجريدة وتحريرها وسياستها . . . وتوجهها الى حيث تريد . . . أول هذه الشخصيات كان يدعى سر كيس . . . وكان مسئول الحسابات والمالية في الجريدة . . . وكان يمت بصلة قرابة لصاحب الامتياز . وسلطاته كانت مطلقة ، ورغباته كانت أوامر ، وعقليته كانت أتفه من عقلية حمار .

والرجل الآخر كان اسمه محمد وكانت وظيفته الرسمية ، سائق سيارة صاحب الجريدة ، ومن خلال هذه العلاقة التي تربطه بصاحب رأس المال ، استطاع أن يفرض نفسه على

جميع المحررين وأن يسهر معهم ، ووعدهم بعلاوات ، وهدد البعض الآخر بالفصل . ونجح في لعبته فكان يتلقى الهدايا ، وينشر صورته في باب المجتمع ويحرر في باب بريد القراء !

أما الرجل الثالث فكان يتمتع بشارب رفيع ووجه ثعباني وكان يتولى كل الامور القانونية في الجريدة . وكان شديد الحذق كمحامى يجيد استغلال نصوص القانون لحسابه . . . ويعرقل سير العدالة بمزيد من الاجراءات والتعقيدات ، ولقد

استولى على قلب صاحب الجريدة عندما نجح في فصل خمسين محررا دفعة واحدة دون أن يعطى لأى منهم حقه المشروع ، فلما لجأوا الى القضاء نجح في كسب القضية ضدهم ، وجعل من هذا الفصل حقا مشروعا لصاحب الجريدة الساذج الغلبان ، ولقد

استشرى نفوذه في الجريدة حتى أصبح يعين من يشاء ويفصل من يشاء دون رقيب ولا حسيب ! ولقد كان هو السبب المباشر فى فصلى من جريدة القاهرة حين اتصل تليفونيا بالجريدة يريد مخاطبة صاحبها . . . ولسوء حظى وقع فى قرعتى ، فطلب منى فى صلف شديد أن أحول المكالمة على مكتب صاحب الجريدة . ولم أرد عليه واكتفيت بإغلاق السكة فى استهتار ملحوظ . . . ويبدو أنه اغتاض بشدة فعاد وطلبنى ، ولما أجبت على التليفون راح يصيح فى أذنى مهددا بفصلى . . . ولعنت له خاش جدود الذين نسلوا أبوه ، وبصقت فى سماعة التليفون احتقارا لشأنه ، وتوعدته بالاذية فى أول فرصة تقع فيها عيناي عليه فى الطريق !

ولكن الرجل الثعبان استطاع أن يفصلنى من الجريدة بعد ذلك بشهر . يوم الفصل استدعانى صاحب المجلة وكان درجلا عالما وقاضيا ومجاهدا عربيا قديما ، ولكنه كان عجوزا الى درجة مضحكة . . . اذا تكلم قطع الحديث فجأة ونام وارتفع شخيرته فى الفضاء ، ثم يستيقظ فجأة ليستأنف الحديث من جديد . ولقد أبلغنى قرار الفصل على أربع دفعات . . . وخلال هذه الفترة كان ينام ويستيقظ ثم ينام ويستيقظ ويستأنف الحديث من جديد .

ولقد عرض على خمسمائة جنيه لاتنازل عن القضية . ولكنى ركبت راسى وقررت أن أمضى فى الشوط الى النهاية .

ولقد حكمت المحكمة فى القضية بعد ذلك بستة أعوام ..
وحكمت ضدى وألزمتنى بدفع مصاريف وأتعاب المحاماة ...
وبدلا من الخمسمائة جنيه التى كنت سأتناولها ، دفعت أنا
عشرة جنيهات وخرجت من المولد بلا حمص .

رجل آخل عرفته فى جريدة القاهرة ، وكان ناعما ولطيفا
وصاحب اتجاه فى الصحافة هو نشر كل ماهو طريف وظريف
.. وكان فيما مضى من الزمان يدعى الثورية ، وانضم فعلا
الى حزب فاشى كان أنصاره يرتدون القمصان الملونة ويحطمون
البارات وبيوت الدعارة .

وعندما احترف الصحافة كان أول من مد يده للبنت لتدخل
هذا الميدان ، وهى حسنة تذكر له بالخير ، غير أنه تماذى فى
هذا الاتجاه ، فأصبحت كل الجرايد التى يعمل بها مفتوحة على
البنت ، ولكن ليس للولد فيها مكان .. وكان رغم مركزه
الكبير فى الجريدة ، لا يجلس فى حجرة مستقلة ، بل كان
يفضل الجلوس فى صالة كبرى وحوله عدد كبير من المحررات
المعطرات الانىقات . وانطبع هو بهذا الجو المحيط به فأصبح
وكأنه واحدة منهن يقرقرز اللب ، ويتعطر بأجمل أنواع
الكولونيا ، ويقضى معظم الوقت فى الحديث عن أصناف الطعام
المفضلة لديه !

ولقد حدث للعبد لله مرة أن تعرفت على احدى بناته المفضلات
.. وكانت بنت سنيورة ، عيونها فى لون البنفسج ، وخدودها
كتفاح لبنان ، وكانت عفية وقوية كأنها بقرة سمينة معلوفة
بالكسب التمام .. وصارت علاقة غرام عنيفة ومواعيد حب
على شاطئ النيل ، وفى داخل النيل أيضا ، وعندما اكتشف
المسألة جن جنونه ، وثار وأخرج البنت أمام جميع الحاضرين
وظنت البنت أننى أنا الذى كشفت سرها ، ومعنورة هى
لأنها لم تكن تعرف أن بينى وبينه ماصنع الحداد .

ولقد جن جنونى أنا الآخر وحاولت جاهدا أن أعيد العلاقة
مع البنت ولكن دون جدوى ، رفضت بإصرار وبشدة ..
وعاملتني بقسوة حرصتني على التمسك بموقفى المزرى ..
وتصور منظرى وأنا أطلب البنت كل خمس دقائق بالتليفون

وفى البداية كنت أتعافهم ، ثم بعد ذلك أصبحت أتذلل وأرجو
وأستعطف وكأنتى شحات واقف على باب الحب !

وأعترف الآن أننى فى حياتى لم أشعر بالبؤس مثلما شعرت
به تلك الايام ، أنا الذى كنت أسخر من المحبين والمغرمين
والعاشقين أصبحت واحدا منهم ، ورحلت أطوف حول بيت
البنات كأنتى قيس وكأنها الست ليلي . وأحيانا كنت أبكى ،
وأحيانا كنت أتحدث مع نفسى فى الطريق .

أغرب شئ أيضا . . أنه حدثت لى أزمة نفسية حاده جعلتنى
أتصوف .

وذات مساء دخلت مسجد سيدنا الحسين وحذاثى تحت ابطى
ورأسى منكسة ، وقدمائى لا تقويان على حملى . . وجلست فى
صحن المسجد كالمتمسول وعينائى تبرقان بلا معنى وتنظران
بلا احساس . . ولكزنى الرجل الذى بجوارى واكتشفت أنه
صديقى الدكتور سعيد قدرى ، وتعجب الرجل لوجودى فى هذا
المكان . . خصوصا وأننى رغم وجود مسجد فى اعماقى وشيخ
له عمامة . الا أننى لست من هواة التردد على المساجد . .
وتظاهرت بأننى فى المسجد فى انتظار أحد أقربائى الفلاحين
وتركت مكانى بجوار سعيد قدرى وانصرفت الى ركن آخر .
وبعد الصلاة قمت مع المرحوم الشيخ محمد الصيفى الى
منزله فى العباسية ، وجلست معه حتى انتصف الليل ،
وحكىته له عن سبب تعاستى ، فربت الرجل الطيب على كتفى
وقرأ الفاتحة عدة مرات ، ولم يزد على قوله : « كل شئ قسمة
ونصيب » .

وأعترف الآن أننى بعد لقاء الشيخ محمد الصيفى . شفيت
من الغم الذى حط على نفسى ، ولكنى لم أشف تماما . ظلت
صورة البنات فى نفسى الى فترة طويلة من الزمان . ولم أشفى
منها تماما الا بعد أن صدر أول كتاب لى « السماء السوداء »
وأحدث ظهوره ضجة كبرى فى الوسط الادبى .

عندئذ أفقت من زهول الحب ، وشغلنى النجاح الادبى
فعدت من جديد رجلا سويا .

ولقد التقيت بها مرة بعد ذلك فى الطريق . . مصادفة !

وصافحتها يفتور وانصرفت ، واكتشفت أنني لم أكن أحبها أبدا ولكن المسألة كان لها وجه آخر ! فلقد كان من عادتي أن أتعرف على البنات وأهجرهم ! ولكن هذه البنت خالفت القاعدة فهجرتني . ولم تدرك البنت ولم أدرك أنا أيضا أنها بهذا الهجر قد نكأت كل الجراح التي في نفسي . وما أكثر الجراح التي في نفسي . فانا أمضي في الحياة وأجر ورائي قطار سكة حديد من الجراح والذكريات المريرة .

طفولتي ، وظروفي حياتي الأولى ، وفقرى الذى كان نسيج وحده . فلا أنا فقير دقة فأتسول ، ولا أنا قادر على مواجهة الحياة ، ولا أنا أستطيع الكذب على نفسي ، ولا أنا قادر فى صباى المبكر على عدم الكذب على الناس ! لم يكن من أجل البنت نفسها ولكن من أجل ظروفى وحياتى كلها . خصوصا وأنها كانت أول بنت أتعرف عليها من بنات هذه الطبقة ! بيتها فى جاردن سيتى ، وأبوها له شوارب وله طين وله سيارة وفى السيارة سائق له بدلة خضراء وشرايط على ذراعه !

وكان قهرى للبنت يعنى شيئا آخر .. هو قهرى لهذه الطبقة . حوازى الجيزة تسيطر على شوارع جاردن سيتى .. هذه هى القضية .. فلما رمتنى البنت بقسوة ، نضحت على نفسي كل أحزان الجيزة وكل آلام أهلها !

فلما حققت نجاحا فى مكان آخر نسيت البنت ونسيت أمرها . ولكنها كانت على أية حال تجربة مفيدة ومريرة معا ! ولقد صدر كتابى الأول الذى كان السبب فى شفافى بطريقة لها العجب . تعرفت على موظف كبير فى وزارة الشؤون الاجتماعية اسمه صلاح نور ، وهو من أسرة نور الثرية العفية ، ولكنه هو نفسه كان من نسيج مختلف . وكان فى جواهره فنان وصعلوك وابن بلد قنفت به الصدقة من أصلاب هذه الاسرة ، وبينما كان مرتبه لايزيد عن ستين جنيها كان يوزع نصفه على نبعاة الوزارة ويقوم بتسليف النصف الآخر لصغار الموظفين .. وكان قلقا للغاية لايدرك بالضبط ماذا يريد ! وكان يهوى الترف والاسفار والادب ، ويقرأ كثيرا وبينهم ولكن قراءاته كانت متعددة وأفكاره لذلك كانت مشوشة ، وأصدقائه كانوا من جميع الطبقات والاطراف وبينما كان الى الحزب فى قعدة أشبه بقعدات المصاطب والقهاوى فى قرى يسكن فى شقة فاخرة على النيل وله سيارة كأنها قطار السكة

الحديد • الا أن أسعد لحظات حياته ، كانت تلك التي يقضيها
في الريف بالشبشب والجلباب • وكان يتحدث بطريقة واد
ابن بلد مولود في حوارى السيدة زينب ، واذا ثار بدا كأنه
من سكان الدرب الاحمر ، واذا وقع في عاركة تصرف وكأنه
ولد من أولاد بولاق •

وتوطدت الصداقة بينى وبين صلاح نور ، وسرحت معه فى
الحسين وفى الريف وفى مكاتب الوزارة •
وذاث مرة قرأ لى قصة قصيرة منشورة فى جريدة القاهرة ،
وقال لى وهو يضحك ، دا انت لو طلعت كتاب هتعمل ضجة •
واعترضت له بأن اليد طويلة فى الكتابة ، قصيرة فى
الفلوس •

- وقال صلاح نور :
- اذا كان العائق هو الفلوس فقط : فاعتبر الكتاب صدر
والطبعة تدور الآن •

وقمنا بالفعل •• وبعد أيام كان الكتاب فى السوق •
ولقد تحققت نظرية صلاح ، فأحدث الكتاب ضجة لدى
النقاد والادباء ، ولكنه لم يحدث أى أثر عند القراء ، وبلغ عدد
النسخ التى بيعت من الكتاب مائة نسخة لا تزيد • ولكن
الكتاب رغم الوكسة العريضة كان جواز المرور للعبد لله الى دنيا
الادب والادباء •





قصة عبد العاطى فى الصحافة تصلح للغناء على الارغول ،
 كفاجعة من فواجع العصر . وهى قصة أكثر اثارة من شفيقة
 ومتولى ، وأعمق شجنا من حسن ونعيمة . ولقد كان عبدالعاطى
 رجلا جهولا لا يحتاج لكشفه الى ذكاء كبير ، كانت سحنته
 ولهجته ومنظره كله منظر قهوجى عاطل لا يصلح لشيء على
 الاطلاق ، وعندما وضع قدمه أول مرة فى الدار الصحفية
 الكبرى ، كانت الاحوال فى مصر مضطربة ، وكانت الثورة
 فى بدايتها ، وكبار الصحفيين فى قلق على مستقبلهم ، وصغار
 الصحفيين حيارى لا يدرون بالضبط ماذا ينبغى عليهم صنعه !

ولكن كيف دخل عبد العاطى . . لا أحد يدري . . المهم أنه
 أصبح محررا بشماتة جنيات ، وصفة محرر واسعة جدا على
 العمل الحقيقى الذى يقوم به . فقد كانت مهمة عبد العاطى
 تلقى المكالمات التليفونية من مراسلى الجريدة فى الارياف . .
 وكانت معظم الاخبار التى يتلقاها تأخذ طريقها بسهولة الى
 سلة المهملات ، وأحيانا كان بعضها يأخذ طريقه الى النشر .
 وحتى هذه لم تكن تخرج عن دائرة الاخبار التافهة . . سرقة

ماشية من زاوية أبو جاموس ، أو قتل مزارع في بني حسين
والعثور على القاتل بفضل يقظة وخبرة وفن الكونسـتابل
الممتاز على أفندي عبده ! هذه هي كانت مهمته بالضبط .
ولكن عبد العاطي كان طموحا الى أقصى حد . ولكن طموحه
الشديد للغاية لم يكن يصل أبدا الى الحد الذي وصل اليه
بالفعل . فقد راح يهمس باسم أحد ضباط المخابرات على أنه
صديقه الاوحد . . . وأحيانا كان يطلبه بالتليفون ، وأحيانا
أخرى كان يرسل بعض التقارير اليه على مرأى ومسمع من
الآخرين . . .

وكان عبد العاطي حتي هذه اللحظة محتقرا من الجميع . .
فلما شاعت قصته وذاعت ، وعرف الجميع نبأ العلاقة التي بين
عبد العاطي وضابط المخابرات العامة ، ابتسمت له الوجوه التي
كانت دائما عابسة ، وضحكت الافواه التي كانت دائما مطبقة ،
وامتدت اليه الايدي التي كانت دائما منكشة وممسكة . .

وأحيانا كان رئيس التحرير ينتقل بنفسه الى مكتب الاستاذ
عبد العاطي ليسأله عن آخر تطورات الاخبار في الريف . .
وارتفع مرتب عبد العاطي فجأة من ثمانية جنيهات الى ثلاثين ،
وانتقل من مكانه الصغير الى مكتب فخم ، وترك ميدان الريف

الى مجال أرحب . . مندوب متجول للجريدة في دوائر البوليس
. . واستطاع عبد العاطي أن يثبت جدارة وكفاءة في عمله
الجديد ، ووثق صلاته بضباط البوليس في الاقسام ،
وبالصولات وبالعساكر ، وأصبح له نفوذ في مديريات الأمن
در عليه دخلا لا بأس به عن طريق الافراج عن المشيبوهين
والمقبوض عليهم للتحري ، ونقل عساكر البوليس من مكان الى
مكان آخر . فقد كان عمله يسمح له بنشر صور كبار ضباط
البوليس ونشر أسماء صغار الضباط الذين اشتركوا في ضبط
مجرم هارب أو اطفاء حريق شب في عيش الترفان !

وتبدلت أحوال عبد العاطي فخلع البذلة القديمة ، وأصبح
يبدو كل مساء في بدلة جديدة ، وعرف القمصان الحريري
والزراير الذهب والكرفات الارجنس ، بينما الحقيبة الجلد
تتأرجح دائما في يده . . واشترى سلسلة ذهب من الإصاغة
كان دائما يلوح بها وهو سائر في الطريق . وصفت الحياة

لعبد العاطى وكان يمكن أن تصفو له هكذا على الدوام ، لولا أن صراغا رهيبا كان يذور فى الحفاء بين رئيس التحرير ومدير التحرير ، وقد قرر كل منهما أن يخوض المعركة الى النهاية ، وأن يستخدم أى سلاح حتى يحقق الغاية المنشودة .

وتبارى الاثنان فى كسب ود عبد العاطى ، فهو صاحب نفوذ فى دوائر المخابرات وهو يستطيع عن طريق التقارير أن يحسم المعركة لحساب أحد الطرفين فى النهاية . ولقد كان مدير التحرير الشاب الطامع والطموح أسرع فى كسب ود عبد العاطى ، وكان عبد العاطى صريحا فأعلن انضمامه الى مدير التحرير ، وفعلنا انتقل بمكتبه الى مكان قريب من مكان مدير التحرير وتحول من محرر الى فراش ، اذا عطش مدير التحرير أسرع فأحضر له كوب ماء ، واذا نام وقف كالديدبان يحرس مكتبه حتى لا يدخله انسان ، واذا عطش قال له : یرحمك الله ! ولم يكن مدير التحرير يطمع فى كل هذا الولاء من جانب عبد العاطى ، كان يطمع فقط فى أن يقف عبد العاطى الى جواره فى المعركة الناشئة بينه وبين رئيس التحرير فى التقارير بكلمة أو إشارة ، ولكن عبد العاطى كان كريما الى أقصى حد : كان يجلس بالساعات يدون أمام مدير التحرير كل حرف يقوله المدير فى حق رئيس التحرير ، هكذا دون مراجعة ودون اعتراض ، ثم يضع التقرير فى ظرف ويستأذن مسرعا ليذهب الى المخابرات .

كرم أخلاق من جانب عبد العاطى قابله مدير التحرير بكرم أكثر ، فارتفع مرتب عبد العاطى الى ستين جنيها ، سستون جنيها مرتب أستاذ جامعى أصبح يلهفه كل شهر هذا الجاهل الاحمق المأفون !

واستشرى عبد العاطى كالسرطان فى أنحاء الدار ، يدفع المحرر - أى محرر - بكتفه أو يلزقه من باب الهزار ، ويتلطمع عند أبواب المكاتب ويسترق السمع كلما وجد أكثر من ثلاثة فى اجتماع . . . كان يعد ويتوعد ويهدد وصوته أصبح أعلى من صوت مكنة الطحين ، ودائما يدوى بين جدران الدار ، ولكن رغم جلال عبد العاطى ودلاله كان يخشى العبد لله ويتحاشاه . . . وكان كلما التقى بى مصادفة فى الطريق ضرب تعظيم سلام

ليس كما يفعل الناس العاديون ، ولكن على طريقة رجل الشرطة
عندما يصادف ضابطا في الطريق .
ولقد كنت أكرهه واحتقره وأبدي له في وجهه رأيي
الصريح .

و ذات مساء دخلت الجريدة منهاكا . . فقد كنت قد انتهيت
تلك الليلة من كتابة مذكرات زعيم شهير من زعماء العهد
الماضي ، كانت الجريدة تنشرها له على حلقات ، ولما كان الزعيم
اياها ليس من محترفي الكتابة فقد توليت أنا صياغة المذكرات
في الثوب الصحفي اللائق ، وحمدت الله لأن هذا العمل الثقيل
على نفسي قد فرغت منه الى الابد ، ولم أكد أستقر على مقعدي
حتى جاء الفراش يدعوني لمقابلة المدير العام . وكان رجلا عفيا
وجهولا وعديم الخبرة بالصحافة . وناولني الرجل رزمة أوراق
قال في اختصار شديد وفي حزم أشد . . خذ مذكرات جديدة
عاوزها تنشر من الاسبوع القادم . . وقلت لا حول ولا قوة
الا بالله ، أخرج من نقرة أقع في حفرة . . يالللحظ التعيس على
رأي يوسف وهبي .

وفوجئت وأنا أراجع رزمة الاوراق في مكتبي بعنوان
المذكرات « أسرار الثورة المصرية ، حقوق الطبع والامتياس
محفوظة للاستاذ عبد العاطي . . المحرر الصحفي ، »
اذن هي مذكرات عبد العاطي . . يا للعار !
والمذكرات بالطبع كلام فارغ في فارغ وهرش
مخ ازلي ونصب واختلاق وكذب ليس له مثيل ! لكن كيف
العمل وما هي الوسيلة لافساد خطة عبد العاطي ؟ خصوصا
والمدير العام موافق على نشر المذكرات ! لم يكن هناك جدوى
من التفاهم مع مدير التحرير ولا مع المدير العام . . كان لابد
من طريق آخر لوقف نشر المذكرات . . كان لابد من فضيحة .
استدعيت عبد العاطي الى مكتبي وارتيديت قناعا رسميا
للغاية . . فلما أبصر المذكرات بين يدي حيائي باحترام شديد
وجلس في ادب بالغ يحدثني عن المتاعب التي صادفها حتى
استكمل هذه المذكرات والجهد البالغ الذي عاناه حتى حصل
على كل التفاصيل . . وعندما انتهى من سرد كل ما عنده من
حكاوي قلت له باختصار وبهدوء ، أنا عاوز انشر المذكرات

دى فى كتاب ، ونظر نحوى فى ارتياب وقال فى اصرار .. بس
أنا عاوز انشرها فى الجريدة ..

وقلت لعبد العاطى : طبعا .. بس انا عاوز اتفق معاك على
نشرها فى كتاب قبل ما حد يلغفها .. وهتاخذ ألف جنيه ..

ووقعت عليه عبارة الالف جنيه كالصاعقة ، فقال على الفور
.. زى بعضه ، وانت تاخذ تسعمائة وأنا آخذ ميه .. وقلت
لعبد العاطى غاضبا ، ازاي تقول كده دا عرقك وشقاقك .
عاوز أكل عرقك ، انت فاهمنى ايه ؟ وارتبك عبد العاطى
فلم يستطع أن يتكلم . وانتهزت فرصة ارتباكك فسحبت ورقة
وقلت له وهو تحت تأثير المفاجأة ، نكتب العقد دلوقت ..
ولكنه كان قد استجمع نفسه مرة أخرى فطلب مهلة حتى
يستشير بعض الاصدقاء . وبالطبع كان مستشاره الوحيد هو
مدير التحرير ، ولو استشاره فى الامر فسيدرك مدير التحرير
أن المسألة كلها مقلب ولعبة شيطانية من تدبير العبد لله . وكان
لابد من منع عبد العاطى من مغادرة مكتبى بأى صورة ، فقلت
له بصوت مزمر : دى فرصة ماتضيعهاش .. أو خذ المذكرات
دى وادبها لحد تانى يكتبها !

ورفعت سماعة التليفون على الفور واتصلت بيوسف
السباعى فى البيت . ورد يوسف السباعى وقلت له على الفور
وفى لهجة مؤدبة جادة للغاية .. خلاص يافندم ، عبد العاطى
قدامى هنا ووافق . ولم يكن يوسف السباعى يعلم شيئا عن
الامر ، فقال بطيبة متناهية .. عبد العاطى مين ووافق على ايه؟
قلت ليوسف أيوه خلاص .. ألف جنيه ونطبع الكتاب ، قال
يوسف فى دهشة مين اللى بيتكلم ؟ قلت محمود السعدنى .
قال طيب بتخرف تقول ايه ؟ قلت خلاص عبد العاطى وافق ،
وسيادتك موافق .. مبروك .. قال يوسف ضجرا .. انت
باين عليك اتجننت .. ووضع السماعة بعنف ، فقلت قبل أن
أغلق السكة ، حاضر يا فندم ، هنكتب العقد على طول ..

وصدق عبد العاطى الحكاية .. وراح يرقبني فى اهتمام
زائد وأنا أكتب شرط العقد : « اتفق كل من عبد العاطى المحرر
الصحافى له حقوق الطبع والامتياس طرف أول مع دار الهنا
والشفا للطباعة والنشر على نشر كتاب أسرار الثورة المصرية

وذلك بمبلغ ألف جنيه مصرى تدفع فور صدور الكتاب ، أما
الطبعات الشعبية فيتقاضى المؤلف مائة جنيه عن كل طبعة
تصدر فى الاقاليم ، وعددها عشرين طبعة فى كل من بنها
العسل وكفر بطه ومنوف والقصاصين والبدرشين وبنى
سويق وبنى مزار وأبو تيج وديروط ، وصرخ عبد العاطى
فجأة وقال فى توسل : لا بلاش ديروط ! وتساءلت انا فى
بلاهة : ليه ؟ فقال أصل دى بلدنا .. وعلى الفور استأنفت
كتابة العقد « وبشرط استثناء ديروط حيث انها بلد المؤلف »
كان الحوار قد جذب انتباه زميل كريم يجلس أمامى فى
هدوء يتصفح بعض المجلات الاجنبية . كان الزميل هو محمد
محبوب وأنا أحبه واجترمه كثيرا ! .. فقد كان شديد الانفه
شديد الكبرياء .. يحضر الى دار الجريدة فى موعد محدد
وينصرف فى موعد محدد ، ويؤدى العمل المطلوب منه على الوجه
الاكمل .. وكان نادرا ما يمزح ونادرا ما يختلط بالآخرين ،
ولكنه كان شغوفاً بالموسيقى مولعاً بالادب والفن .. ولقد جره
الحوار الى التوقف عن القراءة ومتابعة الحديث الغريب الذى
يدور بينى وبين عبد العاطى .. وخلع محبوب نظارته السمكة
ونظر نحوى باندعاش ، وقال وهو يشفط نفساً عميقاً من
سيجارته .. ايه الحكاية ؟ ولو أنا حكيت الحكاية فعلا لباظ
المشروع كله ، فقلت له دون اكرات : دا مشروع كبير جداً
وانت كمان هتقوم بالترجمة ! .. وقلت لعبد العاطى ، تحب
نترجمه انجليزى والا فرنساوى ؟ فقال على الفور : فرنساوى
أحسن .. واستأنفت كتابة العقد « وبشرط أن يقوم الاستاذ
محمد محبوب بترجمة المذكرات الى الفرنسساوى ويتقاضى
خمس مائة جنيه .. ويتقاضى المؤلف مثلها » .. وقدمت العقد
لعبد العاطى فوق عليه وانصرف .. وقدمت العقد لمحمد
محبوب وعندما انتهت من قراءته كانت ضحكته المجلجلة ربما
لاول مرة تهز جدران الدار كلها . وحملت المذكرات والعقد الى
المدير العام فأمر بوقف نشر المذكرات .. ووقف عبد العاطى
نفسه عن العمل .. ولكن لم تمض اسابيع حتى فصل المدير العام
وجاء مدير جديد وجاء معه عبد العاطى وأشاع عبد العاطى أن
المدير السابق فصل بفضل جهوده لدى صديقه فى إدارة
المخابرات . ولقد وجد عبد العاطى من يصدقه فارفع مرتبه الى

ثبّانين جنيهاً في الشهر . . وأصبح نفوذه في الجريدة يخشاه كل المحررين . وتطورت مهنة عبد العاطي فأصبح المحرر العسكري للجريدة . ونشرت صورته على غلاف مجلة اسبوعية مصورة كانت تصدر عن الدار . . وكتب مدير التحرير مقالا عن نشاط وجهود عبد العاطي في مهنة البحث عن المتعاقب والاهوال . . وأصبح عبد العاطي نجما صحفيا يشار اليه بالبنان ! خطوة واحدة فقط بقيت لعبد العاطي ليصبح صحفيا وليحقق كل الآمال . . أن يصبح عضواً بنقابة الصحفيين . . وكل شيء أمامه معد وجاهز وعلى خير ما يرام . . أوراق من الدار تثبت أنه يعمل صحفيا وبمرتبة كبير . وجميع الاجهزة الرسمية موافقة على انضمامه للنقابة . . ولكن بقيت موافقة نقابة الصحفيين ولقد وقفت نقابة الصحفيين موقفا شريفا وعظيما ضد انضمام عبد العاطي اليها . . وقال رخا رأسي والى سيف لا ينضم عبد العاطي للنقابة . . واذا دخل من الباب سأخرج من النافذة . ولم تتزعزع نقابة الصحفيين عن موقفها قط . ولكن ماذا يهم ، عبد العاطي شغال في الصحافة على ودنه ، ويوما ما سيدخل النقابة رغم أنف الصحفيين !

ولكن . . تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن . ضبطت الحكومة شبكة تجسس لحساب الغرب . . وضبطت أفراد الشبكة في حالة تلبس واثناء اجتماع في شقة رجل انجليزى في الزمالك . وسيق المتهمون الى السجن . . واغلقت الشقة بالشمع الاحمر . ونزل عبد العاطي مسرعا من الجريدة الى مكان الحادث ليكتشف ان كل شيء قد انتهى وان الشقة مغلقة بالضربة والمفتاح ، ولكن عبد العاطي الجسور نادى على البواب وأمره بفتح الشقة وفض الشمع الاحمر ، ولما سأله البواب عمن يكون ؟ أجاب ببساطة أنا من المخابرات ! وفتح البواب الشقة ودخل عبد العاطي ، وعبث طبعاً في محتويات الشقة ، والتقط صوراً لها من الداخل . . ونشر الموضوع كاملاً في الجريدة في صباح اليوم التالي ، وقامت الدنيا ولم تقعد . . والقى القبض على البواب وعلى عبد العاطي ، وأجرى معه تحقيق سريع ثم أفرج عنه بعد أربعة أيام . . ولكن هذا التحقيق الذى أجرى معه صار جزءاً من التحقيق في قضية التجسس نفسها . ومع التحقيق أرفق تقرير مفصل بالتحري عن عبد العاطي نفسه . وفي التقرير

كلام عن عبد العاطي يشيب لهوله سواد الليل ! وانقل لكم بالحرف الواحد ما جاء بالتقرير : « عبد العاطي محرر صحفي كان يعمل بالبوليس السياسى برتبة عسكري فى مدينة الاسماعيلية فى العهد البائد ، ثم فصل من وظيفته لاتهامه بالاتصال بالمخابرات البريطانية .. وهو دائم التهديد لزملائه فى العمل بأنه من المخابرات والبوليس الحربى بقصد الارهاب وابتزاز الاموال . وهو جاهل لايجيد القراءة والكتابة وقد حصل على علاوات كثيرة بفضل علاقاته المشبوهة ببعض كبار المحررين » !

انتهى التقرير ، ولقد تلقت نقابة الصحفيين هذا التقرير وقدمته الى المحكمة كتبرير لموقفها فى رفض قبول عبد العاطي ، وقد أمر القاضى برفض طلبه .. والى ابد الآبدين !

ولكن .. هل انتهت قصة عبد العاطي ؟ لا .. لقد ظل يعمل فى الصحافة رغم كل شئ ، وبعد شهور فصل مدير التحرير وفصل عبد العاطي .. وتقاضى ألف جنيه مكافأة وتعويضا عن فصله . وعندما رأته بعد الفصل بأيام ، كان رابط الجأش يؤكد لكل من يلقاه انه سيعود بفضل نفوذ صديقه ضابط المخابرات الكبير ! ولكنى التقيت به بعد ذلك بأسابيع ، وكان قد جف عوده واسود وجهه واحمرت عيناه وقال لى وهو يجلس منكسرا على المقهى ان عينيه احمرت من فرط البكاء ، ويبدو أنه فقد الامل نهائيا فى الاشتغال بالصحافة ، فافتتح محلا لبيع الفول المدمس والطعمية فى عابدين .. وعندما التقيت به ذات مساء امام الدكان راح يسب ويشتم فى الصحافة والصحفيين .. هذه مهنة الصياع والذين بلا عمل ! كان هذا هو رأى عبد العاطي فى أول عهده بصناعة الفول ! وكان يحلم بثروة ستهبط عليه من وراء هذا المشروع الجديد .. وانه يوما ما سيصبح مليونيرا مثل أبو ظريفة وأبو عظيم ! ولكنه لم يلبث أن أفلس بعد شهور . واختفى عبد العاطي سنوات طويلة ، ثم التقيت به مصادفة .. ويا له من لقاء ! اكتشفت ان مكتبى قد انفصلت احدى قوائمه فأرسلت فى طلب نجار ، وعندما جاء النجار اكتشفت انه عبد العاطي نفسه ! كان يرتدى بتطلونا وقميصا وقد أرسل ذقنه ، ودب الشيب فى رأسه وقفز عمره عشرات الاعوام دفعة واحدة ! .. وجلس يحكى لى فى مرارة عن كفاحه وصراعه فى الحياة ، ولكنه

لم يكن قد فقد الامل نهائيا في العودة للصحافة .. سأعود اليها بعد أن تنصلح الاحوال ! ولم أفهم أى أحوال كان يقصدها عبد العاطي . وقبل ان ينصرف دعاني الى زيارته فى الدكان . واكتشفت عند الزيارة انه لا يزال يعيش فى الماضى .. مقالاته معلقة على الجدران وصورته على غلاف المجلة تصدر المحل وتحتها عبارة الصبر مفتاح الفرج . وقدمنى لزملائه فى محل النجارة .. لفندى كان زميلى فى الصحافة ، عشان تصدقوا ياولاد الهرمة ! وصاح عامل كان منهمكاً فى نشر لوح خشب .. والنبي تتلقح وتسكت . وقال عامل آخر ، ماتريحنا يا اخى وتروح الصحافة بتاعتك . وهز عبد العاطي رأسه وقال فى وقار .. باذن الله بس لما تزول الاسباب ! وعندما سأله عامل عجوز ، والسبب ايه انشاء الله ، رد عبد العاطي على الفور .. خلاف سياسى من غير مؤاخذه !

تصوروا .. هذا الحمار الذى لا يعرف الفرق بين الحمار والحمار !

ثم غاب عبد المعطى بعد ذلك فلم أراه الا منذ عام ، كنت أجلس ذات ليلة على رصيف الدمياطى فى الجزيرة وكانت ليلة حارة ورطوبة تكاد تكتم الانفاس . ومد رجل شديد القدرة لحوح بدرجة مزعجة يده ، فمدت يدي أنا الآخر ووضعت فى يده شيئاً لله ! ولكن اليد ظلت ممدودة والشخص القدر ظل مكانه لا يتحرك على الاطلاق ، وعندما نظرت فى وجهه اكتشفت انه عبد العاطي ! وان يده ليست ممدودة من أجل قرش ولكن يده ممدودة من أجل السلام .. وصافحت عبد العاطي وجلست معه حتى الصباح . لقد فشل فى كل المهن ، الفول والنجارة وحتى فشل كطباخ ! ذهنه لا يجيد العمل .. فلم يعد أمامه الا عرق الجبين والسواعد والاقدام . ولقد تدرج عبد العاطي فى النهاية ليستقر فى سفح الحياة كشيال فى محطة الترولى باس ! أية مأساة عنيفة هى حياة عبد العاطي . فلقد خلق عبد العاطي فعلاً لمهنة شيال فاذا به بسبب بعض الاوضاع المقلوبة يتحول الى صخافى شهير ولكن لعدة اعوام .. لقد كان من الطبيعى أن يكون عبد العاطي شيالا .. وكان من المنطقى أن يظل شيالا من الميلاد حتى الممات .. فهذه هى كل مواهبه فى الحياة ولكنه انقلب صحفياً شهيراً بعض الوقت .. وهذه هى المأساة !



وهكذا أصبحت - بعد تجربة عاصفة - واحدا من رجال السياسة . ولقد كانت تجربة صدمتني لا استطيع أن ازعم لنفسى أنها أنضجتني ! ولقد كنت قبل هذه التجربة المرة أشارك فى السياسة على الهامش ، وكنت وفديا بقلبي ، مع النحاس بعواطفى ، ضد جميع الاحزاب بقلقى وهمى وعدم استقرارى على حال ! ولقد خرجت من هذه التجربة بشعور غريب ، هو انه ينبغى أن أتذوق السياسة بلسان ساخر وان أسمعها بأنف مزكوم ! وبعد عام من قيام الثورة لم أكن قد شهدت حفلا سياسيا لقادتها . ولكن قدر لى أخيرا أن أقوم بأول رحلة سياسية مع قادة الثورة فى انحاء الريف وكانت رحلة لا تنسى . وكنا أربعة من الصحفيين مع عدد من قادة الثورة على رأسهم جمال عبد الناصر وحسين الشافعى . ولم أكن أعلمهم وقتئذ أن عبد الناصر هو زعيم الثورة وبطلها الوحيد . ولقد حرص هو خلال الرحلة ان يؤكد بتصرفاته أنه ليس الرجل الذى فى الضدادة ، وأنه ليس الرجل الذى حرك كل شيء قبل وأثناء ليلة ٢٣ يوليو . بينما كانت تصرفات وحركات أصغر

ضابط في الرحلة تكاد تصرخ بأن صاحبها هو الذي صنع كل شيء ودبر كل شيء ، وأنه لولاه لما حدث في مصر حادث ! وتحركت السيارات الى شبين الكوم حيث خطب عبد الناصر خطبته المشهورة التي دعا فيها الاستعمار أن يحمل عصاه على كاهله ويرحل . . أو يقاتل حتى الموت دفاعا عن صلفه ووجوده . ولم أكن أنا شديد التعلق بالسياسة تلك الايام خصوصا بعد التجربة المريرة وكنت قد أصبحت صاحب نظرة متشائمة وغير مبالية بأي شيء ولذلك لم أدرك مغزى هذه الكلمات ولا معناها . وظننتها لونا من الدعاية ، وأشياء للاستهلاك المحلي لا تزيد وهكذا أخذت الأمر ببساطة ، كما تعودت ان أخذ كل حركة سياسية تلك الايام ببرود . فقبل ذلك بعدة شهور قدر لي أن أقوم بدور تمثيلي مضحك في مسرحية سياسية هزلية ليس لها مثيل . فقد دعيت عند تنظيم الأحزاب لحضور ليلة سياسية يقيمها حزب المعارضة الذي دعا الى قيامه الزميل فتحى الرملى . ولقد كانت معرفتى بفتحى الرملى تمتد الى ما قبل ذلك بأعوام . فعندما كنت تلميذا بمدرسة المعهد العلمى الثانوى شاهدت شخصا يرتدى ملابس العمال يوزع على الناس فى حى السيدة زينب منشورات ثورية ملتهبة ضد النظام الملكى القائم ويدعو فى الوقت نفسه الى انتخابه نائبا عن الدائرة ، وكان الشخص اياه هو فتحى الرملى نفسه . ولكن منظر فتحى الرملى ودعوته لم تشغلنى كثيرا فقد كنت مطهوما وقتئذ فى المعركة الانتخابية الى جانب مصطفى عبد الهادى صاحب مدارس المعهد العلمى . .

ثم تعرفت اليه بعد ذلك فى جريدة الجمهور المصرى واحببته . ولذلك لبيت دعوته لحضور مؤتمر الحزب . وفوجئت بعشرة أنفار فى المؤتمر ، وشاب ضئيل الحجم يرتدى نظارات طبية ويتكلم بفصاحة يتصدر الاجتماع . وبدأ الشاب حديثه عن حركة الحزب الجديدة وبرنامج العمل الذى ينبغي علينا ان نقره واسلوب العمل فى المرحلة القادمة . وكانت نعمة جديدة على اذنى . فلم أكن قد سمعت مثلها فى أى ندوة سياسية من قبل . كان الكلام طيبا ولكن واقع الحال لم يكن كذلك . فلم يكن فى مؤتمر الحزب سوى عشرة أنفار أغلبهم حضر دون رغبة فى الحضور مثلى . هل نحن فعلا الطليعة كما قال الاخ الضئيل اياه ؟! وهل ستقوم على اكتافنا نحن كل التغيرات المنتظرة فى المجتمع المصرى فى المرحلة القادمة ؟ وهل المسألة جد أم هزار ؟

وتأكدت انها هزار عندما طلب الاخ المتكلم من الحاضرين ان يدفع كل منهم خمسة وعشرين قرشا وان يترك صورته باعتبارهم . . الهيئة التأسيسية للحزب الجديد . ودفعت الربع جنيه وتركت صورتي وانصرفت ، وفوجئت بأخبار الحزب منشورة في جريدة المعارضه ، والهيئة التأسيسية بكامل هيئتها مجتمع ، وصورة العبد لله تحتل أفضل مكان بين الحاضرين . عندئذ تأكدت ان المسألة هزار . لاننى فى واقع الامر لم أكن مع هذا الحزب ولم أكن ضده . ولم أكن مشغولا حينئذ الابعملى الصحفى وان احتفظ بنفسى ثانيا على حبل الصحافه الذى كان يهتز كثيرا تلك الايام . ولكن صديقا آخر زارنى فى الجريدة فى اليوم التالى جعلنى انظر للمسألة نظرة أخرى . كان الصديق هو ابراهيم عبد العليم . ولقد عرفت ابراهيم أول عهدى بالصحافة فى جريدة صوت الامة . وكان لا يبدو مثل الصحفيين الآخرين . كان جادا ومهتما ومروورا على نحو ما . وكان يفلسف كل شئ . وذات يوم صدمنى صدمة قاتلة حين قررت امامه اننى أبحث عن عشرة قروش لشراء كتاب لابراهيم الوردانى . وكنت معجبا بابراهيم الوردانى الى حد الجنون . كان اسلوبه سهلا ممتعا شديد الاناقة والرشاقة كأن كاتبه تاجر من تجار الصاغة يجيد عملية سبك الكلمات الى حد ليس له نظير . ونظر ابراهيم نحوى باحتقار شديد ، وهاجمنى بعنف ، واتهمنى بالتفاهة والهيافة والجهل المقيم . لماذا ؟ لاننى أعشق الوردانى ككاتب ، مع انه لا يكتب الا لطبقة السادة واصحاب الطين !! ولم أفهم وقتئذ ماذا يقصد ابراهيم عبد العليم ، وظللت على حبى لابراهيم الوردانى ، وتبينت بعد ذلك اننى كنت على حق ، وكان ابراهيم عبد العليم على خطأ عظيم . فليس اسهل من العثور على مثقفين ، ولكن ما أصعب الحصول على فنانيين . واذا كان لديك عشرة مثقفين فمن الصعب أن تجعل من احدهم فنانا ، ولكن لو كان لديك فنان واحد وجاهل ، فما أسهل عملية تحويل هذا الفنان الجاهل الى فنان مثقف وملتزم وعظيم !!

ولقد ظلت العلاقة بينى وبين ابراهيم عبد العليم كعلاقة القط والفار . ولكن صداقتنا ظلت قائمة من بعيد ، حتى جاء يوم زارنى فيه فى الجريدة وانها على رأسى بكلمات التفاهة والهيافة ولماذا هذه المرة ؟ لاننى أصبحت عضوا فى حزب فتحى الرملى الجديد . وشرحت لابراهيم الامر ، واننى انضمت

الريف ، وقال ابراهيم اذن هات صورتك • ولم أسأل لماذا ، ولكنى أعطيتها له • الى هذا الحد أصبحت صورتى مهمة ؟ وبعد اسبوع كانت صورتى منشورة فى إحدى المجلات على اننى احد أعضاء حزب التحرر الوطنى !! هكذا مرة واحدة أصبحت الاحزاب تتقاتل من أجل وتتنافس فى سبيل الحصول على صورة العبد لله ! ونفس الشيء الذى حدث من ابراهيم عبدالعليم حدث من فتحى الرملى ، جاءنى الى الجريدة وعاتبنى على انضمامى لهذا الحزب المنافس ، وقلت له ما جرى بينى وبين ابراهيم بالحرف الواحد ، وانصرف فتحى لاكتشف بعد اسبوع ان كل ما دار بينى وبينه قد أصبح مادة فى جريدة المعارضة، وتكذيب بالبنط العريض لما أشيع عن انضمامى الى حزب التحرر الوطنى ، ثم تأكيد لشعب مصر باننى لازلت فى حزب المعارضة واننى لازلت على العهد مقبم ؟! تمثيلية ما كان اصلحها على خشبة المسرح الكوميدى لولا أن المسرح الكوميدى لم يكن قد ظهر بعد ! ولكنها حادثة كان لا بد من ذكرها قبل أن نمضى معا فى رحلتى مع عبد الناصر الى الريف • كان عبدالناصر يرتدى الملابس العسكرية ، وكانت هذه أولى رحلاته فى ريف مصر • ولقد لاحظت عليه خلال الرحلة أشياء لم ألاحظها فى احد غيره من قبل • عندما كنا نجلس على مائدة الطعام ، كان يسأل أولا أين الصحفيون ؟ وعندما يطمئن الى وجودنا على المائدة يسأل • هل قدم الطعام للسواقين ؟ ثم يسأل نفس السؤال بالنسبة لرجال البوليس المخصصين للحراسة • وعندما يطمئن الى أن الجميع قد تناولوا الطعام يبدأ هو الآخر فى تناول طعامه • وفى دسوق حدث لنا حادث غريب • جاء مدير المديرية فى الصباح وصافحنا - نحن الصحفيين - بحوارة • ثم جاء معنا لتناول طعام الافطار • ولقد كانت المائدة حافلة بكل أنواع الطعام • قشطة وبيض ورز محمر وحمام وفطير مشلتت وجبنة قديمة وزبدة وطواجن فول مدمس • ولقد نزلت أنا على القشطة والفطير المشلتت كما ينزل وباء على قرية ليس فيها طيب • وخيبة العبد لله أن نفسى مفتوحة وبطنى مريضة على الدوام • حتى فى تلك الايام عندما كنت شابا فى شرح الشباب كنت اذا تناولت الطعام فى وليمة ظللت أسبوعا اصرخ من بطنى • ولم يدر بخلى أبدا اننى مريض • • ولو اننى تداركت الأمر من البداية

فلربما أصبحت الان فى حال غير هذا الحال . ولكنى لم أدرك هذا الا أخيرا ، وبعد أن التهبت مصارينى التهابا أبديا لا دواء له ولا خلاص منه ولا فائدة ترجى فيه !

وقمنا من الافطار الى بعض الزيارات الرسمية . ومن هناك الى جامع سيدى ابراهيم الدسوقى لحضور صلاة الجمعة . وعندما دخل عبد الناصر ومن معه الى الجامع ، تصدى مدير المديرية لنا نحن الصحفيين بالذات ومنعنا من الدخول . ولما احتج احدنا على هذا الاجراء رفع الرجل المخبول عصاه وانهاه بها ضربا علينا ، ورحنا نجرى فى كل اتجاه . وهكذا صدرت الصحف الاربع اليومية الكبرى فى الصباح وفيها وصف تفصيلي لرحلة قادة الثورة فى دسوق . وأجمعت الصحف الاربعة على أن السيد دسوقى عبد السميع مدير المديرية كان فى استقبال وفى وداع الجميع . ولم يكن المدير اسمه دسوقى عبد السميع . ولذلك جاء يجرى مهرولا فى الصباح الباكر الى استراحة الرى حيث كنا نقيم وبدا لنا خلال حديثه معنا أنه يعانى غيظا شديدا نحونا ، والسبب أننا كنا تجاهلناه فى اليوم السابق فلم نذكر اسمه ولم نشر الى وجوده وأدركت عندئذ كم هى قوية الصحافة وكم هى ضعيفة امامها أجهزة الادارة والحكم . من أجل أننا تجاهلناه كاد يموت غيظا ، ومن أجل أننا لخبطنا اسمه جاء يعتذر ويبكى !

وتركت دسوق الى مدينة أخرى وفى ساحة الاحتفال جاءنى رجل معمم وصافحنى باحترام شديد رغم أنه فى سن والدى . وقدم نفسه على أنه مراسل جريدة القاهرة فى الاقليم ، ثم وقف فجأة وخبطنى قصيدة عصماء فى وصف صفات النبيلة وكلها لا تخرج عن دائرة الحكيم والعليم والامير والكاتب التحرير وكل الذى يشلاضم الشرشير !

لا بد أنه القاها من قبل فى وصف عشرات من الناس فى مناسبات سابقة ! وفجأة راح يقدم لى صفا طويلا من الناس ، حضرة العمدة وولده ، الشيخ فراج وأبناء عمومته الحاج وهدان وابن خاله ، الوجيه عبد الشكور وعائلته وصافحت الجميع باحترام ، فقد ظننت لحبلى أنهم جاءوا خصيصا لمقابلتى ! وفجأة سحب من جيبيه كشفا واعطانى اياه وقال وهو يسيل غزوبة ورقة ، أنا اشتغلت عشان انت ما تتعبش نفسك . الوصف وكل شىء على ما يرام ، انت تبعت الرسالة بس فى الوصف اياه وكان عن وصول قادة الثورة للمدينة مجرد سطر واحد ثم وكان فى استقبالهم حضرات الحاج وهدان

وعائلته والشيخ فراج وأهل بيته والوجيه عبد الشكور وابن خاله . كشف بأسماء العمد والاعيان فى الناحية . وهذا لكشف مجرد اعلان مدفوع الاجر للمراسل اياه . ويبدو أنه توسم فى العبد لله الغفلة والسذاجة فخطبني القصيدة اياها وتوكل على الله ! وطويت الكشف ووعدته خيرا .

انتهى الحفل فى المساء واستعد الجميع لمغادرة المدينة الى مدينة أخرى . وهرع الجميع نحو السيارات التى كانت تنتظر على جانب الطريق وانحشرت مع الصحفيين فى سيارة صغيرة سوداء وعندما تحررت بنا السيارة مخترقه الساحة لمحت الشيخ المراسل اياه يقف وسط وفد العمد والاعيان وقد فشخ بقه عن ابنسامة رضا باهاء . فبا هو كشفه الممد من ذهب الى المحرر ، وها هو سيقبض غدا أجر النشر وسيصبح مبسوطا شبعانا باذن الله !! وهتكت فجأة وبذ سابق تدبير أناديه : ياشيخ عبد السلام . وصرخ هو الآخر كأنه عسكري بلوكات نظام نادى عليه حضرة الاميرالاي الكبير . أفندم . . . وقلت على الفور ، خد يلعن أبوك . والقيت له بالكشف من نافذة السيارة ، وامام رهط العمد والاعيان وأهل بيوتهم . ولقد أدركت من خلال تلك الرحلة مدى خيبة الصحافة فى الاقاليم . . . مراسلى الصحف فى الريف جميعا تلك الايام كانوا مراسلين هواة . . . جزمجية وقهوجية وأصحاب دكاكين بقالة ومراسلون لجرائد كبرى ومحترمة فى العاصمة أى سطر فييا كفيل بزلزلة عروش الحاكمين فى الريف . ولكن بدلا من أن تصبح الصحافة فى الاقاليم عينا على الادارة أصبحت عينا لها . . . وتحول مراسلو الصحف الى ذبول للسلطة الحاكمة ، مهمتهم الحقيقية التقرب للمدير والحكمدار واطفى البلدية وعساكر البوليس ، وأصبحت كل سمهراتهم فى بيوت العمد والاعيان والذين يملكون القعدة الطرية واللقمة الطرية ويملكون ما يستطيعون أن يدسوه فى يد المراسل النشط . . . ومن بين هؤلاء المراسلين من استطاع أن يجمع ثروة ، ومنهم من اقتنى البيوت والاطيان واصبح من اعيان الريف . ولقد وصف أحدهم ذات يوم فى عام ١٩٥٠ ثورة الفلاحين فى بهوت بأنها تمرد من جانب البلطجية والصوص والمشاغبين ضد حضرة صاحب السمو الملكى ولى العهد المعظم الذى لا يترك مناسبة الا ويغمر فيها بكرمه وعطفه الفقراء والمعوزين !

أدركت حينئذ أن مشكلة الصحافة ينبغى أن تحل من هنا .

فإذا كان الصحفي خطيرا في المدينة فليس أخطر منه في الريف .
ولو وجد في كل عاصمه محافظه صحفي محترف ومحرم ،
الصحافة عنده رسالة وليست وسيلة لآكل العيش . . لو وجد
هذا الصنف الممتاز من الصحفيين في الريف لانصلحت احوال
كثيرة ولانزاح ظلم كثير . . ولأصبحت رسائل الصحفيين من
جوف الريف ذات اهمية كبرى . . ولها الاحترام الواجب
والتعظيم . ولكن أغلب رسائل مراسلي الريف تأخذ طريقها
بسهولة الى سلة المهملات . . حتى الجيد منها والمفيد . ليس
أهلا من الصحفيين في القاهرة ، ولكن لأن مراسلي الريف لم
يستطيعوا أن يعرضوا أنفسهم باوقف المحترم والساوك
الشريف . . ولقد كنت أعرف أحدهم منذ عشرين عاما يرسل
جريدة كبرى ويتنطط طول النهار في قطارات الوجه البحري
يبيع للمسافرين الروائح العطرية والدهانات التي تعيد الشباب
للشيخ السقيم !! . . وأحدهم كان عضوا في أخطر عصابة عرفها
الصعيد ، وأحدهم كانت مهمته الوحيدة أضحاك سعادة المدير
بأن يقف وسط أى حفلة يحضرها المدير ويلزق نفسه على قفاه
ويصرخ كالطفل ويتشقلب كالقرد الظريف !!

رحلة ممتعة خرجت منها بدروس عديدة . . وخرجت منها
بصداقة رجل فلاح من ريف مصر العظيم . . فلاح اسمه
محمد الجمال . . احترف التدريس فترة في المدارس الالزامية
ثم احترف السياسة واستطاع في فترة قليلة ان يصل الى قمة
جهاز سياسي كان له شأن كبير في مصر في فترة من الزمان
هو المؤتمر التعاوني العام . ولقد استطاع محمد الجمال ان يصل
الى سكرتارية هذا المؤتمر بفضل كفاحه وتعبه الشديد . ولكن
الشلل ضربته ضربة قاصمه ، والمخابرات العامة افسدت حياته
وابعدته عنوة من ميدان التعاون ليحتل مكانه بعض الامعات
الذين كانوا اقارب لبعض السادة في ادارة المخابرات مع ان
محمد الجمال كان من اول من آمنوا بثورة عبد الناصر في اول
يوم من قيامها ، ولقد اندفع في تيار الثورة بعنف ، وسبح في بحرها
بمهارة ، كان يحب عبد الناصر الى درجة الجنون ، ويقدر
اسمه الى درجة انه كان يقسم به . ولكن من قال ان الذين
كانوا يحبون عبد الناصر كانوا يشقون طريقهم بسهولة ؟ من
قال ان تلاميذ عبد الناصر المخلصين كانت لهم الولاية على الامر ؟
لقد اصطادت مراكز القوى معظمهم ، وضربت أكثرهم بلا هوادة .
وكان محمد الجمال عنوانا على هذا الطراز من الرجال المخلصين .



وكما ورقه شجر هشة تتقاذفها الريح هكذا كنت انا في مطلع عام ١٩٥٤ . والثورة لم يتبلور اتجاهها بعد . ولم تكشف عن هويتها بعد . والاحزاب القديمة لاتزال في عنفوانها ولكنها تبدو على السطح هامة في انتظار فرصة . وبينما كانت الاحزاب القديمة تعرف اتجاهها بدقة . كانت الثورة تبدو مضطربة ، فهي احيانا حركة وهي نهضة وهي ثورة !! وهيئة التحرير التي كان شعارها « كلنا هيئة التحرير » لم تستطع ان تنفذ الى صفوف الشعب ولم تستطع ان تجعل ولو « بعضنا هيئة التحرير » وظل تنظيم الثورة مجرد بناء ولكن بلا روح ! ولذلك ما ان تفجرت ازمة مارس عام ١٩٥٤ حتى هاج الشارع كله ضد السلطة . وكم كان غريبا حقا ان يتحالف أقصى اليمين مع أقصى اليسار في سبيل تحقيق هذا الهدف . ولقد اخطأ الشيوعيون خطاهم التاريخي الثاني خلال تلك الازمة . وكان خطوهم الاول في عام ١٩٤٨ حين دعوا الى قبول تقسيم فلسطين لان المشكلة الاساسية في اعتقادهم كانت في الداخل !! ولقد هاجموا حرب فلسطين باعتبارها مؤامرة لصرف الانظار عن فساد النظام الرأسمالي وقتل زهرة شباب الامة في حرب ليس من ورائها اي طائل !! وكان خطوهم الثاني حين تحالفوا مع أقصى اليمين للاطاحة بالثورة ، ووزعوا منشورات دعوا فيها

الشارع الى ضرب السلطة باعتبارها عميلة للامبريالية الامريكية ولكن هكذا هم الشيوعيون دائما سيئون يخطئون الحساب رغم نواياهم الطيبة .. وسيبقون دائما في معزل عن الجماهير لانهم لا يحسنون بالضبط تحسس رغباتها ! ولانهم يعيشون في في سطور الكتب ولا يعيشون في حركة الناس . ولانهم يطبقون نظريات محفوظة على واقع ليس له علاقة بهذه النظريات !!

ولكن اين كان العبد لله تلك اللحظات التاريخية من عمر الوطن؟ لم اكن مع السلطة . كنت مجرد متفرج لا يعنى بالضبط ما يدور حوله . شئ واحد فقط شككني في الحلف الذي انبثق ضد الثورة هو ان الجميع سارعوا الى دخول الحلف ما عدا مصطفى النحاس . ولم يصدر بيانا ولم يفتح فمه بكلمة . صحيح ان قطاعات كثيرة من الوفد تحركت ولكن مصطفى النحاس لم يتحرك . لعله كان يدرك بغريزته الطيبة انها حركة حق يراد بها باطل . وبقدر ما كانت تلك الايام عصيبة بقدر ما كانت مفيدة . فقد كشفت نوايا كثيرة كانت مستترة! واطّرت اطماعا كانت مخفية . وتحولت الديمقراطية الى علم يختفي تحته كثير من المصالح الطبقية والاطماع الشخصية ..

ولكن جماهير العمال حسمت الموقف في النهاية لمصلحة الثورة وأمام محكمة الثورة وقف عشرات من رجال الاحزاب القديمة وبعضهم يستغفر وبدا هؤلاء الآلهة الصغار كدمى اطفال ، لايمان بشئ ، ولا استعداد للدفاع عن معتقاداتهم .. ولقد دعيت للشهادة امام محكمة الثورة ولكنني رفضت بشدة . والسبب ان المتهم كان صاحب جريدة عملت معه فترة قصيرة في بداية الثورة ثم تركت العمل معه في منتصف عام ١٩٥٣ وذهبت للعمل كمحرر في جريدة القاهرة ، ولقد خاض الرجل عدة معارك ضد حزب الوفد وضد احزاب الاقلية ولكنه كان يحيط نفسه ببطانة سيئة جرت عليه المتاعب وجابت له المصائب . ولانه كان متهما بالخيانة العظمى وانا لاشهد على خائن الا اذا كنت متأكدا من خيانتة . وايضا .. لان الذي دعاني الى الشهادة ضده كان صحفيا مشبوها يستحق السجن المؤبد بسبب جرائمه الوطنية ! وقد حضر الى ذات مساء في جريدة القاهرة وحرصني على الذهاب للشهادة ضد الرجل الذي عملنا معه فترة من الزمن . وراح يغريني بوعود هايفة فلما التزمت جانب الرفض طلب مني ان اذهب الى النيابة لانها تطلبني . ولكنني لم اذهب حتى استدعتني النيابة رسميا . ولقد كنت تلك الايام أعمل مندوبا للجريدة في محكمة الثورة . وكانت النيابة في مبنى المحكمة فذهبت

اليها والتقيت بأحد أفرادها . وحكيت للرجل كل ما كان يدور في الجريدة خلال فترة عملي هناك . وحكيت له بصدق ولم أخف شيئا . ولكنه سألني سؤالا مباشرا عن واقعة الحياينة فنغيت له علمي بشيء مثل هذا ولو انني كنت أعلم وسكت ، فأنا خائن أيضا . وكف وكيل النيابة عن سؤالى وطوى أوراقه ولم يكتب حرفا . وانصرفت من مكتبه فى سلام فقد استغنت النيابة عن شهادتى . وعلمت بعد ذلك أن أربعة فقط من المحررين قد شهدوا ضد الرجل فى واقعة الحياينة ، أما الاخرين فقد امتنعوا عن الشهادة مثلى . ولم يكن هذا موقفا منهم لأخفاء الحقيقة . ولكن لانهم فعلا لم يكونوا يعلمون شيئا ! وسارت القضية فى طريقها العادى وقضت المحكمة بسجن المتهم واسفت المحكمة فى الوقت نفسه للموقف المزرى لبعض المحررين ..

وكان اسم العبد لله فى قائمة المحررين الذين وضعوا انفسهم فى الموقف المزرى ، وطالبت المحكمة بأحالة امر هؤلاء المحررين الى نيابة الصحفيين ، ولكن اغلب هؤلاء المحررين لم يكونوا أعضاء فى النقابة .. وكنت أنا واحدا منهم . ولقد كانت القائمة تضم عددا من الشباب الذين تتفق مصالحهم مع مصلحة الثورة . ولكن الثورة فى بداية الامر لم تكن تهتم بهذا الاسلوب فى فرز الناس ..

وكانت تعتمد اعتمادا كليا على هذا النفر القليل من الثوار الذين خرجوا ليلة ٢٣ يوليو . ومن هنا جاء اسفها على موقف بعض الشبان الذين كانوا يقفون فى الواقع فى صف الثورة ويحملون سلاحها ، وبدلا من احتضانهم حكمت الثورة ضدهم ، واغلبهم صحفيون واعون وفنانون بحق . الشاعر كمال النجمى والشاعر محمد الفيتورى وابراهيم البعشى والأمير المليجى ويوسف فكرى والعبد لله . اغرب من هذا ان القائمة ضمت رجلا لم يكن يوما ماعلى علاقة بالمتهم ولا بالجريدة التى كان يصدرها .. هو الفنان عبد الرحمن الحميسى . وكان لهذا الحكم على نفسى وقع الصاعقة . وقضيت عدة ايام هائما على وجهى فى شوارع القاهرة . وخيل الى ان هذا الحكم بمثابة حكم بالاعدام على مستقبل الصحفى . يالايام السود التى عشتها بعد صدور هذا الحكم حتى كدت اعتزل العمل الصحفى واتوارى فى عمل آخر فى الظلام . ولكن الايام مضت بى بعد ذلك ولم يلحق بى أى اذى . بل ان احدا لم يلفت حتى نظرى لا من المسئولين فى النقابة ولا من المسئولين فى الجريدة . وعندما فصلت من عملى فى جريدة القاهرة اخذت طريقى بسهولة الى مجلة التحرير -

مجلة الثورة - دون ان يعترض احد . ولم ادخلها كمحرر عادى
الا لمدة اسبوعين ثم اصبحت مديرا لتحريرها فترة طويلة من
الزمن . ولكنى قبل ان اترك جريدة القاهرة اتيج لى فترة من
الوقت كافية لانشر على الناس دراسة عن النكتة المصرية وظرفاء
مصر منذ عبد الله النديم الى كامل الشناوى . واكتشفت ان اغلب
هؤلاء الظرفاء اشتغلوا بالسياسة ، وكانت النكتة سلاحا من
أسلحتهم . واكتشفت ايضا انهم كانوا زعماء جماهريين بحق
لانهم دخلوا مزاج الناس من خلال الكلمة الضاحكة واللفتة الذكية
والنكتة الحلوة . ولقد قادتنى هذه الدراسة الى حقيقة باهرة ،
هى ان الذين يتصدون لقيادة الشعب المصرى ينبغى ان يعرفوه
حق المعرفة وأن الذى يتصدى لهذه القيادة ينبغى أن يخاطب
الشعب المصرى باللغة التى يجيد فهمها . ولا يمكن قيادة شعب
مثل شعبنا بالكلمات المرصوفة والنصوص المحفوظة . ولعل
هذا هو السر فى غياب الشيوعيين عن مجلس قيادة الشعب
المصرى فى مختلف مراحل كفاحه منذ عام ١٩٢٤ حتى يومنا
هذا ولعل هذا السر هو الذى جعل الجماهير تهب لحرق مقر
الحزب الشيوعى فى عام ١٩٢٤ بينما كان زعماءه يزعمون ان
الشعب يمشى خلفهم لعله كان يمشى خلفهم ليؤدبهم لانهم
كانوا - ولا يزالون - يتناولون الاشياء بطريقة تخالف الطريقة
التى يتناولها بها شعبنا .

ولقد اتيج لى أن انشر دراسة عن فن قراءة القرآن منذ
عمنا الشيخ أحمد ندا الى عمنا الشيخ مصطفى اسماعيل . ولقد
استقيت معظم معلوماتى عن قراء الجيل الماضى من المرحوم الشيخ
محمد الصيفى ، وكان الرجل عالما فى هذا المجال بحق . وايضا
من رجل أديب وظريف هو المرحوم مصطفى حمام . وكان حمام
صحفيا يهوى الشعر ، وشاعرا يهوى الصحافة . وكان محدثا
بارع الحديث حلو النكتة راوية للشعر القديم . وكان ذا صوت
حسن يقلد به مشاهير القراء ، الشيخ الفيشاوى والشيخ القاوى
والشيخ منصور بدار . وكان يبدو وهو يقرأ معجبا بنفسه
على نحو ما . كان يصبح عقب كل قراءة مهلا . . يا سلام ، الله
اكبر ، صلى على النبى كده واشرع . ولكنى لاحظت اختلافا
جوهريا بين رواية الشيخ الصيفى ورواية حمام . والسبب أن
الصيفى ، كان ينظر الى الموضوع من زاوية دينيه ، بينما كان
حمام ينظر اليه من زاوية فنية ولقد استفدت بحق من وجهتى النظر
المختلفتين كما أننى اعتمدت على نفسى فى دراسة القرئين من
ابناء هذا الجيل ولقد كنت - ومازلت - اعتقد ان الشيخ مصطفى
اسماعيل فلتة من فلتات هذا الفن . واعتقد

انه لن يكون له مثيل من بين المقرئين في المستقبل القريب . ولقد احببت الشيخ مصطفى وسرحت خلفه في كل مكان . من جامع الى مآتم ، ومن سهرة الى مولد . وذات مولد وكان في بولاق ذهبت خلف الشيخ مصطفى اسماعيل . واقتحمت المسجد مع شلة من الاصدقاء . وجلست بجوار الدكة التي يجلس عليها الشيخ مصطفى . ولم يكن المسجد مزدحما فقد كان الوقت عصرا وجموع المريدين لم تحضر بعد . وبدأ المسجد يزدحم . والحلقة تضيق حولنا حتى لم يعد هناك مكان لقدم . وعندما حانت صلاة المغرب ، هب الجميع ونحن معهم فاديننا الصلاة ثم عدنا الى اماكننا في انتظار قدوم الشيخ ولكن مر الوقت والشيخ لم يحضر . . وفجأة هب احد الحاضرين واقفا وصرخ بشدة وهو يصفق بيديه . . الله حي الله حي . .

ولم يلبث ان هب الجميع وقوا صارخين مثله ، فقد بدأت حلقة الذكر . وبدلا من أن نستمع الى الشيخ مصطفى اسماعيل وجدنا انفسنا رغما عنا وقوا وسط الحلقة ، نتمايل في حركات منتظمة ونصفق على الواحدة كأننا جميعا ضباط ايقاع ، حركات غريبة لم نتوقعها ومصير لم يكن في الحسبان ! وحانت مني التفاته الى احد افراد الشلة فاذا به يضحك . . ولم استطع ان اغالب الضحك فانفجرت ضاحكا انا الآخر .

وامتدت عدوى الضحك الى كل الشلة فانفجر الجميع ضاحكين وفورا امتدت الف يد تصافح اقفيتنا ، ثم امتدت الف برطوشة نحونا واختلط الناس ، لا احد يعرف بالضبط من الذي ينبغي ان يضرب ف ضرب الناس بعضهم بعضا ، جنون ينتاب الجماهير المحتشدة عندما يثور بينها حادث مفاجيء لم يكن احد يتوقعه واستطعنا وسط الفوضى ان نشق لانفسنا طريقا نحسو الخارج ، ولكن بلا احذية ، وخرجنا نرمح في الشارع مجموعة افندية حفاة نطلب الامان بعيدا عن بطش الجماهير ، واقسمت من يومها الا اذهب خلف الشيخ مصطفى اسماعيل . . واكتفيت بأشباع هوايتي في الراديو وفي المآتم المحترمة حيث الاحتمال بسيط في ان تثور فجأة عاركة بالبراطيش !

ولقد استمعت الى الشيخ عبد الباسط عبد الصمد في اول عهده بالقاهرة ، وقد استقبلته بفتور ، وخيل الى انه سيلمع فترة ثم لا يلبث ان يزول ، ولكن الشيخ عبد الباسط فرض نفسه فرضا بعد ذلك ، حتى استطاع ان يحتل في نفس المكان الثاني بعد الشيخ مصطفى اسماعيل ، وهناك من المقرئين

الدين لم يحققوا شهرة عريضة من يحتل مكانة سامية في نفسى من هؤلاء المرحوم الشيخ محمد فريد السنديونى ، الذى مات شابا . بعد أن اعتزل القراءة وافتتح لنفسه مفهى فى حى شبرا يستقبل فيه المعجبين ، ولم أزل حتى هذه اللحظة أبدي كلما استمعت اليه .

ولا يوجد بين المقرئين من ينزف صوته دما مثل صوت الشيخ السنديونى العظيم . والشيخ محمود عبد الحكم لأدرى لماذا لم يأخذ حظه من الشهرة .. رغم أن صوته كان ينبغى أن يتيح له هذا الصيت العريض !

ولكن الشيخ محمد رفعت ظل له المكان الاول فى نفسى رغم كل شئ .. ربما كان السبب هو أنه كان أول من استمعت اليه فى صباى ، حين كان يسحبني أحد أقاربي الى قهوة فى شارع أبو السباع ليدخن الشيشة ويسمع الشيخ رفعت طول السهرة ، ولقد تعرفت الى الشيخ رفعت بعد ذلك ولكن لفترة قصيرة ، لم يلبث بعدها أن مرض ثم مات يرحمه الرحمن الرحيم .

ولقد اتيح لى أيضا أن أنشر فى جريدة القاهرة مجموعة قصص مصريه قصيرة ، كانت من خير ما انتجت فى حياتى كلها ، ولقد ظهرت فى تلك الفترة التى كانت فيها القصصه المصريه مزدهرة وباهرة .. وجاءت عقب قصص زكريا الحجاوى القصيرة التى كانت هى الكوبرى بين القديم والجديد .. ولا أدرى لماذا توقف زكريا الحجاوى رغم أن بدايته كانت عملاقة وكانت تبشر بخير كثير ، ولكنها على أية حال كانت بداية الطريق الذى ظهر عليه يوسف ادريس .

ولقد أصبت بما يشبه الدوار عند قراءتى لقصص زكريا الحجاوى ، ثم أصبت بالذهول عند قراءتى لقصص يوسف ادريس . وكان احساسى الحقيقى تجاه هذه القصص اننى أكتب كلاما مثل هذا ولكنى أخشى نشره ، ولكن قصص يوسف ادريس القصيرة كان خير مشجع لى على نشر ما عندى من قصص ، فقد فتح هو الطريق .

ولو قدر للقصص فى مصر أن يأكل عيشه من انتاجه ، ولو تفرغ زكريا الحجاوى ويوسف ادريس وبعض كتاب القصة القصيرة الذين ظهروا فى الخمسينات لكتابه القصة فلربما كان لدينا الآن انتاج قصصى عظيم .

ولكن أعظم كتاب القصة القصيرة هجروها الآن الى مجالات أخرى فى الادب والفن ، ولم يبق فى الساحة الا نجيب محفوظ

رغم أن هوايته الأولى هي الرواية . ولكن قبل يوسف وزكريا
جذب انتباهي بشدة أحسان عبد القدوس في مجموعته بآسع
الحب وصانع الحب . . كما أدهشني كثيرا إبراهيم الورداني
في مجموعته نحن بشر ، كذلك كان أحسائي مع قصص يوسف
غراب ويحيى حفي ومحمود تيمور وطاهر لاشين ، ولند نان
النقاد في واد بعيد عن الأدباء الشبان ولولا تشجيع المرحوم
أنور المعداوي والدكتور عبد القادر القط لتوقفت تماما بعد أول
قصة . . بل إن الدكتور القط كتب عني فصلا كاملا في كتاب
له وقد حفزني هذا على الاستمرار في الطريق ، وما أكثر الذين
مدحوني شفاهة ولكن ما أقل هؤلاء الذين أبدوا رأيهم تحريرا
في انتاجي .

ولقد كتب لي يوسف السباعي مقدمة مجموعة قصصى
الثانية « جنة رضوان » وهو عنوان القصة التي وصفها الدكتور
على الراعى شفاهة ذات يوم بأنها أعظم قصة مصرية قراها
في حياته ، ثم لحس هذا الرأي بعد ذلك وناصبني العداء لخلاف
بينه وبين الحميسى لم أكن أنا طرفا فيه !

أما السبب الذى جعل يوسف السباعي يكتب مقدمة مجموعة
جنة رضوان فهو سبب يستحق أن يروى ، وهو سبب جعلنى
أؤمن بأن الجو الأدبى فى مصر هو مجرد غابة ، وإنك لكتى تضمن
لانتاجك أن يظهر وإن ينمو فلا بد أن تكون من أقوى الوحوش .
ولقد بدأت القصة حين أبلغنى يوسف السباعي أن الاستاذ
توفيق الحكيم ذكرنى فى معرض الحديث عن الأدباء الشبان
وأنه أبدى استعداداه لأن يكتب لى مقدمة مجموعتى الجديدة . .
وطلب منى يوسف السباعي أن أذهب لمقابلة توفيق الحكيم .
حدث هذا منذ أربعة عشر عاما . . حين ذهبت مسرورا الى
دار الكتب لمقابلة الاديب العظيم . . وفى أول لقاء معه أعاد
ماسبق أن قاله لى يوسف السباعي ، وطلب منى أحضار أصول
المجموعة الجديدة لى يكتب رأيه فيها . . وخرجت من دار
الكتب تكاد الارض لا تحملى ، ويكاد الفضاء أن يضيق بى !
ولم اتكم الخبر بل نشرته فى كل مكان وذكرته لكل من
قابلنى . . وبعد أيام حملت أصول الكتاب الى دار الكتب ،
ووضعت القصص بين يدى توفيق الحكيم ، ولم أكن أدري أنه
خلال تلك الايام التى فصلت بين لقائى الاول ولقائى الثانى ،
حدثت أشياء أقل ما توصف بها أنها عجيبة وغريبة ورهيبة ،
وليس لها مثيل .



عندما جلست أمام توفيق في مكتبه بدار الكتب بعد أسبوع من لقائي الاول أدركت أن شيئاً ما قد حدث . ولكن لم أستطع ادراك هذا الشيء على وجه التحديد . ولكنه اعتذر بأنه لم يقرأ قصص المجموعة الثانية وطلب منى في النهاية أن أمهله حتى شهر رمضان . . . حيث الوقت متسع للقراءة والكتابة على حد سواء وهز توفيق الحكيم رأسه وقال بطريقته المعروفة « ايه رأيك بقى ؟ » ووافقته بالطبع ، ولسكنى لم أنقطع عن زيارته حتى جاء رمضان . ومضى رمضان أيضاً وأنا مواظب على الزيارة وهو مواظب على الاعتذار ، وبعد ثلاثة أشهر كاملة أدركت أن توفيق الحكيم لن يكتب المقدمة . والحق أننى حزنت وتألمت بشدة . والسبب اننى كنت فى صباى المبكر أحب طه حسين وأفضله على توفيق الحكيم . ولكنى التقيت فى مطلع شبابه بطبيب مثقف أوصانى بقراءة توفيق الحكيم . لاننى « سأأخذ مصر بين السطور وسأشتم رائحة الارض الطيبة ممتزجة برائحة الحبر الذى كتبت به الكلمات » وقرأت عودة الروح فى البداية ولكنها لم تهزنى بعنف . ولكن عند قراءتى ليوميات نائب

فى الأرياف انتابتنى حالة غريبة من القلق والنشوة والامتناع
الفنى غمر كيانى كله وجعلنى ساهرا حتى الصباح دون
أن أشعر بحاجة الى النوم . ورحت ألتهم توفيق الحكيم بمعجوع
وجد نفسه فجأة على مائدة عامرة بأطيب الطعام . وكان
توفيق الحكيم هو البدايه التى دخلت منها الى ساحة الفن
المصرى العظيم ، وهى التى قادتنى الى هذا النفر العظيم من
الفنانين المصريين : ابراهيم عبد القادر المازنى وزكى مبارك
وبرم التونسى العظيم .

ولقد تصورت أن مقدمة يكتبها توفيق الحكيم لمجموعة من
قصصى سوف تدفعنى عدة آميال فى هذا الطريق . وستكون
شهادة ميلاد لى كتصاص جديد . ولذلك حزنت حزنا شديدا
عندما اعتذر ، ومن يدرى ، ربما لو كتب توفيق الحكيم المقدمة
لتفرغت لكتابة القصة وربما كنت اليوم أحد فرسانها الميامين .
ولكن لماذا اعتذر توفيق الحكيم عن كتابة المقدمة ، لذلك قصة .
وهى قصة لم يروها توفيق الحكيم ، ولكن الذى رواها واحد من
أقرب أصدقائه وأكثرهم اطلاعا على حقيقة ما يدور
عند توفيق الحكيم والذى حدث أن بعض الادباء الشبان
ذهبوا الى توفيق الحكيم وعاتبوه على اختيار مجموعتى لكتابة
مقدمة لهاورطنوا أمامه برطانة أعجمية فهم منها الحكيم الذكى الحذر
الشديد الحرص على ألا يقع نفسه فى مهاترات من أى نوع لكى
يقضى رحلة حياته العظيمة الطويلة بأذن الله قارئاً وكاتباً ولاشئ غير
ذلك فهم الحكيم ان هناك خلافاً وأن هناك أشياء لا يجوز له أن يخوض
فيها على الإطلاق . ولقد واجهت هؤلاء الأدباء بعد ذلك . . بعضهم
اعترف وبكى . وبعضهم اعترف واعتذر بأنهم كانوا فى حالة
نفسية شديدة السوء !

على أى حال ، لقد طبعت هذه المجموعة « جنة رضوان » فى
الكتاب الذهبى حيث طلب منى يوسف السباعى أن أسلم أصول
الكتاب الى احسان عبد القدوس . وكانت صلتى باحسان مجرد
صلة قارئ بكاتب ، وكنت أنا القارئ على كل حال . وايضا
صلة زميل صغير بزميل اكبر . ولكنى اكتشفت عند لقائى به
أنه قرأ مجموعتى الأولى « السماء السوداء » وأنه معجب بها على
نحو ما . ولم أكن أنا أدرك حتى هذه اللحظة ، ان ما اكتبه
يستحق اهتمام أحد من الكتاب الكبار .

وربطتني هذه المقابلة باحسان . فقد عاملني بود ، واحتفل بي بصدق . وسرعان ما دارت ماكينات الطباعة ، وصدر الكتاب في السوق . وسحبني يوسف السباعي بعد صدور الكتاب بأسبوع الى دار روزاليوسف لمقابلة الست . وكان هذا هو لقب السيدة روزاليوسف يرحمها الله . وذهبت مع يوسف السباعي في بدله جديدة . شامخ الانف ثابت الخطي ، فقد تصورت نفسي أحد كبار الكتاب في هذا العصر والأوان . وعندما أفتحمتنا الغرفة أكتشفت بأن الست ليست وحدها ، وإنما تراجع بروفات المجلة ومعها عدد من المحررين والعمال . وصافحتني بدون احتفال وقالت ليوسف السباعي « مين دا راخر ؟ » ورد يوسف في خوف : دا محمود السعدني . وقالت بعصبية :

لأخلاص مش هنتطلع كتب تاني بقي ، كفاية بقي ، كفاية بقي ، كتب الشبان دول مالهاش سوق ، كفاية خسارة !

وقال يوسف ما احنا لازم نشجع الشبان برضه ، ولكن هاردت في حزم : لا خلاص أنا قلت لا . وقال يوسف السباعي على كل حال السعدني كتابه طلع خلاص . وقالت الست لتنتهي المناقشة ، خلاص ، خليه يروح يقبض الفاوس . أربعين جنيه ، مفهوم .

وانتابتني حالة الحماقة التي تنتابني دائما كلما واجهت موقفا من هذا النوع . وهممت بأن أصرخ في وجهها ، ما هذا الذي تفعلينه ؟ أنا لست شيالا في محطة مصر . والخلاف بيبي وبينك على أجرة مشال من المحطة الى البيت ، أنا كاتب اعطيتك انتاجا هو عصير عمرى وتجربتي في الحياة ، وما ذنبي أنا اذا كان هذا الانتاج لم يجد سوقا ، وهل أنا تاجر في سوق العصر ؟ ولكن الكلمات ماتت على شفتي ، وتراجع يوسف السباعي خارجا وأنا خلفه . وعلى درجات السلم سألني يوسف انت شفت الست قبل كده ؟ . وأجبت بالنفي ، فقال يوسف وهو يضع يده على كتفي ، دي طريققتها لكن هيه ست طيبة ! وارتاحت نفسي لكلمات يوسف . فهذه الست العظيمة التي انشأت من العدم دارا صحفية وكتابا شهريا وصنعت كتابا ومؤلفين واصحاب اقلام من كل نوع . . وابنها من كبار الكتاب ، وأي كاتب اذن هو ابنها مهما كان . ومن أكون أنا في زمرة الكتاب !؟ ولم يسعدني الحظ بعد ذلك لمعرفة الست عن قرب ، فقد كان هذا لقاءنا الاول والاخير . .

وعندما عملت في دار روز اليوسف كان قد مضى على وفاتها
أكثر من عام ولكن ذكرى هذا اللقاء لم تبحر ذاكرتي قط .
ولقد حرصت بعدها على أن أعرف مدى انتشار هذا الكتاب ،
وأدركت انها على حق . فلقد كان أعلى رقم بلغه توزيع كتاب
هو عشرين ألف نسخة باعها كتاب الدكتور طه حسين وأعتقد
أنه الطبعة الثانية من « المعتذبون في الارض » وكان ثاني
كتاب وزع ذلك العام منذ ثلاثة عشر عاما هو كتاب « يوم الثلاثاء »
لأمين يوسف غراب وقد باع ستة عشر ألف نسخة بينما باع
كتابي ثلاثة آلاف نسخة وكذلك كتب كل الكتاب الشبان
الذين ظهرت في سلسلة الكتاب الذهبي ذلك العام .
ولكن الذنب لم يكن ذنبنا فلم تكن الجماهير قد
تعرفت علينا بعد ، وكانت كل وسائل
النشر لا تهتم الا بجيل الكتاب الكبار المشاهير أصحاب التاريخ
الطويل والعريق في الأدب والفن . وكان جيل الشبان في
حاجة الى من يقدمهم للناس ويتحمل الحسارة والتضحيات .
ولقد تحملت السيدة روز اليوسف هذا العبء . واشهد انها
كانت رائدة في هذا الميدان . وفي ذلك العام أيضا تعرفت
الى فنان مصر الاعظم بيرم التونسي . كان يجلس على مقهى في
السيدة زينب ، يكتب بقلم رصاص كلاما أشد فتكا من
الرصاص . ولكن هذا الوطني العظيم والاشتراكي المناضل
كان قد تحول خلال السنوات القليلة التي سبقت الثورة فكتب
كلاما ينشر في بعض المجلات ، يهاجم به حزب الوفد ، ولا
ادري ما الذي دفع مناضلا عظيما مثل بيرم التونسي الى هذا
العمل الرديء ؟ ومع ذلك لم يحط هذا العمل من قيمة الفنان
العظيم في نظري . ولقد كنت معجبا به الى درجة الجنون ،
فهذا الكاتب هو وحده الذي يستحق لقب كاتب الشعب . لانه
ظل يقاتل بقلمه كل القوى التي تعادى الناس الا في فترات
قليلة . وحتى في فترات ضعفه . وتخاذله كانت كلماته في
مدح الطغاة تقطر سماء . . ولازلت أذكر كلماته التي قالها في
اسرة محمد علي ولحنها وغناها رياض السنباطي .

محمد لما شرفها
بعينه المبصرة شافها
كنوز بس، الي يعرفها

ويعرف ينتفع بيها
مزارع جوها دافى
وطولها وعرضها وافى
وليه يمشى ابنها حافى
يمد الايد ويطويها
وليه القاضى والوالى
يجيبهم بابها العالى
وليه مايكونش طوالى
حاكمها من اهلها

وليس أبلغ من هذه الكلمات فى نقد أسرة محمد على ومع ذلك شربها الحمير وأذاعوها على انها قصيدة عصماء فى مدحهم . وعندما رأيت أنه كان منظره يوحى بأنه لا يزال فى المنفى . ورغم أنه كان خلال الاعوام التى تلت قيام الثورة يربح نقودا كثيرة الا انه كان دائم الشكوى . الشكوى من أنه لم يأخذ حقه كما

ينبغى ، ولأنه أيضا عندما بدأ يسترد بعض حقه كانت أيام الصحة والشباب قد ولت الى غير رجعة . ولقد توطدت صلتى به الى أن مات . وحتى الحظ النحس تدخل ليفسد عليه آخر متعة فى حياته فعندما ابلغ انه حصل على وسام الفنون من الدرجة الاولى كان المسكين يعانى سكرات الموت ، ولعله لم يسمع بالضبط كلمات التهنية على وجه التحديد ، ومع رحيل الليل رحلت روحه هو الآخر وفارق دنيانا بعد رحلة عجيبة وغريبة ورهيبة تجرع خلالها المر وتجشأ الاسى . وأشهد أننى ما تعلمت فى حياتى من أحد بالقدر الذى تعلمت به من بيرم ولم يبهرنى فنان مثله ، ولم أتعرف بالضبط على جغرافيته المجتمع المصرى الا من خلال كلماته .

ولقد كان الدكتور زكى مبارك هو الفنان المصرى الثانى الذى بهرنى بحق . . . وعندما تعرفت اليه كان يزحف ببطء نحو القبر . . . وكان يجلس فى بار صغير فى ميدان التوفيقية يشرب خمرا رخيصا ويكتب مقالات فريدة فى نوعها ، اذ يبدأ بموضوع ويتشعب الى ألف موضوع وينتهى المقال ولا ينتهى الموضوع الذى بدأه ، ولقد كنت أحب زكى مبارك لاكثر من سبب ، لفنه فى الدرجة الاولى ، ولأنه من سنتريس وهى على مرمى رصاصة من مسقط رأسى فى المنوفية . وأعتقد أن الدكتور زكى مبارك لم يوفه أحد من النقاد حقه ، ولم يأخذ

مكانه اللائق فى الحركة الادبية المصرية .. ولعل السبب انه لم يكن يحتفل بانتاجه ، ولم يكن يحفل أيضا بتدعيم الصلات والصدقات مع المسئولين عن الادب والفن .. ولكن الذى أحزننى حقا هو الكشك الذى كان يجلس فيه أيام الصيف فى سنتريس على حرف الرياح المنوفى . ولو كنا فى دولة عصره حقا لانتهاز مجلس قروى سنتريس الفرصة واحاط الكشك بحديقة .. ولاقام تمثالا للدكتور زكى مبارك فى الحديقة ، ولانشأ متحفا للدكتور الاديب الفنان ابن سنتريس فى الحديقة . ولاقام حفلات موسيقية وأدبية وفنية لاهل سنتريس فى هذا الكشك . ولكن الذى حدث عكس ذلك على طول الخط ..

هدم مجلس قروى سنتريس الكشك ، وزرعوا مكانه قمحا وبطيخا ! ويبدو ان شعار المجلس القروى القمح قبل الكلمة .. والطحن قبل الفن ! هذه العقلية نفسها هى التى جعلت محافظا سابقا من محافظى المنوفية لا أذكر من هو على وجه التحديد يصدر كتيباً فى عيد المنوفية ، تحدث فيه عن مفاخر المنوفية ومجدها . وكان أبرز ما قدمه من مفاخر المنوفية انها تنتج أعظم أنواع العجول ، وأنها انجبت لمصر ٣٧٤ وكيل وزارة ! ونسى المحافظ اياه ، أو لعله تعمد أن ينسى أن المنوفية أنجبت زكى مبارك والمرحوم عبد العزيز فهمى وسعد مكاوى وأحمد عبد المعطى حجازى وعبد الرحمن الشرقاوى وكل الذى لفت انتباه المحافظ ان المنوفية تنجب أعظم أنواع العجول . ووكلاء الوزارة ..

ولكن هذه هى حقيقة الاجهزة الرسمية المسئولة عن الفن والادب من الفنانين والادباء . هذا الموقف الذى جعل شاعرا عظيما مثل عبد الحميد الديب يعامل كمتسول وبائس وفقير لاينبغى ان تصدر له ديوانا ولا يصح ان يكون له فى تاريخ أدبنا .. تاريخ !

ولو وجد عبد الحميد الديب فى بلد مثل فرنسا ، لتألفت باسمه جمعيات وأقيمت ندوات ، ولأصبح له مطاعم يرتدى فيها الجرسونات ملابس المتسولين ، ويقدم فيها الطعام فى صحون من الفخار ، ولقامت جمعية للتأليف تحمل اسمه ودار نشر تهتم بمؤلفاته وتدرس ظروف حياته ومن خلالها تدرس ظروف عصره .

وهذا الموقف نفسه هو الذى جعل رجلا مثل الدكتور
ابراهيم ناجى ينام تحت تراب النسيان حتى غنت له أم كلثوم
أغنية الاطلال . مع ان ابراهيم ناجى شاعر عظيم وصاحب
مدرسة وفنان كان له أكبر الاثر على المدرسة الجديدة فى الشعر
الحديث وهذا الموقف نفسه هو الذى أدى ويؤدى الى الاحتفال
بشاعرة هايقة ليس لشعرها بكسر الشين ولكن لشعرها بفتح
الشين !

وأبرز مثل على هذا بنت حلوة وبضة وبیضة وكالبطة ،
وكان شعرها سائح كالحرير ، وجسمها سائح كالسمنة ، وعقلها
سائح كلوح ثلج فى شهر يونية . هذه البنت كانت تكتب
شعرا أكثر سيجانا من عقلها وشعرها وجسمها البض السمين .
ومن خلال هذا الشعر الهائى استطاعت ان يكون لها معجبين
وأن يكون لها شهرة عريضة ، وأصبحت صورها وأخبارها مادة
ثابتة فى الصحف اليومية . مع باب أين تذهب هذا المساء .
والتف حولها عشرات الشعراء والكتاب والادباء والصحفيين
وصار بيتها ندوة لرجال الادب والفكر ، وصار لها فى المجتمع
مكانة ومكان .

ولمعت الست البيضة المعجبانيا عدة سنين طويلة ، وصار
لها أكثر من ديوان وصدر عنها أكثر من دراسة . ولكن شهرتها
الادبية أفلت عندما تسلل الشعر الابيض الى شعرها الاصفر ،
وحفر الزمان تجاعيده فى جلد وجهها ، وذبلت العيون التى
كانت تشع نورا ونارا تحرق قلوب المعجبين .

وأكم من ست معجبانية حدث لها نفس الشئ فى مصر .
ولو فى بلد مثل انجلترا لوجدت هذه الست فرصتها كموديل
تقف زلط ملط أمام فنان يرسم لوحة . ولكن لان الاشياء
مختلطة ومتشابكة فى مصر فكل شئ ممكن وكل شئ ماشى
وكل شئ عال .

رجل مثل زكى مبارك يذهب الى النسيان ، وست مثل
بدیعة مصابنى تصدر عنها كتب ، وعن فلسفتها دراسات !

حقيقة تؤكد ان الموهبة ليست طريق الفن ، ولكن هناك طرقا
كثيرة ، ولكن أغربها هو الذى حدث لى شخصيا ، ولقد كان الذى
حدث .. أغرب من الخيال .



دېڭان

احسست بأننى حصلت على فرصة العمر حين أصبحت
 مسئولا عن باب النقد الأدبى فى مجلة أسبوعية شهيرة .
 وشرعت قلمى من أول لحظة لأهاجم الجيل الماضى من الأدباء
 الذين سبقونى . وكانت أول معاركى مع محمد عبد الحليم
 عبد الله . . . وكان هجومى قاسيا ومريرا ، وقد أحسست بخجل
 شديد عندما التقيت بمحمد عبد الحليم عبد الله بعد ذلك ،
 فعندما التقيت به تجهمت بشدة ، وتقلص جسمى وتركزت
 نظراتى فى عينيه كأننى ثعبان يهم بالتهام فريسة . ولكننى
 حزنت جدا وشعرت بالحجل الشديد عندما واجهتنى عبد الحليم
 عبد الله بابتسامة ، ومد يده نحوى فى بساطة ، وعاتبنى فى
 وداعه . ولم أعتذر أنا لعبد الحليم عبد الله ، ولكنى أحبيته ،
 وأمسكت لسانى عنه بعد ذلك فلم أهاجمه قط . ولذلك حرصت
 كل الحرص فيما بعد أن ابتعد عن المشاهير من الناس .
 لا أحضر اجتماعاتهم ، ولا أتزاور معهم ، حتى لا يكون بينى
 وبينهم صداقة . فأنا من النوع الذى تأسره الصداقة وتتحكم
 فى مزاجه العلاقات الشخصية . وأنا شديد الوفاء لكل من

ساعدونى فى بداية حياتى ، ولكل من قدم لى يدا بيضاء بددت قليلا من ظلام الطريق ! ..

ولهذا السبب لم أرد على هجوم مأمون الشناوى حين هاجمنى بقسوة شديدة فى جريدة يومية منتشرة .. وقضيت أسبوعا بأكمله أعانى عذاب الحيرة والتردد ، ثم قررت فى النهاية أن أرد عليه ، وكتبت مقالا شديدا القسوة لو نشر لعشت عمرى كله شديد الندم ، فعندما قرأت المقال شاب شعر رأسى لأول ما فيه ، لم يكن المقال من كلمات ولكن من سكاكين ، وعندما قرأته أكثر من مرة هدأت نفسى وبدأت أفكر فى الموضوع .

لقد كان مأمون الشناوى هو أول من مسح على جراحي فى بداية حياتى الصحفية . وكان وسط غابة الصحاحف كأنه شجرة تفاح تبسط ظلها وثمرها على الحيارى والضائعين . ولذلك حملت مقالى وذهبت الى كامل الشناوى . وقرأ كامل الشناوى المقال وتعجب . الى هذا الحد تتعاركان معا وأنت ومأمون الشناوى شقيقان فى الحياة ، وأنا شقيقتى مأمون بشهادة الميلاد .. هكذا قال كامل الشناوى وهو يلتقط سماعة التليفون ليتصل بمأمون . وفعلنا حضر مأمون فى بيت كامل الشناوى . وقبل رأسى واعتذر ومزقت المقال وشعرت بارتياح بالغ .

ولقد عف على كالطير عدد من كتاب الصف العاشر وامطرونى بانتاجهم الوفير فى الادب والفن . ولكنى لم أكن أحفل بهذا النوع من الادباء . لان مدح هؤلاء المدعين جريمة ، والهجوم عليهم جريمة أكبر . ولكن ابرز هؤلاء كان يعمل فى شركة كبرى لاعمال الكهرباء . وكان منظره يوحى بأنه قاتل هارب من العدالة ، أوصول بوليس فى طريقه الى المعاش ! وكان لحظة التقائى به قد انتهى من تأليف كتابه الرابع ورغم ذلك لم يكن أحد يدري به ، ولم يكن لكتبه وجود الا فى محلات البقالة ، ولقد نفذ الى نفسى من النقطة الضعيفة ، فقد حكى لى قصة كفاحه فى الحياة ، وهى قصة أشبه ماتكون بقصة حياتى . فقد بدأ حياته عاملا فى الشركة ، ثم استطاع أن يصل بمجهوده وعرقه وكفاحه الى منصب مدير مبيعات فى الشركة نفسها ، ثم أصبح مؤلفا وله أربعة كتب ، وكلها زوايات عن الحب والغرام . قصة كفاح مدهشة ، ولكن أدبه حقير وفقير وحاجة تسد النفس وتغم الفؤاد . وصاحبته باعتباره رجلا مكافحا

وليس باعتباره أديبا من الأدباء . ولكنه ظل يلح على أن أكتب عنه ولله ولكنى رفضت بشدة . . كان قد تعرف على محرر شباب يعمل معى فى الصفحة الادبية . وقد لاحظت شدة اشفاق هذا الشاب على الاديب المزيف ، وشدة اهتمامه به وبكتبه على السواء . وذات يوم رأيت فى بروفة الصفحة خبرا عن هذا الاديب فقامت بشطبه . ولكن المحرر الشاب اتهمنى بالقسوة ، ورجانى أن أترك الخبر لان عدم نشره سيصيب الاديب اياه بيأس فأتل لايعرف أحد مداه . وتحت تأثير المحرر الشاب تركت الخبر يمر . ولكن الأخبار بدأت تتكرر ، أخبار لا علاقه لها بأدب الاديب اياه ، ولكنها أخبار تحوى اسمه والسلام . خبر عن اعتزامه انتاج فيلم جديد ، أو خبر آخر عن قيامه برحلة فى أوروبا . ورغم تأكيد هذا الغبى ان الاخبار ليست صحيحة الا انه كان يبدى بها اهتماما عظيما ، وكان يسهر معنا حتى الصباح لكى يحصل على نسخة قبل موعد صدور المجلة بيوم . ولكن أخبار الاديب اياه انقطعت فجأة عن الصفحة . وراح الصحفى الشاب يهاجم الاديب بضراوة . ولم يلفت نظرى هذا الانقلاب المفاجىء فى علاقة الطرفين . ولكنى اكتشفت كل شىء فجأة عندما جاءنى الاديب اياه ذات مساء وهو يبكى ، وراح يحكى لى كيف أفنعه الصحفى الشاب بأن فى استطاعته أن يحقق له الشهرة الادبية . . ووزعت الصفقة بين الاثنين على أساس أن يدفع الاديب اياه ثمن الشهرة للصحفى الشاب . ودفع الاديب صاغرا ثمن الشهرة نقودا وأشياء أخرى عينية . ولكن الصحفى الشاب لم يقنع بعد فترة بالثمن الذى يدفعه الاديب المزعوم ، والاديب هو الآخر لم يعد قانعا بالأخبار التى ينشرها عنه الصحفى .

وعندما اختلف الاثنان ظهر المستور ولقد ذهب الاديب بعد ذلك فلم أره أبدا . غير انى كنت بين الحين والحين أرى مقالات فى نقده بقلم بعض « كبار » الكتاب ، وأحيانا أخرى أقرأ أخبارا عن نشاطه فى دنيا الادب ، وكنت أتساءل بينى وبين نفسى ، هل تم النشر باتفاق مماثل أم ماذا ؟ ولكن يبدو أن المسائل « ماذا » فى كثير مما ينشر فى الصحف والمجلات .

وهكذا بعد عشر سنوات كاملة منذ عام ١٩٤٥ الى عام ١٩٥٥ ، كنت قد تأكدت ان الصحافة ستصبح مهنتى من هنا والى الابد . وكنت قد حققت بعض الشهرة لدى القراء وكل

الشهرة لدى المشتغلين بالمهنة . ورغم اننى لم أكن عضوا
 بنقابة الصحفيين الا أن رأيى كان له وزن فى انتخابات
 النقابة . ولقد خضت الانتخابات فى النقابة ذات مرة ضد
 جلال الحامصى واستخدمت لسانى فى المعركة واثبت انه
 سلاح مارد وجبار . وخضتها مرة اخرى خلف طوغان ، ولكن
 التوفيق لم يحالفه ، واكتشفت على ضوء هذه المعركة انه لايكفى
 ان تكون شريفا وأمينا وصادقا لكى ينتخبك الناس ولكنى
 اكتشفت ان الانتخابات مهنة ينجح فيها الذى يتقنها .
 ولكن أغرب فصل انتخابى بارد صادفته كان فى
 نقابة الصحفيين ايضا . ولقد خضت المعركة بكل قواى فى
 صف عبد المنعم الصاوى ضد حسين فهمى . وكنت اعتقد ان
 عبد المنعم الصاوى دم جديد على النقابة ينبغى تأييده وانه وجه
 جديد وحسن ينبغى الوقوف خلفه الى مالا نهاية . وقفنا ندافع
 عن عبد المنعم الصاوى كالفولاذ ، طوغان وسامى الليثى وانا ،
 ولكن قبل الانتخابات بايام وقف عبد المنعم الصاوى فى صالة
 نقابة الصحفيين يخطب بحماس وقد تشابكت يده مع يد حسين
 فهمى ، وندد بالانتهازيين عملاء الاستعمار الذين دفعوه دفعا
 لمنافسة زميله وحبيبه حسين فهمى ثم أعلن فى النهاية تنازله
 عن الترشيح وهكذا وجدت نفسى فجأة ، انتهازيا وعميلا
 استعماريا . ومن الذى يتهمنى؟ الرجل الذى وقفت خلفه ادعوا له
 بالنصر من كل قلبى ، وابذل دمي من اجله فى سبيل الانتصار
 وفى ذلك العام أيضا ، عام ١٩٥٥ ، قدر لى ان اركب الطائرة
 لاول مرة وكانت اول رحلة لى الى الاقصر ، وعندما تسلمت
 التذكرة شعرت اننى تسلمت تصريح دفنى . . فقد كانت الطائرة
 فى نظرى هى علامة الموت ولا شئ سواه . المصير الاغبر الاسود
 الذى سأنتهى اليه ، ستصير جثتى بعد لحظة من الطيران طعاما
 لسماك النيل ، او طعاما لدود الارض ولن يعثر لى على أثر
 وسأذهب قبل الاوان شأن العباقرة والعظماء .
 وكان رجل هندي مخبول قد قرأ كفى ايام الحرب العالمية
 الثانية وقال لى وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح ستحقق كل امانيك
 فى الحياة ، وستصل الى قمة المجد سريعا ولكنك ستموت قبل
 أن تصل الى الاربعين وكنت وقتئذ فى الخامسة عشرة من عمري
 صبيا يتفجر غرورا وطيشا وعدم اهتمام بملاك الموت . .

ولكن عندما بدأت الايام تزحف بى نحو الاربعين راح خوفى
يزداد وفزعى يشتد من النبوة السوداء التى تنبأ بها هندی
معتوه ومدينة الاسكندرية على مرمى مدفع من الالمان . . المهم
اننى ركبت الطائرة فى الصباح وجاء مكاني الى جوار رجل
عجوز يرتدى ملابس كاملة وطربوش طويل فوق رأسه وفى
يمينه عصا كتلك التى كانت مع سيدنا موسى لداعى هش الغنم
وما رُب اخرى . وعندما حلقت الطائرة فى الجو منعت نفسى عن
الحركة حتى لا تهتز الطائرة فنسقط جميعا ونموت . وعندما جاءت
المضيئة بالشاي رفضت تناوله فقد خيل الى ان اى حركة ستجعل
الطائرة تميد بنا وننتهى جميعا فى حقل من حقول القمح التى
تمتد تحتنا على طول مجرى النيل . وفجأة ارتفع صوت الميكرفون
يعلن لنا ان الطائرة فوق أسيوط ثم فجأة اهتزت الطائرة بعنف
ومالت ثم هبطت كأنها تهوى على الارض . وهتفت فجأة وبذعر
شديد يا خبر اسود الطياره حثقع وانتفض الرجل العجوز صائحا
كأنما لدغته عقرب ، وهب واقفا مزجرا وسب دينى ودين
أجدادى ثم هب دنى بالقلم على وجهى . وخفت أن أرد عليه حتى
لا تقع بنا الطائرة . فانتقلت الى مقعد آخر وظللت مستقرا فى
مكاني كأننى تمثال السكاكيب الجالس القرفصاء حتى وصلت
الطائرة بسلام . ولقد ظلت هذه التجربة تملأ نفسى بالرهبة ،
والخوف والدهشة معا ، فكيف تسمى للانسان أن يخلق مثل
هذه الآلة الجبارة التى تحملك كبساط الريح عبر المدن والقرى
والحقول وفى متاهات الفضاء الذى ليس له حدود ، لتحط بك
فى مكان آخر بعيد . كيف يمكن للحديد أن يطير فوق الريح ،
أهى حقيقة أم وهم أم حلم يقظة . . لا يزيد !

ولقد ركبت الطائرة بعد ذلك الف مرة . وركبت طائرات
شتى ومن جميع الأحجام والاصناف . . طائرات نفثة تسابق
الصوت ، وطائرات نقل جبارة ، وطائرات عسكرية ، وطائرات
بجناح واحد ومحرك واحد مقطوعة النفس هزيلة الصلحة مثل
معزة المرحوم غاندى . ولكن خوفى من الطائرة لم يتغير .
وحكمة الله أننى أخاف قبل السفر ، ويصيبنى صداع قاتل ،
ولكن الخوف يتلاشى ويزول عندما أجلس فى مقعدى وتبدأ
محركات الطائرة تدور . يخيل الى أنها نفس الحالة النفسية
التي يمر بها المحكوم عليه بالاعدام . القلق والخوف قبل التنفيذ
ولكن الهدوء يعود الى نفسه عندما يدخل حجرة الاعدام ، الهدوء

وربما الذهول ، ولكن النتيجة واحدة ، وهى أن القلق لم يعد له وجود فى حياة هذا الانسان . وانا بطبعى رجل قلق لا أستطيع أن أعيش فى مدينة واحدة طول العام . وأعشق السفر كتعبير عن حاجتى الشديدة الى شىء مجهول ! واكثر الاصوات شجنا الى نفسى صوت باخرة تقلع من الميناء فى الليل ويهزنى بقسوة صغير قطار فى الفجر ، ودائما أتمنى لو كنت واحدا من الذين يركبون فيه .

والسفر هو هوايتى الوحيدة وممتعة حياتى التى لا أشعر بتخمة منها ، أشعر دائما أننى فى حاجة الى المزيد . وانا من النوع الذى لا يهوى الفرجة على الآثار ، ولا قضاء الوقت فى المتاحف ولكن أحب الحياة مع الناس . ولى فى كل بلد سافرت اليها أصدقاء وأحباء أحن اليهم وأشتاق الى رؤيتهم وأتمنى ان اذهب الى لقائهم بين الحين والحين . وعلى طول مالفيت وما نطيت فى الداخل والخارج الا اننى آسف وحزين ، لأننى لم اذهب الى بعض بلاد مصر التى أتمنى لو تتاح لى ظروف زيارتها فى وقت قريب . انا مثلاً حتى هذه اللحظة لم ازور مدينة المنيا . ولم اشاهد سوهاج الا خلال نوافذ القطار ، ولم يقع بصرى بعد على شاطئ السلوم . ولم اتفرج على واحة سيوة والواحة الوحيدة التى زرتها هى الواحة الخارجة ، وقد زرتها فى ظروف أتمنى على الله الاتعود ! واحب البلاد الى نفسى هى الجيزة لأننى عشت حياتى هناك ، ولمنطقة القناة منزلة خاصة فى نفسى وكذلك مسقط رأسى قرية قناطر القرنين منوفية حيث اشعر نحوها بحنين دافق فياض .

ولا اكره فى حياتى الا رؤية المقابر ولقاء رجل اكرهه . ولا اشعر بأحتقار فى حياتى الا للرجل النذل ، او لامرأة تخون بلا سبب . ولا أهتم فى حياتى الا بالطعام الجيد والملابس الفاخرة ، ولكنى لا اشعر بأى رغبة فى اقتناء النقود ولا اسعى للحصول على شىء اتركه لأولادى الا السمعة الطيبة والذكر الحسن . ولقد تعلمت من تجربة حياتى ان الميراث لا يصنع الرجال ولكنها التجربة والرغبة فى قهر الظروف السيئة . واذكر ان زملائى فى مدرسة الجيزة الأميرية قد نجح بعضهم فى الحياة وفشل بعضهم ولكن الفاشلين كانوا هم الذين يملكون عقارات واموالا طائلة وانا نفسى لم ارث شيئاً الا القهر والديون ، ومع ذلك استطعت ان اخرج من مصيدة الحياة الضيقة !

شيء واحد فقط كان على ان احققه فى عام ١٩٥٥ . هو
عضوية نقابة الصحفيين وان الامر بالنسبة لى سهلا ، فانا
تتوفر لى كل الشروط وقدمت أوراقى وانتظرت . ولكن هذا
الانتظار طال الى عدة اعوام .

ودخلت من اجل هذا المطلب المتواضع معارك وخضت حروبا
وخلعت عددا من اضراسى من شدة الهم والغم الشديد . ولكن
لماذا حدثت كل هذه الوقائع والمعارك فى سبيل أن انال حقا
مشروعا لا ينكره على أحد . لهذا قصة طويلة ، احتفظ بها الان
وسأكتشفها لكم عندما يحين الوقت لكتابة الجزء الثالث من
مذكرات الولد الشقى . والآن اختتم هذا الجزء الثانى ، وارجو
الا اكون قد سببت ازعاجا واذا كان احدكم قد صادف مللا من
هذه المذكرات فعذرى اننى لم أقصد هذا العمل الردى . كنت
اريد ان ابسط امامكم صفحات من حياتى لعلها تكون عظة او
عبرة أو دافعا الى الضحك فى اوقات الظهيرة او التثاؤب قبل
النوم .

على أية حال ، شكرا لكم جميعا . . الذين انبسطوا والذين
شعروا بالضيق . شكرا لكم لأنكم صبرتم على قراءة حياة
مخلوق هايف لم يخترع قنبلة ذرية ولم يكتشف جرثومة
السرطان ولم يحلق بصاروخ فى الفضاء الخارجى ، وارجو أن
التقى بكم قريبا فى الجزء الثالث من مذكرات الولد الشقى ،
فألى لقاء قريب !

القاهرة ١٩٦٩



كتب للمؤلف •

- ١ - السماء السوداء قصص قصيرة
- ٢ - جنة رضوان »
- ٣ - بنت مدارس »
- ٤ - الأفريكى »
- ٥ - عزبة بنايوتى مسرحية
- ٦ - الاورنس »
- ٧ - النصاين »
- ٨ - فيضان النبع »
- ٩ - حتى يعود القمر رواية
- ١٠ - الأرزقية «
- ١١ - الظرفاء دراسة أدبية
- ١٢ - الحان السماء »
- ١٣ - الجزائر أرض اللهب دراسة سياسية
- ١٤ - الولد الشقى الجزء الأول
- ١٥ - الموكوس فى بلاد الفلوس رحلة لبريطانيا
- ١٦ - السعلوكى فى بلاد الافريكى رحلة لأفريقيا

مجلس
العلماء



ولسوف تظل تلك الايام هي
أحلى أيام العمر وأقساها ولو قدر
لي العودة مرة أخرى الى الحياة
لا خترت نفس الاحداث ونفس
الاشخاص ونفس الطريق .. لانه
كان يلوح على اخر الطريق هدف
ثابت أسعى اليه بلا هوادة .
وبارادة من حديد .

« محمود السعدني »

